الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

حجاجية البلاغة العربية من خلال كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري

أطروحة تخرج لنيل درجة الدكتوراه علوم

تخصص: أدب ولغة عربية

إعداد الطالبة

أسماء نوني

إشراف الدكتور

محمد تاج

أعضاء اللجنة المناقشة

أ–د . زروقي عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	رئيسا.
أ.د. تاج محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	مشرفا ومقررا
د. خروبي بلقاسم	أستاذ محاضر« أ »	جامعة تيارت	عضوا مناقشا
أ–د. مونسي حبيب	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
أ–د. حليم بن عيسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا مناقشا
د. دردار بشير	أستاذ محاضر« أ»	م.ج. تيسمسيلت	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1437هـ-1438هـ/ 2016-2017م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر

كل الشكر لأخي برهان الدين الذي كنت أنتظر دخوله علي ولم يتخلف يوما عن ذلك، كان دخوله ربيعا للقلب، ومجلبا للراحة، ومبعثا للسرور، يهديني كلاما يزيدني الله به هدى ويجعلني أتقدم إلى هدفي زلفى، فاللهمّ اجزه عني كل خير

إهداء

إلى كل من يحب أسماء ويتذكرها بدعائه...

ملخص

الحجاج هو تلك الفعالية التي ترافق حياة البشر، فهو هدف كل مُخَاطِب، لذا فهو يمدُّ بجذوره في البلاغة اليونانية، كما أنه لم يغب عن البلاغة العربية القديمة، ومن المعلوم أن البلاغة القديمة شُحِنَتْ بالمغزى الحجاجي الإقناعي، وبعد ذلك دخلت في مراحل أبعدت المفاهيم الحجاجية عنها، فدخلت في قوقعة الحصر الذي يجعلها بلاغة صورة تبحث في تحسين الأسلوب، وظلت هكذا إلى أن حلّت بها صحوة مع ظهور دراساتٍ تُعْنَى بإحياء البلاغة اليونانية مع إضافات تحيي الحجاج جعلت منها إمبراطورية شاسعة. ولأن البلاغة العربية جزء من البلاغة الإنسانية فقد مسّها هي الأخرى هذا التغيير، فما فتئ الباحثون العرب يجتهدون في استقراء بلاغتهم القديمة، وكشف مكامنها الحجاجية، حتى تشهد هي الأخرى تلك الاستفاقة. البحث يقارب إمكانية توفر طرح العسكري –في كتابه الصناعتين– للبلاغة العربية على ركائز حجاجية ابتداء من مفهومه للبلاغة مرورا ببنائية قضاياها ووصولا إلى أهدافها.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، حجاجية البلاغة، الإفهام، الإمتاع، الإقناع، الإذعان، التسليم، الصناعتين، أبو هلال العسكري.

Résumé

L'argumentation ou le discours argumentatif a toujours été présent dans les interactions entre les hommes. Convaincre c'est l'objectif visé de l'interlocuteur. L'argumentation s'enracine dans la rhétorique grecque et même dans l'ancienne rhétorique arabe, cette dernière était connu par une surcharge a visée argumentatif convaincante.

La science de l'éloquence, au cours de son évolution, s'est recoquillée sur une simple figure d'embellissement du discours pour améliorer le style et mis à l'écart les concepts argumentatifs, Jusqu'à L'apparition des études novatrices, qui ont pris la rhétorique comme son champ d'investigation, cet éveil a renait la rhétorique grecque de ces cendres avec des ajouts portant sur l'argumentation.

La rhétorique arabe n'est qu'une partie de la rhétorique humaine qui en elle-même, a subi des modifications. Les chercheurs arabes, dans des études plus poussées, et inductifs dans la rhétorique antique, extrapolent les points argumentatifs afin d'apporter la lumière sur la rhétorique arabe selon des stratégies –de l'écriture stylistique- basées sur des piliers argumentatifs à travers la compréhension du concept, ses enjeux et ses objectifs.

Mots clés : argumentation – argumentation rhétorique- incompréhensible- conformité – asinàataine -Abu Hilal al-Askari.

مقدمة

©

مقدمة

تمثل البلاغة العربية الرصيد الفكري والثقافي للأمة العربية، يفتح هذا الرصيد مجالا واسعا لمدّ جسور التواصل بينه وبين ما توصلت إليه الدراسات البلاغية الحديثة، فالبلاغة العربية ليست بلاغة منغلقة على نفسها لا تقبل الجديد، بل هي بلاغة منفتحة تستطيع استيعاب النظريات الحديثة، وقد وصفت البلاغة التقليدية بالبلاغة المعيارية التعليمية، بمقارنتها مع البلاغة الجديدة التي تعاملت منذ منتصف القرن العشرين مع الخطابات النصية المختلفة تعاملا علميا وصفيا جديدا ضمن مجموعة اتجاهات متنوعة لسانية وتداولية وحجاجية...إلخ، هذه الاتجاهات وغيرها من العوامل بنت أركانا للبلاغة وصيّرتها إمبراطورية عظمى.

ما يهمنا في هذا المقام من الاتجاهات السابقة الذكر، الاتجاه الحجاجي الذي صار اليوم عبارة عن ممارسة حاضرة في كل الأنشطة الثقافية البشرية، والحجاج يضرب بجذوره في التاريخ، ولعل أهم ثقافة دُرس فيها وتطور هي الثقافة اليونانية، حيث وظّف البرهان والحوار بغرض الإقناع، والتأثير ثم أخذ المفهوم يتشكل نظريا وعمليا بعد ذلك في دراسات مختلفة تجاوزت التصورات اليونانية كما كان للحجاج حضوره في البلاغة العربية ممثلا في البرهان والإقناع اللذين شكلا أهم مباحثها، ويمكن القول إن البلاغة العربية ظل يتجاذبها جانبان أساسيان:جانب التواصل والإبلاغ، وجانب الفن والجمال؛ فالأول بما يعنيه من دقة ومباشرة ووضوح وإقناع، والثاني بما يفرضه من مواربة وتخييل وإمتاع، لذا يقصي هذا الطرح البلاغة العربية من زمرة البلاغات التقليدية على الأقل في طريقة تعاطيها لآليات الإمتاع والإقناع، وإن كان هذا التناول لا يرقى إلى التناول العلمي الذي أولته البلاغة الجديدة عنايتها إلا أنه يقاربه في كثير من الأحيان.

كما أن البلاغة العربية قد شملت الخطاب في تجلياته اللغوية والأسلوبية والتداولية للوصول إلى الحجاجية، على خلفية أن البلاغة دراسة للنصوص من حيث وظيفتها الحجاجية، انطلاقا من مقاربة الوجوه الأسلوبية المميزة لكل نص، ودراسة حيثيات إنتاجه من منتج ومتلقي ومقام...إلخ، وكلها حيثيات مجعولة للوصول لحجاجية ذلك النص.

يحاول هذا البحث إثبات هذه الفرضية من خلال مدوّنة نقدية وبلاغية؛ ممثلة في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، نظرا لما تمتلكه هذه المدونة من خصوصيات تجعلها مجالا خصبا لهذا الطرح، وقد تمّ اختيار هذه المدوّنة بعدِّها محاولة لقراءة شاملة تستهدف الخروج بتصور عام يجمع المتفرق (بيان الجاحظ، بديع ابن المعتز، ديباجة ابن قتيبة، وغير ذلك من الدراسات السابقة)، إضافة إلى أن العسكري حاول جمع كل متعلقات البلاغة والنقد العربيين، لذا كانت مواضيع كتاب الصناعتين محبوكة في وحدة موضوعية منسقة، حيث تتشكل الأطروحة العامة للكتاب بخيط جامع يحكم كل أبوابه وفصوله، ليجمع كل متعلقات البلاغة في نسق واضح، عندما يبين عن موضوع البلاغة في تمييز الكلام جيده من رديئه، وفي معرفة صنعة الكلام في البيان عن حسن السبك، وجودة الرصف، وفي ذكر الإيجاز والإطناب، وفي حسن الأخذ وقبحه، وجودته ورداءته، والقول في التشبيه في ذكر السجع والازدواج، في شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه في خمسة وثلاثين فصلا.

يتوافر كتاب الصناعتين على مجمل هذه المسائل البلاغية العربية في صورها المكتملة، الأمر الذي رشحه لأن يكون محل هذه الدراسة، وإذ نتكلم عن الحجاج في البلاغة العربية لا يمكننا استحضار كل المؤلفات البلاغية على كثرتها، لذا رجحت الرؤية على أن يكون هذا المؤلَف ممثلا للبلاغة العربية في هذا البحث على الأقل –إذا صحّ التعبير– لرؤية مدى توفره على ما تقتضيه حجاجية البلاغة، وهو ما بلوّر الإشكال التالي والذي تتجاذبه مجموعة من الانشغالات: هل تتسع البلاغة العربية للوظيفتين البلاغية والتداولية؟، وهل يتداخل نمط الخطاب التخييلي والتداولي في وصف البلاغة العربية؟ وكيف تجلت المظاهر الحجاجية للبلاغة في المعالجة النقدية لقضاياها في كتاب الصناعتين؟ وكيف تجاوز العسكري في كتابه هذا الكلام عن مقصدية المتكلم في الإفهام فحسب إلى غرض الإقناع؟ لتكوّن بذلك هذه الانشغالات روافد للطرح المجمل الممثل في: «حجاجية البلاغة العربية من خلال كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري».

إنّ الدرس الحجاجي قد تناولته بالتحليل والدرس والتقويم دراسات وأبحاث وكتب ومقالات يصعب حصرها، منها ما يتساوق وهذا البحث موضوعا على الأقل، وقد تمثلت المناولة في حضور الدرس الحجاجي في البلاغة العربية بشكل خاص، لذا كانت استفادة البحث من جلّها، وأهمها مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، وهو مصنف صدر عن حلقة باحثين من جامعة تونس، إضافة إلى عدة مؤلفات وضعت البلاغة العربية تحت عدسة النظرية الحجاجية، منها بلاغة الخطاب الإقناعي للدكتور حسن المودن، وبلاغة الإقناع في المناظرة للدكتور عبد اللطيف عادل، كما استأنس البحث ببعض أمهات المؤلفات في الحجاج، وأهمهما في الأصول اليونانية كتاب «الخطابة» لأرسطو، وكذا «مصنف الحجاج، البلاغة الجديدة»، الذي أصدره شايم بريلمان، وكتاب «الحجاج» لكرستيان بلانتان، أثناء التعرف على النظرية الحجاجية، إضافة إلى هذا اعتمد البحث على بعض النتاج البلاغي العربي، ولعله ما مكّن البحث من الدخول إلى هذه الإمبراطورية الشاسعة بشكل رصين، وقد تمّ من خلاله مخاتلة بعض أمهات الكتب كالبيان والتبيين للجاحظ، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب، هذا فضلا عن كتاب الصناعتين، وهو المدوّنة قصد الدراسة، لذا نعتبر البحث رافدا آخر ينضاف إلى مجموعة تلك الروافد العربية التي سبقت في هذا المجال خاصة أعمال الدكتور محمد العمري، فقد قدم دراسات ثرية بداية من كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها الذي يمثل مشروعا تحليليا للبلاغة العربية؛ ودراسة جديّة متميزة بيّن فيها روافدها ومظاهرها وذكر أهم مؤسسيها، وكان تقديمه لكتاب الصناعتين أحد أسباب تنبُّهِ الباحثة لمناسبته لهذه الدراسة، إضافة إلى أعمال لها صلة بالحجاج والبلاغة العربية ككتابه: «في بلاغة الخطاب الإقناعي».

ورغبة الباحثة في اكتشاف الآليات الحجاجية التي يمكن التوسل بها لقراءة البلاغة العربية القديمة كانت الدافع الآخر لاختيار هذا الموضوع، وهو إثبات أن البلاغة العربية لم تكن دائما بلاغة زخارف لفظية فقط، وهذا حجر الزاوية لهذا البحث، والجانب المهم الذي تمّ التركيز عليه، فالوجوه البلاغية إذا لم توظّف في خدمة الحجاج لن تكون إلا ضربا من الزخرف كما أشار شايم بريلمان،

والبلاغة العربية في حلٍّ عن هذا الوصف، كل هذا إضافة إلى سعي الباحثة للإضاءة على مسألة التناول المثالي لأبعاد الحجاج في البلاغة العربية خاصة عند العسكري، ولئن كانت البلاغة قد تناولت قضية الحجاج، فإن تناولها له كان في إطار محدود وهو إطار النتاج الشفوي، نظرا لاهتمامها بمسائل من قبيل هيئة الخطيب ومقامه ومقام السامعين، وبعض المسائل الأسلوبية، بيد أن منحى العسكري يجعل من الرأي الحكم بأنه أوغل إلى أبعد من ذلك؛ حيث وقف على الخطاب بصفة أعم في مجاليه الشفاهي والكتابي، وهو مذهب الدرس الحجاجي المعاصر.

كل المعطيات السابقة جعلت البحث يُطرَحُ كالآتي: فصل أول معنون بالحجاج الأصول والمنطلقات، وفيه كلام مختصر عن تاريخ الحجاج، بداية من المنظور البلاغي التقليدي عند أفلاطون، ومحاوراته مع السفسطائيين، ثم أرسطو وتطويره للنظرية الحجاجية، واهتمامه بعناصر الخطاب، ثم تتبع تطور الدراسات حول الحجاج منذ ربطه بالمغالطة والإيهام والخداع وتشويه سمعته بعدّهِ ضربا من التلاعب بعواطف الجمهور، وقد بقيت هذه الصفات لصيقة به حتى مطلع القرن العشرين، حيث ظهرت دراسات جديدة تنهض بالبلاغة والحجاج وتخرجهما من تابوت التحنيط الذي وضعا فيه، عندما ظهر ما يعرف بالبلاغة الجديدة، أو الخطابة الجديدة (Une nouvelle rhétorique) وذلك ببروز مصنف الحجاج، الخطابة الجديدة (traite de argumentation: de nouvelle rhétorique) عام 1958، وهو عمل مشترك بين شايم بيرلمان: (chaim Perelman) وتيتيكاه lucie olbrechts tytica). سرد هذا الجزء من البحث مفهوم البلاغة الجديدة كما وردت عند بريلمان، وأبرز أهم الاختلافات بينها وبين بلاغة أرسطو، وتأثر بريلمان بأرسطو ومعالجته لمسألة الحجاج جلي.

وفي مبحث يلي هذا، كان الحديث عن اتجاه آخر في الدراسات الحجاجية، وهو الاتجاه اللغوي عند أوزفالد ديكرو وانسكومبر؛ حيث يقوم الحجاج في مفهومهما على اللغة بالأساس، هذا الحجاج يجعل الأقوال تتابع وتترابط، على نحو دقيق فتجعل بعضها حججا تدعم وتثبت بعضها الآخر ما يدل على مكانة اللغة عندهما؛ حيث تصورا أن النتيجة في الحجاج قد تكون ظاهرة، وقد يتوصل إليها المتلقي باستنتاجاته عن طريق سبره للغة المخاطب بها.

أما الفصل الثاني وهو في الأصول العامة للحجاج في البلاغة العربية، وفيه حديث عن تمظهرات الحجاج في البلاغة العربية، من خلال تتبع لمفهوم البلاغة، ثم ملاحظة بعض المصطلحات البلاغية العربية، وصلتها بالمفاهيم الحجاجية، كمصطلح: الاحتجاج، ومصطلح الاستدلال، وغيرها، كما قام الفصل بترصد المظاهر الحجاجية عند فئات بلاغية معينة: الخطباء، المتكلمين، الفقهاء، والفلاسفة، وكلها ممثلة لمظاهر البلاغة العربية، ويمكن عدّها من أقوى النماذج المتوفرة على الحجاج والإقناع.

أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة مؤلف الصناعتين من حيث منهجه وطريقة تأليفه، حيث سرد مكونات الكتاب بذكر فصوله، ومن ثمة ذكر أهم المواضيع البلاغية وطريقة تناولها من طرف العسكري، ما أكد تفوقه في منهجية التأليف، واختلافه عن سابقيه.

في حين يأخذ الجزء الموالي على عاتقه النظر في الحصر الحجاجي الذي خصّه العسكري للأساليب البلاغية، وهو حجر الزاوية بالنسبة لهذا العمل الذي نرصد فيه الرؤى الحجاجية عند العسكري من خلال تتبع مفاهيم الحجاج في حدّه للبلاغة، ثم تجلياتها في كفايات إنتاج الخطاب انطلاقا من كل عناصر العملية التواصلية، من منتج الخطاب، إلى نص الخطاب، إلى المتلقي، مرورا بمقام وظروف إنتاج هذا الخطاب طبعا، هذا يستدعي تطبيقا مُتتَبِّعًا طريقة العسكري في رؤيته الحجاجية للنصوص، شعرا كانت أم نثرا، وذلك ما سيتناوله الفصل الخامس للبحث وهو: الصناعة الأدبية وبعدها الحجاجي في تصور العسكري؛ حيث يقوم بتقفي تلك الرؤى الحجاجية للعسكري في صناعتي الشعر والكتابة، باستقدام نصوص من الصناعتين وتوضيح التخريجات الحجاجية لها.

والخاتمة بطبيعة الحال تلخص أهم ما خرج به البحث من نتائج، وأهمها التسليم بحجاجية البلاغة العربية، والتخلي عن مذهب تصور أن البلاغة العربية محصورة بين الأسلوب والصورة.

صيرورة العمل على هذا المنوال جعلته يستعين بمناهج مختلفة منها المنهج التاريخي الذي استوجب استعماله أثناء تتبع التطور التاريخي لنظرية الحجاج، وكذا التطور التاريخي للبلاغة العربية، مستحضرا آليتي الوصف والتحليل اللتين بهما نحاول إعادة قراءة بعض النصوص وتخريجها بما يقتضيه المنهج

الحجاجي، فنحن مضطرون إلى تحليل هذه الشواهد والتعمق في وصفها، حتى نصل إلى استخراج المغزى الحجاجي منها، وهذا ما استدعى منهجا آخر هو المنهج التداولي، الذي لا يقصي أيّ عنصر من عناصر العملية التواصلية، وهو ما فعله العسكري في حدّ ذاته.

الأكيد أن صعوبة تحديد المنهج في الدراسة الأكاديمية هاجس يؤرق أي باحث، ينضاف في حالنا هذه صعوبة الدرس الحجاجي نفسه، باعتباره درسا جديدا على الباحث الجزائري، وهو يجعل هذا العمل المتواضع يحتاج إلى توسع أكثر ونظر أعمق. فمحاولة بلورة المكامن الحجاجية للبلاغة العربية في فضاء الحجاج الغربي أمر من الصعوبة بما كان، وقد حاولت الباحثة التوصل إلى جذوة من هذه المكامن، فإن تحقق الهدف فإلى الغاية جري الجواد، وإلا فالاحتساب في إخلاص النية، لذلك أقدم عملي هذا وأسبق تقديم الاعتذار عن الهفوات والأخطاء فيه، فما الكمال إلا لله وحده، له الحمد وعليه التوكل.

في الأخير أتقدم بخالص الشكر لأساتذتي الكرام على رأسهم أستاذي المشرف الدكتور محمد تاج على إكرامي بقبول الإشراف على عملي هذا، وعلى كرم معاملته، كما أزجي موفور الشكر إلى صاحب الفضل علي أستاذي الدكتور عبد القادر زروقي الذي كان لي نعم المرشد في طريق البحث منذ خطواتي الأولى فيه، كما لا أنسى كلّ اللذين وقفوا معي ولو بكلمة طيبة ودعاء صادق وفي مقدمتهم أستاذي الفاضل الدكتور غانم حنجار.

أسماء نوني

خميستي يوم الاثنين 2016/12/22

الفصل الأول

الحجاج، المفاهيم، الآليات، المجالات، الخصائص

الفصل الأول: الحجاج، المفاهيم، الآليات، المجالات، الخصائص

1 – مفهوم الحجاج

1.1 لحجاج لغة: في العربية من مصدر للفعل حاجّ، وجاء في لسان العرب:« الحجة، البرهان، وقيل: الحجة ما دوفِع به الخصم، وقال الأزهري[1] الحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل مُحاجج أي جدل، والتحاجّ: التخاصم... وحاجّه، محاجه، وحجاجا، نازعه الحجة، وحجّه، يحجّه حجّا، غلبه على حجته... والحجة: الدليل والبرهان، يقال:حاججته فأنا محاج، وحجيج»[2].

تدور المادة التي خصّها ابن منظور[3] للجذر (ح ج ج)، حول النزاع، والمخاصمة بواسطة الحجج التي بها تكون الغلبة للغالب، لذلك سيكون المفهوم عند ابن منظور قريبا من مفهوم الجدل الذي يحده بمقابلة الحجة بالحجة وكذلك قوله: «رجل محاجج أي جدل»[4]، وقد اتفق الكثير من العلماء مع

---

[1] – الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري اللغوي الشافعي، ارتحل في طلب العلم بعد أن سمع ببلده من الحسين بن إدريس، كان رأسا في اللغة والفقه، له كتاب"تهذيب اللغة" و "التفسير"، توفي سنة: 370هـ، ينظر: شمس الدين محمد أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: أكرم البوشي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة:1996، ج16،ص:115،116.

[2] –ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، المجلد الثاني، مادة، ح ج ج– ص:779.

[3] – **ابن منظور** محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقي، أديب ومؤرّخ وعالم في الفقه الإسلامي واللغة العربية، ولد في شهر محرم عام 360هـ، و قد أختلفت الأقاويل حول مكان ولادته، قيل بقفصة بتونس، وقيل بطرابلس بليبيا، وقيل بمصر ويعدّ من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري، تتلمذ على يد عبد الرحمن بن الطفيل، ومرتضى بن حاتم، ويوسف المخيلي، وأبي الحسن علي بن المقير البغدادي، والعالم الصابوني. خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس ، أصيب بالعمي في آواخر سنوات حياته وتوفي في مصر في شهر شعبان عام 711هـ، من أشهر مؤلفاته"لسان العرب". ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سنة:2002، ج7، ص:108.

[4] – ابن منظور، المصدر السابق، ص:779.

هذا المذهب، مثلا نجد ذلك عند الزركشي[1]، والسيوطي[2]، عندما عقد كل منهما فصلا في كتابه[3]، في جدل القرآن، استعملا فيه ألفاظ: المحاجّة، والحجاج، على أنها ألفاظ مرادفة للجدل، قد يُظهر الضبط اللغوي التقارب بين معنى الحجاج ومعنى الجدل، لكن في الحقيقة إنّ مفهوم الحجاج يأخذ مساحة أوسع من مفهوم الجدل، فنجد الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي، لأن الخطابة والجدل قوتان لإنتاج الحجاج، إلى جانب معنى الجدل يكون معنى القصد لصيقا بالحجاج، فنجد الأزهري مثلا يؤكد هذه الدلالة حيث قال: «وإنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد، لأن القصد لها وإليها، وكذلك محجّة الطريق هي المقصد والمسلك»[4]، الحجة إذا الطريق التي يتخذها صاحبها ليصل إلى إقناع السامع، وهي «تجمع على حجج، وحجاج، أي أنهما في الأصل نفسه... ويكمن معنى الحجة في القصد، والظفر، والغلبة على الخصم، في حين يقوم الحجاج على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع اللذين يفترض فيهما أن يتحاجا في أمر يستلزم دليلا أو حجة له، أو عليه»[5]، ليكون الحجاج «كل منطوق به، موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة»[6]، ويتعدى الإفهام إلى الإقناع وهو الغرض الأساسي للحجاج، أما المعنى اللغوي للحجاج في الفرنسية، فهو مشتق من مادة (argumentation) التي تشير إلى معان منها[7]:

---

[1]- الزركشي: هو بدر الدين أبو عبد الله المصري الزركشي الشافعي، ولد سنة:745هـ، أخذ عن الشيخين جمال الدين الأنسوي، وسراج الدين البلقيني، ورحل إلى حلب إلى الشيخ شهاب الدين الأدرعي، وسمع الحديث بدمشق وغيرها، توفي سنة:794هـ،، ينظر: شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن محمد العكري، الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، سنة:1986، المجلد الثامن، ص: 572،573.

[2] – السيوطي : جلال الدين عبد الرحمان بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن سيف الدين السيوطي، ولد مستهل رجب، سنة تسع وأربعين وثمانمائة، أهم مؤلفاته "المزهر في علوم اللغة وأنواعها"، " الإتقان في علوم القرآن"، " الأشباه والنظائر في النحو"، توفي الخميس التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة:911هـ، ينظر: جلال الدين السيوطي، الإقتراح في علم أصول النحو، تعليق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، سنة: 2006م، ص:7.

[3] – الزركشي: البرهان في علوم القرآن، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن.

[4]- ابن منظور، لسان العرب، ص: 779.

[5]- رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي، وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد الأربعين، أكتوبر- ديسمبر2011، ص: 71.

[6]- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، سنة: 2012، ص: 226.

[7] - Le grand Robert, Dictionnaire de la langue française, paris 1989,p 535.

1- القيام باستعمال الحجج.

2- مجموعة من الحجج الهادفة إلى تحقيق نتيجة واحدة.

3- استعمال الحجج، أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

أما في الانجليزية فنجد مصطلح Argue بمعنى طرح الرأي المخالف و Argument بمعنى المجادلة والمناقشة، بطرح الأفكار المختلفة[1]، يظهر من التحديد اللغوي السابق أن الحجاج يدور في فلك الغلبة والجدال، بهدف حصول التأثير والإقناع.

1 . 2- الحجاج اصطلاحا:

يجري مفهوم مصطلح الحجاج حول عدة مفاهيم فرضتها طبيعته المتنوعة المشارب، بين المنطق والفلسفة والبلاغة وغيرها من الحقول المعرفية، لذلك يمكن تصور مفاهيم منها، كونه مرادفا للجد جامع بين الجدل والخطابة، مبحث لغوي مستقل بذاته.

1 .2. 1- **الحجاج مرادف للجدل:** رأينا مذهب ابن منظور، والزركشي، والسيوطي في اعتبار الحجاج جدل، يظهر ذلك أيضا عند ابن عاشور[2]؛ حيث يعرف المجادلة بأنّها «مفاعلة بين الجدل وهو القدرة على الخصام، والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك»[3] وكلها مفاهيم تجري في فلك المناقشة، ومحاولة الإقناع، وقد أورد ابن عاشور حالات لمفهوم الجدل، فجعله في الخير تارة كقوله تعالى: ﴿ **يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ** ﴾[4]، وفي الشرّ أخرى كقوله تعالى: ﴿ **وَلَا جِدَالَ فِي**

[1] -Oxford, Advanced learner's dictionary, new edition, p : 52-53.

[2] – ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر، بن عاشور، ولد ضاحية المرسى في تونس، جمادى الأولى، سنة:1226هـ، نشأ في أحضان أسرة علمية، حيث حفظ القرآن ، واتجه إلى حفظ المتون السائدة في وقته، ولما بلغ الرابعة عشر التق بجامع الزيتونة سنة: 1310، له مؤلفات كثيرة في شتى الفنون، منها تفسيره ، "التحرير والتنوير"، "مقاصد الشريعة وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، توفي بالمرسى يوم الأحد 13 رجب 1394. ينظر: محمد بن إبراهيم، التقريب لتفسير التحرير والتنوير ، دط، دار خزيمة، تونس، ج1، ص:15-30.

[3] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، الجزء الثالث، ص: 194.

[4] – سورة هود : الآية: 74.

الْحَجِّ﴾[1]؛ ليجتمع مفهوما الحجاج والجدل على معنى المخاصمة بالقول وإيراد الحجة، غير أنّ ابن عاشور يراها مختصّة بالباطل – عادة- في الحجاج، في حين يكون الجدل في الباطل والحق.

بهذا يمكن وصف مفهوم مصطلح الحجاج كونه مرادفا للجدل، بأنّه مفهوم منطقي، ذلك ما ذهب إليه صادق الحسين الشيرازي في حدّه للجدل في علم المنطق بأنه «مقدمات القياس التي يأتي بها الشخص لإقامة الحجة على أي مطلب، كان حق أو باطل لإلزام الخصم»[2]، وهذا قياس منطقي يعتمد المقدمات والنتائج؛ الملاحظ هنا تداخل المصطلحات، ويستمر هذا التداخل لنجده عند أبي الوليد الباجي[3] الذي يصف في مقدمة كتابه «المنهاج في ترتيب الحجاج» أنّ كتابه هذا كتاب في الجدل[4]، لأن الجدل قد ينحصر في مسائل منطقية أو قضايا في علم أصول الفقه، وعلم الكلام وغيرها، بينما يستوعب الحجاج كل ذلك، إضافة إلى مسائل أعمّ تخصّ التواصل بمفهومه الواسع لذلك نجده يأخذ نصيبا من الخطابة، والبلاغة وغيرها.

1. **2. 2– الحجاج قسيم بين الجدل والخطابة:** عدّ أرسطو الجدل والخطابة قوتين لإنتاج الحجج، ليكون هناك على الأقل حجاجان، حجاج جدلي وآخر خطابي؛ أمّا الجدلي فهو: ملخّص في كتاب أرسطو الطوبيقي أو المواضع، يقوم أساسا على مناقشة نظرية صرفة بغرض التأثير العقلي المجرد، وهو عادة ما يكون بين شخصين يحاول أحدهما إقناع الآخر، وأمّا الخطابي فهو متلخص في كتاب أرسطو الخطابة، وهو حجاج موجه إلى جمهور معين غرضه الأساسي التأثير العاطفي، وإثارة المشاعر والانفعالات، ولاتهم فيه الوسيلة، حتى وإن كانت بالخداع والإيهام، المهم هو إقناع هذا الجمهور واستمالته.

---

[1]– سورة البقرة : الآية:197

[2] – صادق الحسين الشيرازي، الموجز في المنطق، الطبعة الثالثة، مؤسسة الوفاء، بيروت، سنة: 1981، ص: 104.

[3] – الباجي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد، أصله من بطليوس، وانتقل جده إلى باجة المدينة الواقعة قرب اشبيليا فنسب إليها، ولد سنة: 403، له مؤلفات أشهرها أحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب فرق المهتدين، وكتاب سنن المنهاج وترتيب الحجاج، توفي بالمرية سنة: 474، ينظر: شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن محمد العكري، الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد الخامس، ص: 315.

[4]– ينظر: أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عيد المخبيتركي، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، سنة: 1978، ص07.

ما يميز هذا الحجاج أنّه موجه لجمهور معين في ظروف معينة، وضمن مقامات معينة، بهدف إذعان ذلك الجمهور، هذه السمة جعلت صورة الحجاج مشوهة، فاستبعد تماما من البحوث، ليشهد استفاقة مهمة في القرن العشرين، باتخاذه مفهوما يبرّئه من تهمة المغالطة، والاستمالة هذا المفهوم يجعله مبحثا لغويا مستقلا.

1. 2. 3– الحجاج مبحث لغوي مستقل: أصبح مفهوم الحجاج مصطلحا مستقلا بذاته، كمبحث لغوي محض يبحث عن قضايا الخطاب، بفضل جهود باحثين غرب، حاولوا فصله عن الجدل، وكل ما ينسب إليه من قصور في المحاججة والخطابة، وما ينسب إليها من تهم المغالطة والمناورة، هذا المفهوم الجديد أخذ في الظهور منذ سنة 1958، وهو تاريخ صدور كتابين في الحجاج وهما: كتاب: استعمالات الحجاج the uses of argument ، لستيفن تولمين Stephen Taulmin، ومصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة Traite de l'argumentation, la nouvelle rhéorique للثنائي شايم بريلمن– Chaim Perelman ، ولويس تيتكاه–Louis Tyteca ، لتنتقل مادة الحجاج عبر التطور إلى إطار لساني مع أنسوكمبر–Anxombre، وديكرو–ducrot، من خلال مؤلفهما الحجاج في اللغة l'argumentation dans la langue. كل هذه الجهود غيرت النظرة المتهمة للحجاج.

2– الخصائص العامة للحجاج:

2. 1– خاصية البناء: الواضح أنّ الحجاج ليس كيانا جاهزا ومرتبا منذ بدايته، بل هو فعالية تبنى بالتدريج ويتمّ بناؤها وفق شروط ومراحل معينة، تتوقف عند شكل الخطاب المبثوث فيه الحجاج (خطبة، نص حجاجي عادي،...الخ). لذلك لا تظهر فعالية الخطاب الحجاجي إلّا من خلال تمثل طريقة بنائه، وتفاعل عناصره، وديناميكية مكوناته[1]، فمن المؤكد أنّ لنوعية الحجج المستعملة، وطريقة عرضها دور هام في الإقناع؛ إذ يتم جمع الحجج، وتنسيقها حسب سياق ومقام عرضها، وحسب الجمهور الموجهة إليه، فهو في الأخير الموجه إليه الخطاب، والمرام إقناعه، لذلك تكون لهذه الخاصية أهمية قصوى، فمنها تنطلق العملية الحجاجية، وفيها تظهر نجاعتها.

2. 2– خاصية التفاعل: الحجاج هو عبارة عن فعالية مكونة من عدة عناصر، يتكون أصلا من تفاعل خطابي، يختص بخاصيتين أساسيتين هما: خاصية البناء المزدوج، وخاصية الممارسة الحيّة.

[1]– ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، دط، إفريقيا الشرق، المغرب، سنة:2006 ص: 129.

أ. **البناء المزدوج:** يحتاج المتكلم والمستمع إلى نوع من التزاوج في العملية الحجاجية، حتى بلوغ مستوى من الاتفاق بينهما؛ لأن ذلك التزاوج مدعاة إلى الاختلاف بطبيعة الحال، ذلك الاختلاف هو الجالب للممارسة الحجاجية، حيث يكون التزاوج بالنسبة للمتكلم بالانشقاق الاعتباري لذاته إلى شقين، أحدهما ظاهر، يستقل بظاهرة الادّعاء، فالمتكلم يعرض رأيه على شكل دعوى يدّعيها ويعرضها على المستمع، أما الشق الثاني باطني، يقوم بالاعتراض مع الشق الثاني من ذات المستمع، لأنه هو بدوره يقوم بالانشقاق الاعتباري لذاته، أحدهما ظاهر يستقل بمبادرة الاعتراض، لأن رأي المستمع سيعرض على شكل اعتراض لما ادّعته ذات المتكلم الظاهرة، والشق الثاني لذات المستمع تشترك مع الشق الأول من ذات المتكلم في الادعاء، لأنّ كلا من المتكلم والمستمع قد يتعاطيا ولو ذهنيا مع المعطيات المطروحة من كل واحد منهما، فيقوم المتكلم بتصور مواطن النقد في الدعوى، التي قد تصورها المستمع مبدئيا، وكذلك يقوم المستمع بتصور إمكانات قبول الادعاء.

وقد ينشأ عن هذا التزاوج الاعتباري في ذات المتكلم، وذات المستمع ازدواج في مختلف أركان العملية الحجاجية، كالازدواج في القصد، والازدواج في التكلم، والازدواج في الاستماع، والازدواج في السياق على التوالي[1].

1) **ازدواج القصد:** يكون تقاصدا خارجيا، وهو عندما يقصد المتكلم بكلامه المستمع، وفي كون المستمع يقصد باستماعه المتكلم، كما يتجلى في حصول الوعي بالقصدين عند كليهما، وأما التقاصد الداخلي، فهو أن يقصد المتكلم نفسه في قصده للمستمع، ويتجلى في جانب المستمع في كون المستمع، قد يقصد نفسه في قصده للمتكلم[2].

2) **ازدواج التكلم:** «إذا بلغ التقاصد غايته من نفس المتكلم، فإن المتكلم قد يتكلم كما لو كان المستمع يشاركه كلامه مشاركة، بل كما لو كان المستمع هو الذي يتكلم، أو إذا جاز لنا التعبير، كما لو كان المتكلم يحمل لسان المستمع في فيه»[3] هي إذا حالة الاندماج التقاصدي التام بين المتكلم والمستمع.

---

[1]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 266.

[2]- ينظر: طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص: 266.

[3]- ينظر: طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص: 266.

3) **ازدواج الاستماع**:« إذا بلغ التقاصد غايته من نفس المستمع، فإن المستمع قد يستمع كما لو كان المتكلم يشاركه استماعه مشاركة، بل كما لو كان المتكلم هو الذي يستمع، أو كما لو كان المستمع يحمل سمع المتكلم في أذنه»[1] وهذه هي الغاية من الحجاج، أن يصل المتكلم إلى الوعي بما يريده المستمع منه، ويصل المستمع إلى ما يقصد إليه المتكلم، ويقتنع به، لتنجح العملية الحجاجية في الأخير.

4) **ازدواج السياق**: مؤكد أنّ للتكلم سياق خاص، وللاستماع سياق خاص، فالمتكلم ينشئ قولا ما، ويقوم المستمع بتأويل ما أنشأه المتكلم. ويتم ذلك كله ضمن سياقات مزدوجة فسياق الإنشاء يحتوي نصيبا من سياق التأويل، وسياق التأويل يحتوي نصيبا من سياق الإنشاء، وتتوقف نجاعة العملية الاتصالية على مدى توافق النصيبين.

ب.الممارسة الحية للتفاعل: يتم بناء الحجاج على ممارستين[2]، حية و أخرى غير حية.

1. **الممارسة غير الحيّة**: هذه الممارسة تكتفي بأخذ المعنى الحقيقي، أو السطحي الظاهري للقول الحجاجي، ولا تبحث في المعاني المجازية.

2. **الممارسة الحية**: هذه الممارسة لا تكتفي بالمعنى الحقيقي للقول، بل تأخذ بجانبي المجاز والأخلاق، ففي أخذها بجانب المجاز، تتوسل بالصور البيانية، أما في أخذها بجانب الخلق ففي القيمة التي تكون لتلك الحجة، جراء العمل المتحقق بها، هذه الخاصية هي المعوّل عليها في إقامة مفهوم تواصلي للحجاج، فالبشر مطبوعون على التفاعل، يديرون الكلام بينهم، ويتناوبون على العرض، وعلى التفاعل مع ما يعرض، نتيجة هذا التفاعل تتجلى فيما ينجز من أفعال بعد الفراغ من عملية التفاعل الحجاجية.

2. 3– خاصية الالتباس: رأينا أن ماهية الحجاج تقوم على مبدأ التفاعل لكن حقيقته، لا تقوم على مجرد العلاقة التفاعلية، بل تقوم أيضا على خاصية الالتباس، فإذا «كانت اللغة الطبيعية أصلا لكل غموض دلالي ومجالا لكل انزياح، ومجاز لساني، فإن الأمر سيكون معقدا وعسير الفهم في العملية الحجاجية، أو قل إن الحجاج هو عمق الالتباس»[3]، يتكون الالتباس في الحجاج عن طريق

[1]– ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 266.

[2]– طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص: 266.

[3]– عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص131.

المجاز، فما يدور حول القول المجازي الحجاجي في نفس الوقت، من ادعاء واعتراض وتفاعل بينهما، يجعل الحجاج مقترنا بمفهوم الالتباس بلا شك.

2. 4– خاصية التأويل: تقوم هذه الخاصية على مبدأ التقييم الايجابي أو السلبي للقول الحجاجي، غير أن هذا التقييم يخضع لشروط معينة، فالمعنى الحجاجي يؤول إلى معنى ظاهر، وآخر باطن، وهو يخضع لفهم أول، وفهم ثاني، يتم ذلك في إطار سياق، ومقام معينين[1] يتلون الفهم بهما، خاصة الفهم الثاني، وهو الباطن، يخضع لظروف المقام، وظروف أخرى، ليحل السياق بذلك محلا أساسيا في تأويل الخطاب الحجاجي.

2 . 5– خاصية الاعتقاد: تمس هذه الخاصية الجوانب الإنسانية (تضحية، إيثار، حب،...) و هي الجوانب المعوّل عليها بشكل أساسي في العملية الحجاجية لما لها من أثر في جعل المتلقي يذعن لمعطيات الخطاب الموجهة إليه، لذلك يتحرى نسج الخطاب اختيار تلك المعطيات بما يتناسب ومعتقدات متلقيها.

2 .6– خاصية الانتهاض إلى العمل: هدف الحجاج هو جعل المتلقي يذعن لما فيه، ومن ثم جعله ينهض إلى رد فعل معين سواء كان عملًا، أو كفًا عن عمل، بغية حصول الإقناع والتواصل، فلا يتم الإقناعّ إلّا بعد مطابقة القول الحجاجي فعل صاحبه، هذا المبدأ هو مبدأ الانتهاض إلى العمل، وهو يجعل القول الحجاجي مرهونا بالاقتناع والعمل[2] ؛ حيث يكون المتكلم مقتنعا بما يقول، وعاملا به، ليقنع مستمعه، ويجعله هو الآخر عاملا به، فما يقوم به المتحاجون هو في جوهره أفعال لغوية، فإذا نطق المحاجج بعبارة من العبارات، يصبح فاعلا لغويا، هذا ما يجعل الحجاج متعلقاً بنظرية أفعال اللغة، هذا الطرح يجمع بين خاصيتين للحجاج، فهو يستعمل اللغة لتحقيق أغراضه، وأيضا جعله المتلقين ينجزون أفعالا بواسطة تلك اللغة.

2. 7– خاصية الزمانية للحجاج: للحجاج زمن معين يقع فيه، والمؤكد أن المتفاعلين حجاجيا يقومون بتأويل ذلك التواصل اللغوي المفعّل لهذا الحجاج، فلابدّ أن يتجدد حسب التفاعل بالأفعال اللغوية الحاصلة في كل زمن للتفاعل «فإنّ الفعل اللّغوي الذي ينجزه طرف من الأطراف، يؤوله

[1]– ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص: 139.

[2]–ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 237.

الطرف الآخر في البداية تأويلا ما، يعدل ويغير بهذه الدرجة أو بتلك، وإن وقع فعل لغوي جديد في زمان تالي لزمان انجاز الفعل اللغوي الأول»[1]، فالأفعال تؤوّل بالاستناد إلى بعضها، فيسند الفعل اللغوي السابق في تأويله إلى الفعل اللغوي اللاحق، واللاحق يؤوّل بالاستناد إلى السابق وهكذا هكذا يراعى زمن عرض الأفعال اللغوية في تأويلها، وما يهمّ في مراعاة الزمن هو ما يترتب من دلالة وتأويل، ومن ثم من تواصل؛ وهو الغرض من الحجاج.

2. 8- خاصية السعي إلى تغيير الأحكام والمعتقدات والقيم والمقاصد: يدخل المتفاعلون في الحجاج عند كل طرف جملة من الأحكام والمعتقدات والقيم للطرف المقابل[2]، ولعلّ هذا المفهوم يصبّ في القصد بالإذعان، وجعل المتحاجين يذعنون ويسلمون بواسطة الحجاج المحكم لقيم ومعتقدات بعضهم، ويكون ذلك الإذعان للحجاج الأقوى طبعا.

2. 9- خاصية الانضباط بجملة من القواعد: يستعمل الحجاج جملة من القواعد؛ حتى يبرر مشروعيته منها:

1) **قواعد قضويّة:** تعمل هذه القواعد على كشف القضايا التي يجوز إيرادها في الحوار الحجاجي، والقضايا التي لا يجوز وقوعها فيه[3] وفق معيار الانتقائية، حيث يتم انتقاء القضايا حسب جنس الحجاج، فقد يكون حجاجا بين العامة، فتكون قضاياه خاصة بالعامة، أو حجاجا بين أهل تخصص معين (سياسة، دين، تاريخ...) فتكون القضايا حسب الأجناس الحجاجية المختلفة.

2) **قواعد لغوية إنجازيه:** تحصر هذه القواعد الشروط التي ينبغي أن تنجز وفقها الأفعال اللغوية التي يمكن للمتحاجين أن يتفاعلوا بها مثل فعل الادعاء، وفعل الإخبار، وفعل السؤال، وفعل الاعتراض[4] فالعناصر اللغوية المستعملة هي ما يترجم الأفعال التي يجب انجازها بعد وقوع الحجاج وتحدد نوع تلك الأفعال.

---

[1]- حمو النقاري، منطق الكلام، من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، سنة:2010 ، ص: 467.

[2]- ينظر: حمو النقاري، المرجع نفسه، ص: 467.

[3]- ينظر: حمو النقاري، المرجع نفسه ، ص: 480.

[4]- ينظر: حمو النقاري، المرجع نفسه، ص: 480.

3) **قواعد لغوية تأويلية:** توضح هذه القواعد دلالة العناصر اللغوية، وإمكانيات تأويلها[1]، لتتم إنجازات الأفعال اللغوية المتوخاة من طرف المتفاعلين حجاجيا.

4) **قواعد نظرية:** تحدد الضوابط المنطقية التي تضبط الحجاج.

5) **قواعد تقويمية:** تحدد هذه القواعد شكل الأقوال والمعتقدات والقيم والمقاصد التي ترومها الأطراف المتفاعلة حجاجيا.

6) **قواعد وظيفية عامة:** وهي قواعد تبين كيفية تقويم جنس حجاجي ما، من حيث إفضاؤه إلى الغاية المقصودة منه.

7) **قواعد وظيفية خاصة:** هي قواعد تحدد كيفية تقويم أفعال المتحاججين[2]، بمعنى تقويم النتائج التي تنمّ عن الحجاج، المترجمة طبعا في أفعال المتحاججين.

2 . 10– خاصية الوجاهة في الخطاب الحجاجي:

الغاية القصوى للخطاب الحجاجي هي إقناع المتلقي بأفكار معينة، ليحدث أثارا واضحة في سلوكه، تحقق هذا الغرض، وهو التغيير في أفكار المتلقي ومواقفه، ولا شك أنّه علامة نجاح الخطاب الإقناعي، ووجاهة الحجاج، ولا يكتسب الحجاج هذه النجاعة إلّا من خلال تحقق بعض الشروط منها[3]:

1. نجاعة الخطاب: بتحقيق الفعل في المتلقي، متوخيا كل السبل للوصول إلى هذا، باستعمال طرائق القول المختلفة، وأساليب التصوير المناسبة.

2. تناغم الخطاب: حيث يكون الخطاب منسجما في مكوناته، فيخلو من التناقض، فلا تتخالف نتائجه، ومقدماته، ولا تتناقض أوائله وأواخره.

[1]– ينظر: حمو النقاري، منطق الكلام ، ص: 480.

[2]– ينظر: حمو النقاري، المرجع نفسه ، ص: 481.

[3]– ينظر: سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته، وأساليبه، دط، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، سنة:2011 ، ص: 35.

3- الخصائص العامة للحجاج في الدرس المعاصر:

ارتبط الحجاج في الخصائص التي ذكرناها آنفا بعناصر معينة، بالتواصل أولا، و بإمكانيات الاعتراض عليه وربطه بعمل ينتج عنه ثانيا، هذا الحجاج الذي يعتبر تفاعلا حجاجيا، وقد تم تناول هذا التفاعل من جهات ثلاث[1] هي:

3. 1- **التناول اللغوي** : إن الوجود المادي للخطاب، ونعني به التمظهر اللغوي الذي يضمن تحقق حجاجيته، فلا يتم التفاعل الحجاجي إلّا بعد أن يعبر المتفاعلون (المتكلمون، المتلقون) عن أفكارهم عن طريق اللغة.

3. 2- **التناول الاجتماعي**:بما أنّنا بصدد الحديث عن تفاعل معين بين الأفراد، فمن المؤكد أنه سيأخذ سمة الاجتماعية، وفكرة الحوار بين المتفاعلين لا ينبغي أن تغيب عن أي تفاعل اجتماعي بالتالي ينبغي الاهتمام بالحجاج باعتباره حوارا، تتم عبره عملية التواصل بين أفراد المجتمع.

3. 3- **التناول الجدلي**:يرتبط مفهوم الحجاج بمفهوم الجدل، أي هو مجموعة قواعد تأصّل لإدارة الكلام بين جانبين على الأقل[2] تتلخص تلك القواعد في مسائل الادعاء، الاعتراض، الانتقاد، الإثبات والإبطال، السؤال والجواب.

تعمل الخصائص السابقة الذكر على جعل القول الحجاجي ناجعا في الإقناع، وهي تعمل إلى جانب مسائل أخرى لها نفس الهدف، منها البنيات والوقائع الخارجية التي تقرب نجاعة القول الحجاجي، من خلال ما تقدمه للمتلقي من أمثلة ونماذج ناجحة، مستمدة من الواقع، ومن هذه البنيات:

1. **المثل: exemple** : «هو تعبير عن قيم وحقائق تستحضر التجارب الإنسانية السابقة؛ حيث يستعمل كقيمة رمزية، أو بمثابة مسلمات قيمية تستجيب للقضايا المطروحة»[3]، بهدف إقناع المتلقي بالقضايا المشابهة لها، المطروحة في الخطاب حديثا، فمثلا في التراث العربي يقال: «وافق شن طبقة»، هذا المثل عبارة عن حكاية تاريخية، يضرب عند توافق وجهات النظر، يتم استحضاره من طرف

[1]- ينظر: حمو النقاري، منطق الكلام، ص: ص: 481.

[2]- ينظر: حمو النقاري، المرجع نفسه، 465 .

[3]- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص:94.

المخاطب عند إنتاجه خطابا معينا يوافق مضرب هذا المثل، الذي سيقوي الإقناع بمحتوى ذاك الخطاب، هذا الضرب واضح في البلاغة العربية.

2. **النموذج:Modèle: والنموذج المضاد: Anti modèle** :يميل الناس للاقتداء بنماذج معينة في المجتمع، تكون بارزة بأفعال مميزة، هي بالنسبة للقول الحجاجي، عبارة عن مقدمات تشخّص منها نتائج معينة، تؤدي إلى امتداح سلوك خاص، يمتلك بعض مظاهر التميز، فلا يمكن الاقتداء بغير النموذج المستحق فعلا للاقتداء، «فللإنسان سلوكات عفوية تجعله يقتدي بالإنسان»[1].

كما نجد النموذج المضاد أو مخالفة النموذج، هو الآخر نموذجا يؤخذ به، يستعمل في الخطاب الحجاجي، وقد يكون أكثر فعالية، نجد مثالا عند بريلمان[2] يقول الأب لابنه: في مثل سنك كان نابليون الأول في فصله، فأجاب الابن: و في مثل سنك كان نابليون إمبراطورا.

هنا فقد النموذج الأصلي قيمته، وأصبح مجالا للاستهزاء والسخرية.

3. **الشاهد:Illustration:** يحاول هذا النمط تقوية الحجج المطروحة، واختياره يخضع لمعايير معينة يقتضيها المقام، يختص الشاهد بأوصاف لم يسبقه إليها غيره، فيكون مجالا مفتوحا للتشبيه به[3] على أن تكون أوصافه جديرة باستحضارها، وإن مرّ عليها رهط من الزمن؛ بحيث يؤدي ذكره كشاهد إلى تقوية الحجج، وجعل المستمع مذعنا لها.

4. **التمثيل: Analogie**: هو أسلوب حجاجي، غير مرتبط بعلاقة المشابهة دائما، بل يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان أن تكون مترابطة[4]. وهو يرتكز على مجموعة من الخصائص، ويستدعي صورا تنقل أفكارا يمكنها تمثيل قيم تلك الصور، بالأفكار المطروحة في الخطاب زمن التمثيل، لذلك يتطلب فهمه بإذكاء المخيّلة، وتنشيط الذهن.

---

[1]–Chaim prelmen,lucie olbrechts tyteca. traite de l'argumentation, la nouvelle rhetoique.presses univesitaires de france. Paris. 1958. p :488.95: نقلا عن: عبد السلام عشير، المرجع نفسه ص:

[2]– Ibid, p: 425.

[3]– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الطبعة الرابعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، سنة:2010، ص: 110.

[4]–Ibid : p 50.

هكذا تم التوصل إلى هذه الخصائص، بعد جمع اجتهادات الكثير من الباحثين الناشطين في مجال الدراسات الحجاجية، على تنوع مشاربها، واختلاف ثقافاتها، وذلك باعتصار ما جاءت به أشهر النظريات في هذا المجال، والتي أسست للدرس الحجاجي.

4- الحجاج الأصول والمنطلقات:

4. 1- التأسيس للدرس الحجاجي:

تنطلق نظرية الحجاج من فكرة شائعة مؤداها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، غير أننا إذ نتكلّم عن النظرية الحجاجية، ندرك تماما أنها لم تتبلور كنظرية دون أن تخضع للتطور الطبيعي الذي تخضع له كل النظريات.

الحجاج عبارة عن ممارسة حاضرة في كل أنشطة البشر اليومية، إذ يضرب بجذوره في التاريخ، ولعلّ أشهر فترة درس فيها الحجاج، وتطور هي الحقبة اليونانية، حيث وظّف البرهان والحوار بغرض الإقناع، والتأثير ثم أخذ المفهوم يتشكل نظريا وعمليا بعد ذلك في دراسات مختلفة تجاوزت التصورات اليونانية.

4 . 1. 1- المنظور البلاغي التقليدي للحجاج:

لا يمكن الحديث عن الحجاج وأصنافه وتقنياته دون العودة إلى أراء الفلاسفة اليونانيين؛ سقراط وتلميذه أفلاطون، ومن جاء بعدهما من الذين مثل الحجاج مجالا من النشاط اللغوي عندهم، فأسهموا بجهودهم في دفع عجلة تطوره، وبلورته كنظرية، فأي موقع احتل الحجاج في البلاغة التقليدية؟

1- الحجاج عند أفلاطون:

بذل أفلاطون أوفر جهد في محاوراته مع السفسطائين[1]، محاولا التمييز بين القول الفلسفي، والقول السفسطائي «فقد ثارت بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، مطاردة شرسة بين الفيلسوف،

[1] – للتعرف على السفسطة والسفسطائيين، ينظر:رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة، من الحوار إلى العقل في الحوار، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت، لبنان،سنة:2010.

والسفسطائي، حيث كان الصراع بينهما حول القول، بنائه، ووظائفه»[1]،وهو مشغل البلاغة، والبلاغيين، رغم ذلك قد تميز السفسطائيون بالكفاءة اللغوية البلاغية، وبالخبرة الجدلية، وقد أسهموا في تطوير البلاغة والفكر اليونانيين، من خلال عقدهم لنقاشات فكرية، استعملوا فيها اللغة، ووظفوا الأساليب الحجاجية بغرض الإقناع، وقد اشتهروا بمنازلاتهم لأفلاطون، وأرسطو «فكان بين هذين، وأولئك نوعان من الحجاج؛ حجاج بحجاج في مسائل فلسفية مختلفة، وحجاج في ما به ينبغي أن يكون الحجاج، خطابان متقابلان، ناشران لنظريتين مختلفتين»[2]، المعنى أنّ هذه المحاورات أفرزت أوليات الطروحات الحجاجية من خلال: أولا مقارعة الحجة بالحجة في المسائل الفلسفية خاصة، أي في الاختلافات التي وجدت بينهما (أرسطو، وأفلاطون)، ثانيا في تصور التقنيات الحجاجية والتأسيس لها، فقد اشتهر السفسطائيون بامتلاك ناصية التقنيات الحجاجية؛ بل وصلوا إلى درجة تعليمها للأعيان بأثمان باهظة، وهذا ما دفع أفلاطون للقيام والتصدي لهم؛ لذلك يمكن تصور الفكر الحجاجي لأفلاطون في المحاورات التي أقامها مع السفسطائيين، الذين توصلوا إلى الحيل الخطابية، والألاعيب القولية، فمهروا في إبداع التقنيات اللغوية المفيدة في كسب تأييد الجمهور، حتى أقنعوا صفوته آنذاك بتعلّم هذه الأساليب «فالمدينة، وكذا المدنيّة إنما تؤسسان في نظرهم، اعتمادا على بلاغة القول، وأهل القول، وليست على أعمال أهل الصناع، والحرف»[3]، لهذا السبب ازدهرت الخطابة والتأسيس لأساليبها، والبحث المركز في أساليب البلاغة بشكل أهم من جهود السفسطائيين ومحاوراتهم، غير أنّ النزال بينهم وبين رواد النزعة العقلانية في الفلسفة اليونانية، أثّر على شعبيتهم حتى اقترن اسمهم بالنقاش الفارغ، وغير المجدي، فبدأت أركانهم الفكرية تتضعضع، ويتراجع نفوذها الاجتماعي والسياسي.

[1] – هشام، الريفي، الحجاج عند أرسطو؛ ضمن: مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، دط، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة، د.ت، ص: 50.

[2] – هشام الريفي، المرجع نفسه، ص:51.

[3] – محمد سالم محمد الأمين الطلبة؛ الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد لمتحدة، لبنان، سنة 2008، ص: 25.

محاورات أفلاطون والسفسطائيين:

اختلف الفيلسوف والسفسطائي كما تمت الإشارة في أصول بناء الحجاج؛ اختلافا في تصور علاقة القول بالوجود، وعلاقة الإنسان بالإنسان في المدينة؛ حيث ذهب أفلاطون إلى تغليط الممارسة الحجاجية السفسطائية، وتصور أصولا يبنى عليها الحجاج في فكره، من خلال محاورتين شهيرتين هما «قرجياس» و« فيدر».

أولا: محاورة «قرجياس» بحث فيها أفلاطون عن موضوع الخطابة، ووظيفتها حيث قدّم أسس تقييم القول الخطابي، وفحص موضوع الخطابة بمقابلة علم (science)، بـ ظن (Opinion)، وقسم الإقناع إلى نوعين؛ إقناع يعتمد على العلم، وإقناع يعتمد على الظّن، العلم يقوم على المبادئ الصادقة والثابتة الأزلية، لذلك سيكون الإقناع المعتمد عليه مفيدا يكتسب منه الإنسان معرفة (Savoir). أما الظن فهو يقوم على الممكن، لذلك يكون الإقناع المعتمد عليه غير مفيد، يكتفي بإنشاء اعتقاد عند الإنسان، في باقي المحاورة قيّم أفلاطون وظيفة الخطابة في ضوء المقابلة بين: خير (Bien)/ ولذة (Plaisir)، وصنّف هذه الممارسة القولية ضمن ما يحقق سعادة الإنسان، وذكر صنائع قد تحقق الخير للإنسان في جسمه ونفسه، وهي: الطب، والرياضة البدنية، والعدل، والتشريع، في مقابل هذه الصنائع، هناك صنائع تخاتل الإنسان، حسب أفلاطون، وتخدعه، وهي صنائع تأخذ قناعا يجعلها تشبه الصنائع التي تحقق الخير للإنسان «فالإنسان واقع في هذا التصور بين صنائع حق، تحقق له فعلا الخير، وممارسات مقنعة، تتقنّع بغيرها من الصنائع»[1]، تندرج هذه الصنائع عند أفلاطون تحت اسم جامع هو «التملق» (Flatterie)، يجمعها هي الأخرى في أربع ممارسات هي: الطبخ (cuisine)، والزينة، والخطابة، والسفسطة (La saphestique) هذه الممارسات تأخذ شكل الصنائع التي تحقق الخير، هنا تتجلى رؤية أفلاطون في إشارته إلى «الإقناع» و« اللذة» الحاضرين في إنتاج النص الخطبي، وتوجيهه اتجاها حجاجيا، يمكن اختصار مذهب أفلاطون في أنه قيّم الخطبي في أنه: «منهج بحث في صلة القول بالقيم (...) وزن القول في المقطع الأول (...) بمعيار العلم، ووزنه في القول الثاني بمعيار

[1] – هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 63-64.

الخير»[1]، كل هذه المعايير غائبة حسبه في الأقاويل السفسطائية الساعية إلى تناول الظاهر لا الحقيقة، وتحقيق اللذة لا الخير.

استمر أفلاطون في توجهه بتلخيص محاورة أخرى، هي: **ثانيا:** محاورة «فيدر»؛ فيدر هذا شاب كان يمارس الأساليب القولية السائدة بأثينا (السفسطائية) جاءت هذه المحاورة مختلفة عن الأولى لأنها لا تجادل السفسطائين في تصورهم للخطابة، بل كانت عبارة عن معارضات، ومناقشات تعرض التوجه الذي كان يعتمده أفلاطون في دراسته للنصوص الحجاجية عموما.فلم يكن النص المناقش خطبة، بل هو نص حجاجي في الحب، كانت هذه المحاورة بغرض إشفاء شباب أثينا من فتنة الأقاويل الحجاجية السفسطائية، وفيدر شاب من هؤلاء، أعجب فيدر بنص حجاجي لسفسطائي هو «ليزياس» (Lysias)، قام أفلاطون بإنشاء نص أول؛ حاكى فيه بعض حجاج ليزياس، وقد قصد ذلك، وهو أسلوب حجاجي استعمله، ليخرج من النص الشائع إلى ما يريد أن يستدرج سامعه إليه، ثم أنشأ نصا ثانيا معارضا لنصه الأول المحاكي؛ فيه حجاج مضاد للنص الأول، عندما فرغ من قراءته أظهر فيدر إعجابه بحجاجه، واعترف أن «ليزياس» خطيب باهت مقارنة معه، هذا الأسلوب الحجاجي يعرف بالخروج من ممارسة حجاجية إلى ممارسة حجاجية أخرى، وهي من أهم أساليب أفلاطون في محاوراته[2].

بهذه الأساليب يقوم الفيلسوف بالموازنة بين حجاجه، وحجاج محاوره في المنطق، والمقصد وقد فعل أفلاطون ذلك في ضوء قيمتي «الحق» و«الخير» في حين آثر السفسطائيون اللذة على الخير.

ما ميز هذه المحاورة عن سابقتها، أنّ أفلاطون اهتم بشكل الأقاويل؛ وللشكل دور محوري في التأثير على السامعين، «وإذ كان أفلاطون لا يحتفي بالجمال في النص الحجاجي، بل بما يعبأ من الحقيقة فيه، فالجمال عنده لا يكون في تجويد العبارة، والاحتفاء بالشكل»[3]. مثل ما هو عند السفسطائيين، بل يجب أن يكون سلوكا، يقود الناس إلى الحق، ذلك كله هدف الأقوال التي تبنى حسبه على ثلاثة أركان أساسية هي[4]:

---

[1] – هشام، الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 65.

[2] – ينظر: هشام، الريفي، المرجع نفسه، ص: 69-70.

[3] – هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 73.

[4] – ينظر: هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 73.

1.اعتماد المنهج الجدلي: الجدل عنده صناعة، يمكن البلوغ بها إلى الحقيقة، فهو الوسيلة التي تنقل الحجاج من مجال الظنّ والاحتمال، إلى مجال الحقيقة.

2.معرفة أنواع النفوس: وهو مبدأ التناسب بين القول والسامع، فالنفوس تختلف في درجة تأثرها بالأقوال الحجاجية، لاختلاف فكرها، ومنطلقاتها، وطبعا مذاهبها.

3.معرفة ما يناسب المقامات المختلفة من أساليب: أي مراعاة مقتضى الحال.

الملاحظ أن أفلاطون، أولى اهتماما تداوليا لصناعة الخطابات؛ حيث استحضر في تصوره لأركان الأقوال كل عناصر العملية التخاطبية، ليلمّ بعناصر المنهج التداولي في تصوره.

إذا الحجاج عند أفلاطون، حجاج أخلاقي مثالي، يقدم الحقيقة، ويجعلها المنهج، والهدف في الأقاويل الحجاجية، وقد أسس لمذهبه من خلال محاوراته مع السفسطائيين، ومحاربة أقوالهم القائمة على الظّن والمراوغة، والتزييف في مقابل اليقين والحقيقة عنده من خلال رده ومحاوراته للسفسطائيين تبلورت مبادئ أفلاطون في الوجه الذي ينبغي أن يمارس عليه الحجاج.

بعد وفاة أفلاطون (348ق.م) ألف تلميذه أرسطو دروسا، تخطى فيها آراء أستاذه التي تعادي البلاغة والخطابة، غير أنه استمر على نهجه في الرد على السفسطائيين، ليصل إلى نظرته الحجاجية الخاصة، والتي تأسست عليها النظريات الحديثة.

2- النظرية الحجاجية الأرسطية:

رؤية أرسطو للحجاج تجعله مكونا من عاملين مهمين، هما: الخطابة والجدل: الخطابة «هي قوة أو ملكة، نستطيع أن نكتشف بها على وجه نظري أو تأملي ما يمكن أن يكون شأنه الإقناعي كل حالة على حدة »[1]، إذا الوظيفة الإقناعية هي أساس الخطابة، ومن شأنها الكشف عن الوسائل التي تحمل المتلقين على الإذعان.

ذكرنا سابقا أن أرسطو جعل الحجاج ضمن مفهومه للخطابة، كما جعله ضمن مفهومه للجدل - مع بعض الاختلاف في بنية الحجاج في كل منهما- يعرفه أرسطو: أنه علم من مقدمات

[1] - أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، سنة:2008، ص: 15

صادقة وضرورية، وينطلق من مقدمات مشهوره ومحتملة[1]: ليعتمد بذلك في الحجاج على مرتكزات عقلية ويعتمد الحجاج في الخطابة مرتكزات عاطفية، هما إذا قوتان تعملان لتحقيق غرض الحجاج وهو الإقناع[2]. لنجد أنفسنا أمام حجاجين، حجاج جدلي، وآخر خطابي.

1-الحجاج الجدلي: يعتمد حسب أرسطو على مرتكزات عقلية، مجاله فكري خالص؛ «وقد حددت المحاجة، أو الحجاج (argumentation) عموما بكونها «سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة، أو هي الطريقة التي تطرح بها الأدلة»[3]، قد تكون هذه الأدلة استقراءً، أو قياسا ظاهرا. يتوصل إليه عن طريق العقل، تجلى هذا الحجاج عند أرسطو في كتاب الطوبيقي (Topiques) ويعني مواضع القول؛ موضوعه مناقشة القضايا العقلية، حيث يتم التوصل إلى الحجج عن طريق أساليب عقلية، كالاستدلال مثلا، هو أوثق اتصالا بالأمور الفكرية، العقلية، السلوكية، نافع حسب أرسطو في مجالين اثنين، مجال البحث الفكري، ومجال تفسير الاعتقاد، واضح كذلك أن الحجاج الجدلي إنما هو في المجالين جميعا، القول يعرض حركة الفكر في الإثبات والنفي، بل هو القول يكشف عن أهمية جهد النفي في البحث[4]، وهو حسب أرسطو رياضة فكرية، انتشرت في اليونان لها حكم، تكون بين طرفين متخاصمين، هذان الطرفان يتقاسمان بناء المناقشة، عن طريق السؤال من طرف السائل (Le questioneur) والإجابة من طرف المجيب (Le répondant) ، هذان الفعلان يتلازمان غير أن أرسطو يقدم فعل السؤال «فالسائل الذي يرسم بترتيب أسئلته حركة الحجاج، وهو الذي يستدرج بأسئلته المجيب إلى أن يسلم له ما يحتاجه»[5]، لتترتب الأسئلة حسب قواعد معينة، وكذلك الأجوبة قام أرسطو بتقنينها حسب رؤيته.

---

[1] – ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص: 17.

[2] – أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص:09

[3] – عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس، 2001م، ص: 17.

[4]– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 133.

[5]– هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 125

إذا قطب رحى الحجاج الجدلي هو المساءلة، بما هي فحص للقول، والسعي للإجابة عما يحمل من تساؤلات بإعمال العقل والقياس؛ أي باستدراج المعنى إلى التسليم بمضمون المقدمات، والنتائج[1] ليقتنع في الأخير بما يقدم إليه من حجج.

2- الحجاج الخطابي:

الحجاج في الخطابة ليس لغاية التأثير النظري العقلي؛ بل يتعدى إلى التأثير العاطفي، وإلى إثارة المشاعر والانفعالات[2]، وإلى إرضاء الجمهور واستمالته، وهو ليس عبارة عن سؤال وجواب، وإن كان منشؤه سؤالا. فالخطيب، يقصي بحجاجه أسئلة معينة لدى الجمهور، وهنا يختلف تماما عن الحجاج الجدلي الذي يكون بين طرفين اثنين، بينما الخطابي فيوجه إلى أنماط السامعين؛ أي إلى جمهور كبير، بغرض إرضائه واستمالته، ولو كان ذلك بمغالطته وخداعه وإيهامه بصحة الواقع؛ ليرتبط الحجاج الخطبي بالمغالطة والإيهام والخداع، لذلك نجد أن أرسطو عكس مذهب أستاذه أفلاطون، رغم اعترافه بهشاشة المعرفة التي تقدمها الخطابة، فإنه لم يطابق بينها وبين السفسطة التي ترتبط بالصفات السابقة الذكر (المغالطة، الإيهام...)، بل عين للخطابة موقعا أساسيا في الحياة الاجتماعية، واعتبرها من الأدوات الأساسية التي لا يمكن للمجتمعات الاستغناء عنها؛ فهي أداة تسيير المجتمع في المؤسسات الديمقراطية الأثينية، من هنا حدد أرسطو أنواع الخطاب[3]، حسب المؤسسات المتوفرة في مجتمعه آنذاك إلى:

1.**الخطاب الاستشاري:** وهو خطاب يسعى متلقيه إلى دفع الجمهور إلى اتخاذ قرارات وفق قواعد الديمقراطية، يقول أرسطو: «فنحن تارة نرشد، وننصح تارة، وتارة نمنع، ونثني على الفعل»[4]، يلجأ الخطيب في هذا الجنس إلى النصح أو التحذير مستندا على قيم النافع أو الضّار، الأحسن أو الأسوأ.

[1]- ينظر: محمد سالم الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 53.

[2]- أرسطو، الخطابة، نقلا عن: عبد الله، صولة، الحجاج في القرآن، ص: 08.

[3]- ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية وللسانية، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،سنة: 2005، ص: 15-16.

[4]- أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص: 23.

2.**الخطاب القضائي**: يقول أرسطو: «في العمل القضائي، يكون هناك من ناحية أولى متهم؛ ومن ناحية ثانية مدافع»[1]، يرتبط هذا الجنس بفضاء المحكمة، يهدف إلى الاتهام، والدفاع، معتمدا على قيمتي العدل والظلم.

3.**الخطاب القيمي أو الاحتفالي**: هو الجنس الذي يمدح، أو يذم الأشخاص، أو الأفكار في مقامات خارجة عن السياسة وعن القضاء، أساسه قيمتا الجمال والقبح؛ الملاحظ أن الاختلافات بين الأجناس السابقة تمس قيّما متعددة؛ ومقاصد وأزمنة، إذ نجد أزمنة خاصة لكل جنس؛ فالذي يشير برأي يكون الزمان الذي يشير فيه هو المستقبل، وبالنسبة لصاحب الدعوى يكون ما يطالبه هو ما وقع في الماضي...أما جنس الإثبات الحكمي لصفة ما أو خاصية معينة، فإنما تنتمي أساسا إلى الزمان الحاضر[2]، الاختلافات السابقة سواءً المقامية، أو المقصدية، أو القيمية، أو الزمنية تعود إلى اختلاف الجمهور المتلقي للخطاب، لذلك سيكون الاختلاف حاضرا أيضا في التقنيات الحجاجية المستعملة من طرف الخطيب، بما يناسب تطلعات جمهوره، وما يجعله يقتنع ويذعن لما يتلقى.

كل هذه الأمور تنمُّ عن تكون للخطابة من عناصر معينة هي أساسية لاكتمال بنائها، وقد نظر أرسطو في حديثه عن عناصر بناء الخطابة إلى الأطراف الثلاثة المكوّنة لها وهي: المرسل والمتلقي والرسالة، وقد خصص لكل عنصر كتابا؛ الكتاب الأول عالج فيه مفهوم البراهين حسب تعلّقها بالخطيب، والثاني هو كتاب المتلقي أو الجمهور عالج عددا من الانفعالات والأهواء؛ أي أنه درس تطلعات الجمهور، أما الكتاب الثالث خصصه للرسالة نفسها عالج فيه الأسلوب، وتنظيم أجزاء القول، لتكون مجمل عناصر القول بناء الخطابة عنده ثلاثة[3]:

1.وسائل الإقناع أو البراهين، وسائل البصر بالحجة: هي الأكثر تعقيدا في إعداد الخطاب، يبحث فيها الخطيب عن الأفكار والحجج، فيحاول اختيار الحجج المناسبة للجمهور الموجه إليه الخطاب؛ يقسم أرسطو هذه الحجج إلى ثلاثة أقسام: (الأيتوس (Ethos)) و(الباتوس (Pathos)) و(اللوغوس(logos) ، تتعلق على التوالي بـ(الخطيب، المستمع، الخطاب).

---

[1]- أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص: 23.

[2]- ينظر: أرسطو، المرجع نفسه، ص: 23-24.

[3]- ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 18-22، وحمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج، ص: 14-15-16.

-الإيتوس متعلق بشخصية الخطيب، وأخلاقه، وصورته عن نفسه؛ إذ يحاول أن يكون متأهبا لكل المقامات، حتى يظهر كفاءته وصدقه للجمهور، وأن يكون في موضع قبول عاطفي لدى المتلقي لحظة بثّ الخطاب وتلقيه، وأن يتصف بصفات معينة حتى يقبل رأيه، ويقنع جمهوره. من تلك الصفات: السداد، الفضيلة، والبرّ، وهذه الملامح الثلاثة المكثفة هي أساس الإقناع المسند إلى الجوانب الأخلاقية للخطيب[1]، فباستناده وتوفره على هذه الصفات يلِجُ إلى عقول المتلقين، ويسهُل عليه إقناعهم.

-الباتوس: هو انفعال المقول له، بما يتلقى؛ أي هو انفعالات تنتج بعد تلقي الخطابة (رحمة، كراهية، خوف، ثقة، حب، استهتار، وإحسان...) كل جنس خطابي يتناسب مع جنس أو اثنين من النوازع السابقة؛ ففي الجنس القضائي مثلا ينزع الخطيب إلى إثارة الغضب على الجاني، والشفقة على الضحية.

-اللوغوس: هو القول بما هو فكر وأخلاق، فيمثل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي متمثلا في ثلاثة أنواع من الحجج، القياس، والمقارنة أو الشاهد، والتفخيم[2].

1.القياس: يقوم على الانطلاق من مقدمة كبرى، تليها مقدمة صغرى ثم استنتاج: كالقياس المشهور: -كل إنسان فان م.ك

-سقراط إنسان م.ص

-سقراط فان ن

حيث يكون الانطلاق من فكرة عامة للوصول إلى فكرة خاصة.

2.الشاهد: يكون الانطلاق فيه من فكرة خاصة، لتبرز فكرة خاصة أخرى، أي هو علاقة الجزء بالجزء.

3.التفخيم: يقصد به تفخيم وتعظيم أو حطّ شخصية ما، وهو خاص بالخطابة الاحتفالية، حيث تسيطر الأساليب الاستعارية والتشبيهية المزيّنة للخطاب على طبيعة الخطاب العامة؛ يظهر المقوّم

[1]- ينظر: محمد الولي، مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، المجلد الأربعون، العدد الثاني، أكتوبر، ديسمبر، 2011، ص: 29.

[2]- ينظر: محمد الولي، المرجع نفسه، ص: 30.

التفخيمي بشكل أوضح في الخطابة[1]: (amplication) على الخطيب استغلال كل المعطيات السياقية منها والخطابة العامة والخاصة، حتى يتجاوز هذه المرحلة، وهي مرحلة إعداد الخطاب، إلى أخرى هي مرحلة ترتيب أجزاء ذلك الخطاب.

2.ترتيب أجزاء القول: وهي فن لتنظيم الحجج وفق تصور الخطيب، لكمّ وكيف الحجج، وطريقة ترتيبها؛ بحيث تصل إلى الجمهور، وتحقق فيه فعل الإذعان؛ فترتب وتوضع كل واحدة في المكان المناسب لها، فيزيدها ذلك قوة، ويمكّن في ذهن المخاطب، يبدأ الخطيب بالمطلع أو المقدمة (exorde) يحاول استمالة الأعناق، وجلب ودّ السامعين، ثم يلج في الخبر (narration)، يتحدث فيه عن الوقائع (التاريخ، الخرافة...) يشترط فيه الإيجاز، والوضوح، والقدرة على الاستمالة، ليصل إلى الخاتمة (péroraison) وهي خلاصة ما توصل إليه الخطيب، بأسلوب يحرك عواطف الجمهور، ويجعله ينفعل بها[2].

3.الأسلوب: مرحلة تحديد التقنيات المرتبطة بكتابة الخطاب، ودراسة الأسلوب انطلاقا من سلامة اللغة والنحو، إلى جودة الأسلوب، أي الاهتمام بالصور البلاغية، ويعرف ما للبيان من أثر على متلقيه، لهذا يحتل هذا العنصر موقعا مهما في بناء خطابة مقنعة، «فبالعبارة يتغير حكم الخطبة من اعتمال مستور لآراء وحجج وقضايا، إلى وجود ظاهر»[3]، أي إن الخطيب يترجم بأسلوب منمّق حججه التي جمعها، ورتبها، وهذا مما يسهم في توسيع درجة الإذعان والتسليم لدى الجمهور.

إذا الحجاج عند أرسطو فلك يدور حول الخطابة والجدل، فهما قوتان لإنتاج الحجاج[4]، وإذ يجتمعان في إنتاج الحجاج فإنهما يختلفان في وسائل إنتاجه من حيث[5]:

[1]- ينظر: محمد الولي، مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، ص: 30.

[2]- حمادي صمودي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ص:15.16.

[3] - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 121.

[4] - ينظر: هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 121.

[5] - ينظر: هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 122.

الحجاج الجدلي	الحجاج الخطابي
1.هو أوسع مدى، فهو يمارس في توجيه الفعل وإن كانت ممارسته أدخل في البحث الفكري.	لا صلة له بالقضايا المتعلقة بالبحث الفكري، فمجاله توجيه الفعل، وتثبيت الاعتقاد أو صنعه.
2.هو فعل استدلال، فهو يستعمل الشكلين الاستدلاليين الجامعين عند أرسطو، أي القياس والاستقراء.	هو أيضا فعل استدلال، مع بعض الاختلافات في استعمال الشكلين الاستدلاليين–القياس–الاستقراء
3.مدار الحجاج الجدلي، مطلوب جدلي (Problème dialectique) يمكن التمثيل له، بالسؤال التالي: هل هذا الشيء هو كذا أم لا؟ فهو فضاء البحث في إثبات قضية أو نفيها (ق؛ أو لا ق)	مداره على المسائل التي من طبيعتها أن تناقش، فيكون منشأه حيث يوجد خلاف في مسألة ما.
4.المناقشة الجدلية جنس حجاجي، ينشئه طرفان، فمهما تكن مهارة الجدلي لن يستطيع وحده أن يجعل الجدل ذا مستوى جيد، أي يشترط توفر طرفين متجادلين[1].	المناقشة الخطابية ينشئها طرف واحد.
5.الحجاج الجدلي اتجاهه تبكيتي (réfutatif) في نهايته قد لا يقتنع المجيب بما يقوله السائل[2]	الحجاج الخطابي، إقناعي (Persuasif) يقصد به الخطيب إقناع جمهوره، وعليه تحقيق هذه الغاية
6.الاتجاه الحجاجي يقيم مسافة وينفي حكما، أي يقيم مسافة بين السامع، والحكم الذي يريد إيصاله له (يستعمل المساءلة، ويغير أحيانا من الاعتقاد)[3]	اتجاهه يرفع مسافة، ويبني حكما يرفع المسافة بين السامع، والحكم الذي يريد الخطيب أن يقنع متلقيه به، (يستبعد المساءلة ويبني حكما)
7.مهمته تحصين القول من الحجاج السفسطائي، وتحصين المجتمع ممن يتشبهون بالفلاسفة[4]	مهمته تحصين القيم الجامعة في المجتمع.

[1] – ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 125.

[2] – ينظر: هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 132.

[3] – ينظر: هشام الريفي، المرجع نفسه، ص: 132.

[4] – ينظر: هشام الريفي، المرجع نفسه، ص:138.

مثّل الجدل والخطابة ضربين من الخطاب، اعتمدهما أرسطو في إرساء نظريته الحجاجية، هدفهما معا التواصل مع الآخر بغرض إقناعه، وللجدل معنى عام هو الإحاطة بالأمور التي يحصل بها الإقناع، للخطابة هي الأخرى قدرة على الإحاطة بالأساليب الإقناعية في أجناسها الثلاثة، فمدارهما معا حول المسائل التي تدخل في طبيعتها مسألة المناقشة، واستمر الحجاج على هذا المسار بعد أرسطو (مسار الخلاف).

حاول أرسطو إزالة المعاني القدحية التي كانت تنسب للبلاغة في عصر أستاذه أفلاطون، فرفض الأساليب السفسطائية، مثلما رفض المثالية المفرطة لأستاذه، فدعا إلى بلاغة شاملة لكل أطراف العملية التواصلية، وكشف عن الآليات الحجاجية، وأوقع مسألية الحجاج موقعا مهما في بلاغته، غير أن ربط الحجاج بالمغالطة والخداع والإيهام قد شوّه سمعته على مرّ التاريخ، وأصبح ينظر إليه كضرب من التشويه للوقائع والحقائق، والتلاعب بعواطف الجمهور، بقيت هذه الصفات محيطة به وتوقفت الدراسات حوله، حتى مطلع القرن العشرين؛ حيث ظهرت دراسات جديدة تنهض بالبلاغة والحجاج وتخرجهما من تابوت التحنيط الذي وضعا فيه؛ حيث ظهر ما يعرف بالبلاغة الجديدة، أو الخطابة الجديدة (Un nouvelle rhétorique) ذلك ببروز مصنف الحجاج، الخطابة الجديدة (traite de argumentation: de nouvelle rhétorique) عام 1958، وهو عمل مشترك بين شايم بيرلمان: (chaim Perelman) وتيتيكا(lucie olbrechts tytica).

5- المنظور الحديث للحجاج:

5 . 1- البلاغة الجديدة-شايم بيرلمان-

لاقى مصنف الحجاج، البلاغة الجديدة نجاحا كبيرا، ذلك لبروز محاولات جادة للتجديد في النظرية الحجاجية بين ثناياه، انطلق صاحباه من محاولة لإعادة النظر في البلاغة اليونانية القديمة، وقراءتها قراءة جديدة، تخرجها من متاهات التصنيف والتبسيط، ولعلّ أهم غاية رمى إليها المصنّف هي إخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل، حتى يتخلَّص من صفة المغالطة، والمناورة، والتلاعب بعواطف الجمهور وعقله، كما رمى إلى تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال، الذي يفرض على

الخطاب وضعا معينا، لا يمكن الخروج عنه[1]، ليتغيّر بذلك مفهوم الحجاج، وهدفه ويتحول من تقنية صرفة، إلى فعالية عقلية بين الأفراد والجماعات من أجل الوصول إلى نقط التوافق بين أطراف العملية التواصلية، بعيدا عن الفرض والاعتباطية في الأحكام اللذين طبعا الحجاج سليل الجدل، والخطابة في صورتهما المشوّهة.

5. 1. 1– مفهوم الحجاج: يعرفه بيرلمان، وتيكتاه بأنه: «درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو يزيد في درجة ذلك التسليم»[2]، وقد جمعا كل تلك التقنيات في مصنفهما، في محاولة منهما لرصد كل الآليات التي يحصل بها الإقناع لدى المتلقين.

إذا يجتمع موضوع الحجاج ومفهومه تحت مسمى واحد هو الحجاج (L'argumentation)، ليتنزل مفهومه في صميم التفاعل بين الخطيب وجمهوره، ونجدهما في موضع آخر يذكران غاية الحجاج بقولهما: «غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو تزيد من درجة ذلك الإذعان، فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى لدى المتلقي بشكل يبعثه على القيام بالعمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة»[3]، يضاف لهذا التعريف مسألة أخرى، هي أثر الخطابة والجدل في بناء مفهوم الحجاج عندهما، وإن كانا كما تمت الإشارة قد حاولا إبعاد مفهومه عن مفهوم الخطابة والجدل المغالطين، إلا أنهما يجعلان بينهما خيطا رفيعا، يتمثل في علاقتهما البعيدة عن المغالطة، والتمويه، أما علاقته بالجدل فتكمن في التأثير الذهني في المتلقي، وتسليمه بما يقدم إليه، وإذعانه لما يعرض عليه، إذعانا نظريا مجردا مجاله العقل والإدراك[4]. إذ يفرض التمشي الفكري الذي يسِمُ الجدل، التأثير المباشر في ذهن المتلقي بعد تلقيه الخطاب.

---

[1] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج –الخطابة الجديدة– لبيرلمان وتيكتاه، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 298.

[2] –chaim perelman, et lucie oblerchts, tytca, traite de l'argumentation: la nouvelle rhétorique, p: 05.

[3]– Ipid, p:27

[4] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص: 28.

وأما علاقته بالخطابة، فتتمثل في قدرة الخطاب على توجيه عمل المتلقي وتوجيه سلوكه من خلال التجهز الكامل لدفع المتلقي للقيام بذلك العمل[1]، توافقا مع المعطيات السابقة، يورد المؤلفان (بيرلمان، وتيتكاه) مفهوم الحجاج عند الفيلسوف باسكال الذي يعد الحجاج حجاجين، حجاج قوامه العقل، وهو حجاج الفيلسوف، يتوجه إلى جمهور ضيق، ويرمي من ورائه إسكات صوت الهوى فيه، وجعل العقل قوام الاستدلال، فهو حجاج لا شخصي، ولا زمني.

أما الحجاج الثاني فيرمي إلى دغدغة العواطف، وإثارة الأهواء، استنفارا لإرادة الجمهور، ودفعها إلى العمل المرجو إنجازه، مهما تكن الطرق الموصلة إلى الإقناع بذلك العمل غير معقولة، وغير منطقية[2]، تصور بريلمان وتيتيكاه لمفهوم الحجاج يقضي على الثنائية التي كانت تكونه قبلهما (ثنائية جدل/خطابة)، فهما يجمعان الجدل والخطابة على صعيد يتمثل قوام بلاغةٍ جديدة، تجمع بينهما بواسطة الحجاج على صعيد العقل، وهو عمل التأثير النظري، والإذعان والتسليم، وهو غاية الجدل عادة، مؤد إلى العمل (سلوكي)، ذلك يعني أن العمل المنفذ من طرف المتلقي، ليس سبيله المغالطة، والتمويه، واللعب بالأهواء، بل هو عمل مدبر بواسطة العقل، ومحسوبة خطوات تنفيذه، هكذا تكون قوى الإنسان (العقل/الهوى) قوى متضامنة متفاعلة، غير منعزلة عن بعضها البعض، بهذا المنطق يتجاوز بيرلمان وتيتكاه مفهوم الحجاج القائم على الثنائية المتضادة الجدل والخطابة، وجعله تركيبة جديدة متكونة من التأثير النظري العقلي والتأثير السلوكي العملي، ليظهر شيء ثالث لا هو جدل ولا هو خطابة، بل هو خطابة جديدة، ولعل مُسَوِّغَ تسمية هذا الوليد بالخطابة الجديدة، أن المؤلفين عرّفاه من خلال مقابلته مع الخطابة، ورصد الخلاف بينهما، وتوصلا إلى أن الاختلاف واقع من جهتين[3]:

1.من جهة نوع الجمهور: حيث يقتصر جمهور الخطابة على جمهور مجتمع في ساحة، يستمع إلى الخطيب، بينما يكون جمهور الحجاج حاضرا أو غائبا، بل يمكن أن ينشأ الحجاج بين متحاورين اثنين، أو حتى بين المرء ونفسه.

[1] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص: 28.

[2] – عبد الله صولة، المرجع نفسه، ص: 29.

[3] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج، أطره، ومنطلقاته، وتقنياته، ص: 306-307.

2.من جهة نوع الخطاب، تتسم الخطابة بأنها نوع شفهي للخطاب، بينما الحجاج يتنوع، فيكون منطوقا، أو مكتوبا «وقد أثبتت التحليلات إمكانية أن يقوم الكاتب، بتشكيل عناصر، ووحدات فنية انطلاقا من وعيه بآفاق المقصودين بالخطاب، وذلك لكي تقوم هذه العناصر في الرسالة المكتوبة مقام الحضور العياني للمتكلّم»[1]، فكان أن ولدت هذه الخطابة ذات الأبعاد المختلفة عن البلاغة التقليدية، سواءً في نوع الخطاب، وتقنياته، وأنواع الجمهور، وحتى في كيفية ونوعية الإذعان المطلوب.

5. 1. 2– أقسام الحجاج:

يقسم المؤلفان الحجاج إلى قسمين، حسب كيفية العمل على الإذعان إلى[2]:

1.حجاج ذاتي، وهو الحجاج الإقناعي (L'argumentation persuasive) يقع بمخاطبة الخيال والعاطفة، فلا يدع مجالا، لتدخل العقول، وهو يسعى إلى إقناع جمهور خاص.

2.حجاج اقتناعي (l'argumentation convaincante) حجاج يرمي إلى أن يسلم به كل ذي عقل فهو عام، لهذا يتبناه المؤلفان كحجاج للإذعان، الذي أسس لنظريتهما في الحجاج، فهو يحقق مذهبهما في حرية الاختيار على أساس عقلي، وحسب ما يفهم مما جاء في مؤلفهما، فإنّ تحقيق الاقتناع الذي هو غاية الحجاج، يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع؛ فالاستدلال مجاله المنطق، وهو منطق صوري لا يقبل اللبس، عناصره مشتركة بين جميع الناس، حيث لا يثير تأويلها أي مسائل خلافية، إذ تستنبط من مقدماته نتائج تفضي إليها تلك المقدمات ضرورة بدون أي لبس، فالحقيقة فيه مضمونة وواحدة.

بينما الإقناع هو فن المناورة، أو فن الإيعاز ويقع الاقتناع بينهما في مسار حواري (dialogique)، يستخدم أحكام القيمة (برهنة/جدل) فتكون الحقيقة فيه نسبية مرتبطة بالمقام يتوصل إليها عن طريق حرية الاختيار في إعمال العقل وعدم التوجه بالضرورة إلى مخاطبة الخيال والعاطفة، كما هو الحال في الإقناع، لتكون النتيجة، أن الإذعان يحصل بالاقتناع، الذي يخدم توجههما في كون

[1] – محمد الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 104.

[2] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص: 301.

الحجاج «حرية الاختيار على أساس عقلي»[1]، ليتنزل الاقتناع منزلة حجر الزاوية في الحجاج والإذعان، ذلك الإذعان الذي يؤسسان عليه مفهومهما للنظرية الحجاجية.

5. 1. 3– منطلق الحجاج، المقدمات، بداية العملية الحجاجية:

مبدأ الانطلاق في الحجاج مقدماته، فهي متعلقة بالقضايا التي يكون المنطلق منها فعلا، وبها يكون الاستدلال على قضية ما؛ والمقصود بالمقدمات تلك «المقدمات المتعلقة بالقضايا التي يكون منها الانطلاق؛ فهي نقطة انطلاق الاستدلال»[2]، وهي عبارة عن مسلمات يأخذ بها الجمهور أساسا لحجاجه، ومنطلقا له، من تلك المقدمات: الوقائع، والحقائق والافتراضات والقيم، وهرمية القيم، والمعاني أو المواضع، يمكن تلخيص مفاهيمها فيمايلي[3]:

1.الوقائع (Les faits): هي مقدمات مشتركة بين عدة أشخاص، أو بين جميع الناس، يمكن تصنيفها كنقطة للانطلاق في الحجاج لأنها لا تعرّض للدحض أبدا، تنقسم إلى وقائع مشاهدة، ومعاينة، ووقائع مفترضة، يسلم بها الجمهور لأنها من المسلمات التي لا يرد فيها الشك والاختلاف.

2.الحقائق: هي أنظمة تقوم على الربط بين الوقائع، مدارها النظريات العلمية، والمفاهيم الفلسفية والدينية، يتوسل الخطيب بعضها مع الوقائع، والحقائق، ليستجلب موافقة الجمهور.

3.الافتراضات: هي الأخرى يتفق عليها الجمهور إلا أنها تحدد بالقياس إلى العادي (Le normal)، أو المحتمل (Vraisemblable)، حسب قيم الجماعات البشرية.

4.القيم (les valeurs): هي الأهم في الحجاج، حيث يلعب حضورها وشكل حضورها، وطريقة عرضها، في أي ضرب من أضرب الحجاج الأساس الذي يجعل السامع يذعن لما يطرح عليه، تغيب القيم في الاستدلالات العلمية التي تخلو عادة من كل أشكال القيم.

5.الهرميات (Les hiearchies): تصنف القيم في الحجاج حسب أهميتها، وحسب الدور الذي تؤديه في خلق الإذعان، لذلك تصنف بشكل هرمي إلى نوعين:

---

[1] – عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص: 301

[2] – عبد الله صولة، المرجع نفسه، ص: 308.

[3] – ينظر: عبد الله صولة، المرجع نفسه، ص: 308-312.

1.هرمية مجردة: مثل اعتبار الصدق أفضل من الإيثار.

2.هرمية مادية محسوسة: كاعتبار الأهمية في أعضاء جسم الإنسان –مثلا– اعتبار العين أعلى درجة من اليد، والقلب أعلى درجة من العين، فإذا فقد الإنسان يده أو عينه يستطيع أن يعيش بينما لو فقد قلبه فإنه يموت حتما.

نوّه بيرلمان بأهمية هذه الهرمية في البنية الحجاجية، حتى أنه قدمها على القيم نفسها «فالقيم وإن كانت تسلم بها جماهير وسامعين عدة فإنّ درجة تسليمها بها تكون مختلفة من جمهور إلى آخر وهو ما يعني أن القيم درجات وليست كلها في مرتبة واحدة»[1]، إذ يسعى الخطيب إلى ترتيب القيم في حجاجه بقصد جعل الجمهور يذعن، والخطيب الناجح من يرتبها بشكل يسترعي انتباه الجمهور، فمعرفة الخطيب بجمهوره تدله على شكل هرمية قيم حجاجه ليكون حجاجا فاعلا ناجحا.

6.المعاني أو المواضع (Les lieux): هي مقدمات أعم من القيم، وهرميتها، لأنها تمثل مخازن الحجج، ومستودعاتها (Magasins des arguments)، تطبق على علوم كالقانون والسياسة، ومواضع خاصة (Lieux spécifiques)، وهي مواضع تخص علما محددا أو نوعا خطابيا بعينه لا يتعداه لغيره، وتستعمل المواضع عامة بغرض جعل الجمهور يصدق ما يلقى عليه، وهي أنواع أخرى:

1.مواضع الكمّ (lieux de quantité): هي مواضع تجعل الأفضلية حسب الكمّ، ومن ذلك مثال أرسطو في المواضع (Topiques) وهو أن المال الأوفر أفضل من المال الأقل، ووفرة المال الذي يصلح لقضاء حاجات كثيرة، أفضل من المال الأقل الذي لا يصلح لقضاء حاجات أقل عددا[2]، يعني كل ما كان الشيء أكثر كان متقدما.

2.مواضع الكيف (Lieux de qualité): هي مواضع مخالفة للكم، حيث أنها لا تحتفي بالكثرة، بل بالنوع، وهي تستمد قيمتها من وحدانيتها «مثل الحقيقة التي يضمنها الله، فهي واحدة في مقابل آراء البشر المختلفة»[3]، ذلك الرأي المتفرد يتموضع ضمن مواضع الكيف، لأنه رأي الإله، والإله واحد، ورأيه هو الأصح بالضرورة، في مقابل آراء مختلفة ومتعددة لا يمكنها أبدا مجابهة ذلك الرأي المتفرد.

---

[1] – chaim perleman, traite de l'argumentation, p: 112.

[2] – عبد الله صولة، الحجاج، أطره ومنطلقاته، ص: 311.

[3] – عبد الله صولة، المرجع نفسه، ص: 312.

7.**مواضع أخرى متفرقة.**

1.**مواضع الترتيب:** تقديم السابق دوما على اللاحق، في مبادئ التفكير غير الاختياري (non-empiriste).

2.مواضع الموجود (Les lieux d'existe): تقدم الموجود والحاضر والراهن الواقع على المحتمل، والممكن الوقوع.

المقدمات منطلق أساسي للمحاججة، أفاد بيرلمان في التأسيس لها، مما راكمه القدماء قبله من درس لها، نقصد المنطق الأرسطي ومقدماته المشهورة، غير أن حضور هذه المقدمات لا يكفي إذا لم يحسن بسطها «هاتان القيمتان لهما الصدى الكبير في صناعة الاقتناع، واستثارة التصديق في الجمهور»[1]، فالظاهر أن اختيار المقدمات، واختيار طريقة عرضها هو المعوّل عليه في العملية الحجاجية، ذلك الاختيار هو الفاعل في الحجاج به يتوصل إلى «ذهن من يسمع، وقلب من يتقبل؛ فيحصل الإذعان وتكون الاستجابة عملا مناسبا، ينجزه المخاطب إنجازا اقتضته قوة الانفعال، ودعت إليه حمّية التصديق»[2]، وهذا هو الأصل من هدف الحجاج عند بيرلمان أي «الإذعان» الذي لا يخلو الوصول إليه من وسائل مبتكرة، وتقنيات مقترحة من طرف المؤلفان.

5. 1. 4- التقنيات الحجاجية:

تتوزع التقنيات التي يقوم عليها الحجاج بالمفهوم الذي وضعه لها بيرلمان وتيتكاه على نوعين من الطرائق؛ طرائق الوصل أو الاتصال (Procèdes de liaison)، وطرائق الفصل أو الانفصال (Procèdes de dissociation) المقصود بالطرائق الاتصالية، الطرائق التي تقرب بين العناصر المتباينة في أصل وجودها، لتدخل ضمن بعضها فتشكل بنية واضحة، حصر الباحثان هذه الطرائق في ثلاثة أنواع من الحجج هي:

[1] - علي الشبعان، الحجاج والحقيقة، وآفاق التأويل، البحث في الأشكال، والاستراتيجيات، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، سنة 2010م، ص: 111.

[2] - علي الشعبان، المرجع نفسه، ص: 112.

1- **الطرائق الاتصالية:**

1.حجج شبه منطقية.

2.حجج مؤسَسَة على بنية الواقع

3.حجج مُؤسِّسَة لبنية الواقع

1.الحجج شبه المنطقية (Argument quasi logique): وهي أدلة تستمد طاقتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة، وهي تعتمد البنى المنطقية، مثل التناقض (Contradiction) والتماثل التام، أو الجزئي (Identité totale au partielle)، كما تعتمد العلاقات الرياضية، مثل علاقة الجزء بالكل، وعلاقة الأصغر بالأكبر، أما الحجج شبه المنطقية المعتمدة على البنية المنطقية فتتلخّص في[1]:

1.التناقض وعدم الاتفاق (التناقض):

هو توفر قضيّتين، إحداهما نفي للأخرى[2]، (ينزل المطر، لا ينزل المطر) بينما يعني عدم الاتفاق أو التعارض، اختيار إحدى القضيّتين، وطرح الأخرى استنادا إلى الواقع، والظروف أو المقام، يوضح بيرلمان ذلك بمثال «موقف من يحجر قتل الكائن الحي، ويدعو رغم ذلك إلى معالجة مريض يشكو إلتهابا»[3]، الجراثيم هي المسببة للالتهاب، والجراثيم كائنات حية، استعمال مضادات حيوية تقضي على الجراثيم، وهنا تتعارض أطروحتا حجر قتل الكائن الحي، ومعالجة المريض.

سيكون الفرق بين التناقض والتعارض هو كون التناقض يدخل داخل نظام واحد، أما التعارض، فيحدث في علاقة الملافيظ بالمقام[4].

2.التماثل والحدّ في الحجاج: يدور هذا النوع المنطقي للحجة، على حدود التعريف (Définition) من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرّف والمعرِّف وهما يتماثلان لفظا، الأمر الذي يجعلنا، نعتبر

[1] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص: 325.

[2] – Chaim perleman, traite de l'argumentation, p: 270.

[3] –Ibid, p: 272.

[4] – ينظر: عبد الله صولة،، المرجع السابق ، ص: 325.

اللفظ الثاني محمولا على المجاز[1]. ذلك لتجنب اعتبار العبارة الثانية ضربا من الحشو. ومثل ذلك الصيغ القائمة على التماثل، ويتم استعمال التماثل لتقويم الأشياء تقويما إيجابيا، أو سلبيا بواسطة الحشو، كقول القائل: «حين أرى، ما أرى، أفكر فيما أفكر»[2]، الملاحظ هنا حشو الكلام، وتكراره، غير أنّ الدلالة المقصودة تكمن في اللفظ الثاني، ومن ذلك اعتبار الدلالة المحصلة من هذا الحجاج، دلالة محددة سلفا، لكن لا يتم نسبة هذه الدلالة إلى الحجاج، إلا إذا ارتبطت بالمقام[3]. فلا يمكن استنتاج المساعي الحجاجية في كلام محشو ومكرور، إذا لم يكن في سياق ومقام معين يضمن له مكانته الدلالية والحجاجية.

3.الحجج القائمة على العلاقة التبادلية (Arguments de récprocité): تحاول هذه الحجج الموائمة بين حجج عكسية، فتجعلها متماثلة إلى حد تطبيق قاعدة العدل (La règle de justice) مثل الحجج القائمة على التناظر، الذي يطبّق فيه قاعدة العدل من قبيل قولنا: «ضع نفسك مكاني»[4]، (Mettez vous à ma place) فهي إذا حجج تتحقق بعكس القضايا، شرط توخي قواعد العدل.

4.حجج التعدية (Arguments de transivité):

تقوم على استنتاج علاقات معينة، انطلاقا من توظيف قيمة عنصر ثالث، يتم المرور عبره، لتأكيد العلاقة بين العنصرين، الأول، والثاني، مثل قولنا: «عدوّ عدوّي صديقي»[5]، فالحكم الأخير من خلال علاقة عدوي بعدوه، فعدوه بالضرورة يكون صديقا لي، إذ نشترك في عداوة نفس الشخص.

أما الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية فمنها:

1.إدماج الجزء في الكل: أي ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء[6].

---

[1] – Chaim perleman, traite de l'argumentation, p: 392.

[2] – ibid, p: 293.

[3] – عبد الله صولة، الحجاج، أطره ومنطلقاته، ص: 328.

[4] –Ibid, p: 299.

[5] – Ibid, p: 308.

[6] – Ibid, p: 312.

2.تقسيم الكل إلى أجزاء: يتم تقسيم الكل إلى أجزائه المكوّنة له حتى يشحن كل جزء على حدة، بشحنات حجاجية، على هذا التصوّر تبنى حجج تسمى «حجج التقسيم»، أو التوزيع كقولنا: «الكلام اسم وفعل»[1]، البرهنة على الأجزاء المكوّنة للكل، تقود حتما إلى البرهنة على ذلك الكل.

تسعى الحجج الشبه منطقية إلى البرهنة على موضوعاتها، بواسطة طرق عقلية، ومنطقية، ورياضية.

2. حجج مؤسسة على بنية الواقع (Les argument bases sur structure de réel): هي من قبيل الربط السببي، وحجة السلطة؛ تستخدم هذه الحجج الحجج شبه المنطقية المذكورة آنفا، للربط بين أحكام مسلّم بها، وأحكام يسعى الخطاب لجعلها أحكاما مسلّما بها، هذه العلاقة تؤسس لمشروعية نعتها بالحجج الاتصالية، إذ تضع الأحكام المسلّم بها، والأحكام غير المسلّم بها، في نطاق واحد بعد وصلها[2]. من أنواع هذا الاتصال في الأحكام:

الاتصال التتابعي (Liaison du succession): يصل بين ظاهرة ما وبين نتائجها، أو مسبباتها، وله عدة أوجه[3]:

أولا: الوصل السببي: له ثلاثة أضرب من الحجاج؛ حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين.

وحجاج يقع بواسطة رابط سببي: زرع فحصد (السببية). وحجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سبباً أحدثه وأدى إليه: حصد لأنه زرع.

وحجاج يرمي إلى التكهّن بما سينجز عن حدث ما من نتائج.

هو يزرع فسيحصد – من قبيل الحتمية

الملاحظ في الحجاجات السابقة اعتمادها على نتائج الأحداث، فتكون قوة حجاج الحدث بالنظر إلى النتائج التي يحققها، والتغيير في سلوكات متلقيها ليفتح باب كبير، يشتمل علاقة الحجاج بأفعال الكلام.

---

[1] – Chaim perleman, traite de l'argumentation, p: 315.

[2] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره، ومنطلقاته، ص: 331.

[3] – voir: Ibid, p: 394.

ثانيا: حجة التبذير (L'argument de gaspillage): تقوم على الاتصال والتتابع، يقول بيرلمان ممثلا لهذه الحجة: «بما أننا قد بدأنا في إنجاز هذا العمل، وضحينا في سبيله بالكثير، فإننا نكون إن أعرضنا عن إتمامه، لكان ذلك مضيعة لجهودنا، وبالتالي فإنه علينا أن نواصل إنجازه»[1]، استعمال هذه الحجة يعتمد على جانب الاتفاق على استهجان فكرة التبذير في كل المسائل.

ثالثا: حجة الاتجاه (L'argument de direction): تقوم على فكرة التحذير، كالتحذير من إتباع الإنسان سياسة التنازل في بعض الأمور، لأنّ سلسلة التنازل إذا بدأت فلن تتوقف، أيضا التحذير من مغبّة انتشار ظاهرة ما؛ وهو ما يسمى بحجة الانتشار أو حجة العدوى[2]، حيث تنتشر هذه الحجج بسرعة، عندما تأخذ القيم من حجج أخرى لتصبح مثلها، سواءً كانت تلك القيم سلبية، أو إيجابية، لهذا وسمت هذه الحجج بحجج الاتجاه؛ لأنها تؤثّر في باقي الحجج، وفي اتجاهها بالأخص.

الاتصال التواجدي (Laison de coexistence):

يكون هذا النمط من الاتصال بين الشخص وأعماله «التداخل بين العمل والشخص»[3] وهو الآخر ذو وجوه متنوعة:

أولا: الشخص وأعماله: يرتبط مفهوم «الإنسان وأعماله» من حيث هما مفهومان مترابطان، لا يمكن الفصل بينهما، فالإنسان هو «مجمل المعلوم من أعماله، أي بتعبير أدق هو العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشخص، وبين أعماله التي هي تجليات ذلك الجوهر»[4]، تكشف هذه الأعمال عن جوهر الشخص، وهو بدوره بفضل نشاطه في السياق، يعرفنا ويفهمنا أعماله؛ إذ يحتل السياق مكانا هاما في توضيح قصد الشخص ونيّته، ومعرفة نية الشخص تمثل مناط الحجاج، إذ ما يشترك في تكوين الحجاج وتقويمه، معرفة الشخص، ومعرفة جوهره، وكذلك معرفة عمله ضمن سياق معين، وذلك كله المقصود بمعنى التداخل بين الشخص وعمله.

---

[1] – Chaim perleman, traite de l'argumentation, p: 375.

[2] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص: 333.

[3]– ibid, p: 398.

[4] – عبد الله صولة، المرجع السابق، ص: 334.

ثانيا: حجة السلطة (Argument d'autorité): تستمد هذه الحجة وجودها من سلطة معينة، سواءً سلطة المتكلم، أو سلطة المحتج له، أو حتى سلطة الحجة في ذاتها، إذا كانت مستعملة من قبل من طرف شخصية لها سلطة، وقد تكون حجة السلطة صادرة عن «إجماع» أو عن «رأي عام» أو «علماء» أو «فلاسفة» أو «أنبياء» أو عن عقائد، أو علوم يقينية[1]، المهم أن تكون ذات سلطة، تجعل الجمهور معترفا بها مذعنا لها.

ثالثا: الاتصال الرمزي: هذا النوع من الاتصال التواجدي يحدد قيمة الرمز ودلالته من خلال إدراكه للترابط الزمني، بين الرامز، والمرموز إليه؛ حيث تكون تلك العلاقة علاقة مشاركة وتبرير (Rapports de participation motivation) يقوم هذا الوصل «على الانتقال من الرمز إلى ما يرمز إليه، مثلما ينتقل من العَلَمِ إلى الوطن ومن الصليب إلى المسيحية...»[2] ، تشير الأمثلة السابقة إلى علاقة المشاركة بين الرمز، والمرموز إليه، وهي غالبا ما تكون عبارة عن عواطف تثار لتظهر تلك العلاقة.

3.حجج مُؤسِّسة لبنية الواقع (Les arguments qui fondent la structure de réel) وهي حجج تستخدم الحالات الخاصة شأن الشواهد والأمثلة، تقوم هذه الحجج على مستويين:

أولا: تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة: كالمثل (l'exemple) يؤتى به لتأكيد فكرة مطروحة، يستعمل للحجاج عادة في حال خلاف بارز في إحدى الفرضيات الحجاجية، يأتي بالمثل لدعمها، وإقناع الجمهور بها، إضافة إلى المثل نجد الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية، كالمقولات الدينية، ومقولات الخالدين عند الجمهور «لأنّ قيمة الشخص المعترف بها سلفا من قبل السامعين، يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية مهمة، توظف في تحقيق العديد من النتائج»[3]، ولهذا دور بارز في تقوية العملية الحجاجية في الخطاب، هذه الحالات الخاصة كما عبر عنها بيرلمان، هي حجج تستنبط من الواقع.

[1] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص: 335.

[2] – عبد الله صولة،، المرجع نفسه، ص: 336.

[3] – محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 133.

ثانيا: الاستدلال بواسطة التمثيل (analogie): يذهب بيرلمان وتيتكاه إلى أن التمثيل في الحجاج ينبغي أن تكون له مكانته، باعتباره أداة برهنة فهو ذو قيمة حجاجية، وعبارة عن تماثل قائم بين بنى معينة.

يقدم عبد الله صولة مثالا يوضع فيه تلك البنى، والعلاقة بينها، في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ**﴾[1].

لدينا البنى[2]: أ.المشركون

ب.أولياؤهم

ج.العنكبوت

د.بيتها

يصف بيرلمان مثل هذه العلاقة بين البنى بـ«تشابه علاقة»[3]، فعلاقة (أ) بـ(ب) تمثل المشركين بأوليائهم، تشبه علاقة (ج)بـ(د) وهي علاقة العنكبوت ببيتها؛ فكما أن المشركين يعتصمون بأوليائهم تعتصم العنكبوت ببيتها، هذا التمثيل يحوي طاقة إقناعية كبيرة لأنّ وجه الشبه فيه عقلي؛ المتلقي يسلم به، حال تلقيه، إضافة إلى الوجه الجمالي للتمثيل، فالنفس تميل إلى الجمال، وتسلم بكل ما هو إبداعي. وإن كان بيرلمان قد حدد كل تمثيل على حدة «ففي حين لا شيء يمنع من أن يطول التمثيل، ويمتد في مجال الإبداع، يطلب من التمثيل في مجال الحجاج، أن يلتزم بحد معين، وإلا فقَدَ طاقته الإقناعية»[4]، وقد لا ينسحب هذا على كل التمثيل؛ بل يمكن أن يكون التمثيل إبداعيا، طويلا، وله من الطاقة الإقناعية ما يجعله يضاهي وسائل البرهنة والاستدلال.

كان ذلك بالنسبة للطرائق الاتصالية، وقد توضح أنها تقنيات تقرب بين العناصر المتباينة، وتقييم روابط مختلفة، إذا تستعمل الاتصال بين المتباينات للوصول إلى الحجاج.

---

[1] – سورة العنكبوت، الآية:41.

[2] – ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص: 339.

[3] – Chaim perleman, traite de argumentation, p: 501.

[4]– Ibid, p: 518.

2- الطرق الانفصالية في الحجاج:

تقع هذه الطرق في العناصر التي تؤلف وحدة واحدة يتم تجزئتها لغايات حجاجية «الحجاج القائم على كسر وحدة المفهوم بالفصل بين عناصره المتضامن بعضها مع بعض؛ مرده إلى زوج الظاهر/الواقع أو الحقيقة (Apparence/réalité)»[1] ، المعنى أن كل المعطيات ذات بعدين مختلفين، حد ظاهر؛ وهو المتبدي الذي يحتمل أن يكون زائفا، والواقع هو الحقيقي؛ الفصل بين الحدين في المعطى الواحد، يقع في صميم الحجاج بالانفصال، أو بالفصل، حيث يذهب المؤلفان إلى أنّ الحد الذي يوافق الظاهر، هو ما يدركه الفكر مباشرة بعد تلقي المعطى، أما الحد الذي يوافق الحقيقة فلا يمكن إدراكه إلا من خلال علاقته بالحد الموافق للظاهر، هنا تكمن عملية الفصل، حيث يقوم المتلقي بفصل مكونات الحد الموافق للظاهر، للتوصل إلى مظاهر التناقض والزيف الممكنة بين عناصره، من خلال مقارنتها بالمقياس أو القواعد التي تكون قد توضحت في الحدّ الموافق للواقع، ليتصدر هذا الزوج الظاهر/الواقع ضروب الفصل بين المفاهيم لعمومه وأهميته[2]. كذلك من الفصل توظيف طرائق من قبيل: هو شبه كذا (Pseudo) مثل شبه العلمي (Pseudo scientifique) اللاكذا غير كذا، وبعض الجمل الاعتراضية، التي تحمل أفكارا مؤكدة، أو ناقضة لما سبقها أو تلاها، ووضع بعض الأقوال بين قوسين أو معترضتين، وقد يستخدم الفصل في الحدود والتعريفات، فالتعريف هو وسيلة حجاج شبه منطقية تحدث الفصل داخل المفاهيم، غالبا ما تقوم هذه التعريفات على زوجي ظاهر/حقيقة، وهو جوهر الحجاج بالطرق الانفصالية.

ساهمت نظرية البلاغة الجديدة في إعادة الحياة للبلاغة؛ بإعادة إثارة قضاياها الجوهرية من منظور أفاد من تطور معطيات المنطق الحديث، منطق يبتعد عن الأبنية الاستدلالية المجردة، يجعل اهتماماته مجالات استخدام اللغة مثل العلوم الإنسانية، والفلسفة، والقانون، لتظهر بلاغة جديدة متطابقة مع الحجاج، من منطلق أن كل خطاب بلاغي يسعى بالضرورة إلى دعم وضع، أو دحض وضع، ذلك كله ينبني على أسس حجاجية معينة؛ تتمثل في تقنيات مؤسسة صنفها المؤلفان.

---

[1]- Chaim perleman, traite de argumentation, p: 562.

[2] - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره، منطلقاته، ص: 344.

يمثل عمل بريلمان و تيتكاه عودة للاهتمام بالحجاج بعد أن كان قد تعرض للتهميش، وتم إلغاؤه من المناهج التعليمية، وفي نفس السنة التي صدر فيها مؤلف بريلمان، صدر كتاب استخدامات الحجة les usages de l'argumentation—لستيفن تولمين، حيث لا يمكن تجاهل عمله ودوره في إعادة الاهتمام للحجاج.

5 . 2- استخدام الحجة (تولمين):

وضح تولمين في بداية كتابه استخدامات الحجاج، أنّ قصده كان محاولة جذب الانتباه إلى حقل البحث في الحجاج، أكثر من المعالجة المنهجية، وكانت محاولته لرسم خطوط الحجاج تستند في جزء كبير منها إلى التساؤل عن وضع المنطق في شكله الصوري، فهو في الواقع لا يرى أي تصادم بين الحجاج والمنطق، حيث أنه لم يلق بالحجاج خارج المنطق، بل قام بتصفية المنطق من شكله الرياضي ودفعه باتجاه الحجاج[1]، وقد نقد منهجه هذا بأنّه مجرد صناعة جديدة للبرهان الذي غرضه إثبات الحقيقة، وليس إقناع الجمهور، في حين أنّه اعتبر هذا البرهان نفسه صانع الحجج المقنعة.

ولأن المنطق عنده نظام إستعادي تبريري، يهتم بالحجج التي تضفي الشرعية على النتائج، وتبرر مقبوليتها، على شرط معرفة بنية تلك الحجج، والتأكد من سلامة تكوينها، وقد وجه تولمين اهتمامه إلى الحجج التعليلية الموجهة إلى دعم الإثباتات؛ فالتعليل هو الوظيفة الأساسية للحجج وما عاده من استعمالات ووظائف ثانوي، ومشوش، لنفرض أنّ شخصا صاغ إثباتا، ثم طلب بتدعيمه فماذا سيفعل لإنتاج حجة تعلل إثباته؟ وما هي أشكال النقد والتقويم التي ستطبق بكيفية ملائمة، في فحص الحجة المقدمة»[2]، يخضع هذا الأمر لنوع القضية المطروحة، ولتسهيل عملية تمثل هذه الحجج ووضعها في مكانها المناسب، قام تولمين بتقديم اقتراح يمكن الاستناد إليه أثناء التقويم النقدي للحجج المختلفة، بالاستناد على نفس النوع من قوانين أو معايير الحجاج.

كما اقترح تولمين لذلك ما سماه بالحقل الحجاجي، وهو يمكّن من الحصول على نمط واحد من القيم في حجج متنوعة، باعتبار«حجتين منتميتين إلى نفس الحقل تكون المعطيات والنتائج المكونة

[1]- ينظر: فيليب بروتون، جيل جولنييه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة : محمد صالح ناجي الغامدي، الطبعة الأولى، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، سنة 2011/1432، ص: 59.

[2]- تولمين، استعمالات الحجج,14 : taulmen , les usages de l'argumentation, p, نقلا عن: محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 61.

لكل واحدة منهما من نفس النوع المنطقي، ونعتبرهما منتميتين إلى حقلين مختلفين حين لا تكون الأسس والنتائج من نفس النوع المنطقي»[1]، أي هو تصنيف للحجج ضمن حقول تتسم بنفس الخصائص، يمكن القول أن نموذج تولمين بهذا نموذج حجاجي منطقي، أخرج المنطق من صرامته وعلى عكس ما نسب إليه من الابتعاد عن مفاهيم الحجاج، قارب الحجاج بطرق منطقية، فقد اعتبر الحجاج « المسار الذي يسلكه الباث لإقناع المتقبل بنتيجة ما؛ بل إن وظيفة الحجة عنده إنما تكمن في الإقناع فقط، وما سوى الإقناع فيعدّ وظائف هامشية ثانوية طفيلية secondaires et parasitaires، والمفيد من تعريف تولمين أنه تفطّن إلى أنه ثمة إستراتيجية stratégie في صوغ الحجة» [2] .

كما أن ما جعل طرحه يوسم بالمنطقية هو هذا المسار نحو الحجة، لأن المحاجج عليه توخي مسائل معينة لإيصال حجة مقنعة لذلك شُبِّهَ منواله بالمناويل المنطقية، فعملية الانتقال من المعطى إلى النتيجة تذكرنا بالقياس وبمقدماته ونتائجه[3].

5 . 3- نظرية المساءلة– ميشال مايير[4]–:(Michel Mayer):

حاول ميشال مايير الاستفادة من الجهود الفلسفية واللسانية التي سبقته في التأسيس لنظرية الحجاج، فبنى نظريته من خلال اهتمامه بالبلاغة، والحجاج فانطلق من وعي جاد بأزمة الفلسفة الغربية المعاصرة، التي حصرها في أزمة العقل الغربي، مردُّ تلك الأزمة صوت الذات الديكارتية حسبه، المؤسسة للكوجيتو«أنا أفكر إذا أنا موجود»، و بما أن عملية التفلسف مؤسسة أصلا على الكوجيتو» فهو الذي أرسى الطريقة المحددة للحقيقة والإدراك والحكم، لأنه كان الإجابة التي تضمن الحل لكل إشكال ممكن أو محتمل»[5]، لذلك تراجع الاهتمام بإنسانية الإنسان، وتساؤلاته الوجودية،

---

[1]–taulmen , les usages de l’argumentation, p : 17.63 نقلا عن: محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص:

[2]–Ipid p: 04 نقلا عن: عز الدين الناجح، تداولية الضمني، والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب، بحوث ومحاولات، مركز النشر الجامعي، تونس، 2015، ص: 24.

[3]– ينظر: عز الدين الناجح، المرجع نفسه، ص: 25.

[4] – فيلسوف بلجيكي من مواليد 1950، أستاذ بجامعة Brescelles، ومدير مجلة ، revue international de philosophie، و يشرف كذلك عن سلسلة interrogation philosophie ، المبادرة عن دار BVF، بباريس، ينظر:أهم نظريات الحجاج، ص: 387.

[5]– محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 389.

بالتالي فقد الإنسان مكانته باعتباره أساسا «Fondement» ، حاول مايير تجاوز هذا الوضع بإعادة قراءة التراث البلاغي، حيث ذهب إلى أن أساس تراجع البلاغة، هو تراجع السؤال إلى مواقع خلفية، لذلك يجب العودة بالفلسفة إلى وظيفتها الأساسية وهي المساءلة.

1.3.5- الجذور اليونانية لنظرية المساءلة:

انطلق مايير من الفلسفة اليونانية، فبحث عن نشأة السؤال الذي اقترن بميلاد الفلسفة، والنظر في أبعاده، وخصوصياته؛ حيث تصور مايير وجود فضاء للإنسان، وهو فضاء خلافي مسألي، انطلق منه عند قراءته لسقراط وأفلاطون وأرسطو، وأسس لنظريته من خلال تلك القراءة.

بدأ مع سقراط (339 ق م) الذي قوّم نظريته على السؤال، واعتبر أنّ الإجابة لا تمثل إلا مستوى ظاهرا، فهو لا يبحث عن أجوبة شافية للأسئلة، لأن عملية التفلسف تحتاج إلى السؤال لتتحقق، أما الجواب، فيظهر أساسا في السؤال لأن « المساءلة هي أيضا الجواب، وإذا ما ألغينا السؤال، فإننا نلغي معه الجواب، وإنما المساءلة تكمن في ذلك الاختلاف بين ممارسة السؤال، وامتدادات السؤال الحمّالة للأجوبة المتعددة»[1] على هذا الأساس بنى مايير نظرية المساءلة عنده، و قدم السؤال كما فعل سقراط.

أما أفلاطون، فقد قامت فلسفته على الحاجة الملحة لتقديم الأجوبة، والبحث عن الحقيقة الموجودة حسبه في عالم المثل المتوفر على كل الأجوبة، ما يفقد السؤال أهميته، والذي لا يعدو دوره أن يكون بلاغيا أسلوبيا، بالتالي سفسطائيا[2]، فإذا توفر الجواب أساسا، وهو جواب شاف لأنه من عالم المثل، فلا داعي للبحث عن السؤال أصلا.

أما بالنسبة لأرسطو، فقد بنى فلسفته الحجاجية على الخلاف، كما رأينا سالفا، فذهب إلى أن منشأ الحجاج الخطابي، والجدلي يكون حيث يكون الخلاف، فمدار الحجاج الجدلي مطلوب جدلي، وهو سؤال، ومدار الخطابي على المسائل التي من طبيعتها المناقشة؛ لذلك فان الحجاج الجدلي، والحجاج الخطابي، ينشآن حيث الخلاف، والخلاف هو منجم السؤال»[3]، بذلك تقع الجهود اليونانية

[1]- محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ص: 390.

[2]- ينظر: محمد علي القارصي، المرجع نفسه، ص: 390.

[3]- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف نظريات الحجاج في التقاليد الغربية إلى اليوم، ص:122.

في خدمة النظرية التي حاول مايير التأسيس لها، فالملاحظ اهتمام كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو بمسألة السؤال، وإن كانت طريقة التناول مختلفة، إذ يرى مايير أن الفلسفة منذ سقراط جعلت المساءلة ضمن اهتماماتها، لكن – حسب مايير دائما- إن هذه الفلسفة لم تطرح على نفسها البتة، سؤال السؤال التأسيسي الذي يمثل جوهرها[1]؛ أي إن الفلسفة لم تكن مؤسسة على وضع يجعلها فلسفة بروبلماتولوجية، problomatalogue ، تهتم بدراسة المساءلة.

5. 3. 2- مشروع مايير الفلسفي، الحجاج والمساءلة:

استثمر مايير مختلف العلوم المعاصرة للتواصل، والنظريات المعرفية، والظاهراتية، في قراءة البلاغة القديمة، والجديدة معا، منطلقا من التفلسف حول مكونات الكلام، بالتحديد من العلاقات الحجاجية، حيث أعاد التفكير في مفهوم اللوغوس(le loges) الذي اختلفت مفاهيمه، ما بين الحجة، وعنصر الحجاج، والخطاب، بينما يعرفه مايير بأنه:كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل مداه، دون أن يحدّه اتجاه مخصوص[2]، ويعرفه كذلك بأنه العقل المتكلم: la raison parlante ، بهذا ينطلق مايير من الكلام، وينزّل التفكير فيه منزلة السؤال التأسيسي، هذا السؤال هو مصدر الجواب الأول la réponse première ، أي أن يكون أول تصور، فهو يلغي كل التصورات الماقبلية، بذلك يكون أساس الحدث الكلامي، السؤال الفلسفي عن جوهر الكلام[3]حسب مايير، وباقي الأحداث الكلامية تصنف ضمن فروع السؤال، ليتنزل السؤال منزلة أساسية في المكون الكلامي، فمنه يتوصل إلى الجواب، وعندما يفهم السؤال آليا يتم التوصل إلى جوابه، فالأساس الكلامي متوفر في السؤال إذا.

5. 3. 3- البلاغة والحجاج:

الوظيفة التساؤلية للكلام هي أساس تصور مدار الحجاج لدى مايير، لأنه وكما تمت الإشارة يعتبر أساس تكوين الكلام هو إثارة السؤال، التي ينجم عنها نقاش معين، ومن طبيعة النقاش استدعاء الحجاج « فالحجاج لديه، محايث لاستعمال الكلام، لأن الكلام يتضمن بالقوة سؤالا،

[1] – محمد علي القارصي، البلاغة من خلال نظرية المساءلة، ص: 391.

[2]– محمد علي القارصي، المرجع نفسه، ص: 391-392.

[3]– ينظر: محمد علي القارصي، المرجع نفسه، ص: 392.

يستمد منه دلالته»[1]، لتتأسس عملية الحجاج عنده على نظرية المساءلة، وهو يقسم الأسئلة إلى قسمين، المصرح به، والضمني المصرح به هو ظاهر السؤال، أما ما هو ضمني، فهو الإمكانات المختلفة للإجابة عن السؤال الواحد، تظهر علاقة الحجاج بالبلاغة في هذه الجزئية بالذات، إذ تصبّ جهود مايير في التنظير في مجال البلاغة، وهي شديدة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة أساسا بالسؤال، ونجده يحدد البلاغة تحديدا وظيفيا على أنها «مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول مسألة أو مشكل»[2] تلك المفاوضة هي أساس القول الحجاجي، وهي تدور بين المتخاطبين حول المسافة المتمثلة في الطريقة التي يتعامل بها الناس فيما بينهم إزاء المسائل التي تشغل تفكيرهم، وما ينتج من تباينات بينهم في الأفكار والمواقف، وكلها تندرج في صلب الحجاج، مستعملة آليات حجاجية وبلاغية متعددة لتقريب المسافة[3]، تسعى هذه الآليات إلى تقليص المسافة الموجودة في ذهن المتلقي لتوصيله إلى فهم أكبر قدر من المعنى المراد، وبالتالي إلى الإقناع، كل ذلك حسب قصد المخاطب وفهم المخاطب، وظروف الخطاب.

من هذا المنطلق يقوم مايير بطرح مختلف الإمكانات البلاغية التي تحتكم إليها فكرة « مفاوضة المسافة» مرورا بمستويين اثنين[4]:

1- بنية الصور البلاغية:

يولي مايير البلاغة وصورها المجازية عناية بالغة في نظريته، بوصفها أساسا في عمليات التخاطب، لأنّ مجال التخاطب الإنساني كثير الاختلافات، وهو مجال خصب لنمو فعل الحجاج، بما يستدعيه ذلك الاختلاف من مقارعة للحجج والأدلة، فيصبح الحجاج ما تتيحه البلاغة من صور مجازية تساهم هذه الصور في إتمام فسيفساء الخطاب بإيصال المعنى المتألق والإقناع به؛ فالقول الخطابي يخضع لسلطة المجاز حتى يتم مهمته في الإقناع، تكتمل نظرية مايير المجازية في الحجاج بضمّ مجموعة من المفاهيم منها[5]:

---

[1]- محمد علي القارصي، البلاغة من خلال نظرية المساءلة ، ص: 394.

[2]- ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص: 203.

[3]-ينظر: عبد السلام عشير، المرجع نفسه، ص: 204.

[4]-محمد علي القارصي، المرجع السابق، ص: 395.

[5]-ينظر: عبد السلام عشير، المرجع السابق، ص: 208-209.

1.**الحقيقة والمجاز**: أما الحقيقة فتوصل إلى اليقين، وأما المجاز فهو الافتراض المؤدي إلى النقاش، والتعارض الذي يعبر عنه الحجاج، هذه الثنائية تكمل بعضها حيث يحاول المجاز بتعدد معانيه الوصول إلى أوجه مختلفة من الحقيقة، أو ما يمكن تصوره حقيقة.

2.**الاستعمال والابتكار**: الاستعمال المتكرر لنفس اللغة، يحول الحجاج إلى تكرار مبتذل، يوصل إلى الاستبداد – في الفكر الحجاجي- في حين أن الابتكار الذي يفتح الأفاق أمام الاختلاف، والتجديد يطلق العنان للفكر الحجاجي.

3.**الإقناع والتمويه**: يحاول الحجاج إرضاء المصالح المشتركة بين الناس، فهو الطريقة التي «تقود الإنسان إلى تحقيق غاياته المختلفة، انتصارا لفكره، أو تعزيزا لمذهبه»[1]، يتم ذلك سواء بتأدية الوظيفة الإقناعية، أو التمويه، المهم أن تتم وظيفة الحجاج في خدمة الناس.

يخضع مايير هذا المستوى البلاغي (المجاز) إلى نظريته في المساءلة « فإن الصورة البلاغية إذا ما طرحت في الخطاب، فذلك يعني أن سؤالا طرح فيه، والسؤال يستدعي بالضرورة جوابا (بروميليماتولوجيا، إشكاليا) يستفهم السامع، ويدعوه إلى الإجابة عن السؤال المطروح، وتتأتى الإجابة بتجاوز ظاهر اللفظ الحامل، فالجواب سؤال في حد ذاته، لأنه يحدد وجها واحدا من الجواب، وتبقى بقية الوجوه متعلقة بأسئلة جديدة تطرح»[2].

بذلك يكون للعلاقة بين السؤال، والجواب من الخطاب دورا في التأسيس للصور البلاغية، كقولك: هند قمر.

فإنّ المخاطب يتساءل عن مقصد المتكلم، فأصل المسند، وجنسه يختلف تماما عن أصل المسند إليه، وجنسه، ما يدفع المخاطب إلى التساؤل، لماذا جمع المتكلم بينهما في جملة واحدة من الخطاب، يكون الجواب هو « المفسر للتماهي الصوري البلاغي بين الطرفين، ويؤكد مايير أن هذا التماهي البلاغي هو الفضاء البروماتولوجي الذي يواجه المخاطب»[3] أي أن المخاطب يحاول

[1]- ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص: 209.

[2]- محمد علي القارصي، البلاغة من خلال نظرية المساءلة، ص: 396.

[3]- محمد علي القارصي، المرجع نفسه، ص: 396.

اكتشاف العلاقة التساؤلية الموجودة في الخطاب البلاغي، ذلك ما يؤكد توجه مايير إلى إعتماد البنية التساؤلية للصور المجازية عنده، وتأدية دورها الحجاجي من خلال تلك البنية.

المجاز هنا حسب مايير يجمع بين ثلاثة مستويات: مستوى الإنسان المراد وصفه (هند) ، ومستوى الشيء المشبه به (القمر)، والمستوى المشترك بينهما وهو (الحسن)، وهو المستوى الوحيد غير الظاهر بين المستويات السابقة، هنا يبرز دور المجاز في الكشف عن التماهي البلاغي، بين هند والقمر، و هنا تتجسد نظرية مايير التساؤلية إذ يفرض المجاز سؤالا عن عوامل التماهي والاختلاف بين المستويات[1] لتكون الصور البلاغية ذات طبيعة حجاجية تساؤلية.

2- العلاقات الخطابية الحجاجية:

اعتمد مايير الخطابة الأرسطية كمصدر هام، أثناء سبره للعلاقات الحجاجية داخل الخطاب، تقوم تلك العلاقات على ثلاثة عناصر أساسية وهي:

1- الإيتوس:l'Ethos: الصفات والخصال المتعلقة بالخطيب.

2- الباتوس:Lpathos: وهي عملية التأثير التي تحصل للجمهور وتؤدي إلى استمالته.

3-اللوغوس: الخطاب أو اللغة؛ أي اعتماد على مكونات الخطاب اللغوية، الجمالية، والعقلية، تتم استمالة الجمهور، ويتم إقناعه.

يتجاوز مايير هذا التقسيم؛ الذي يرى أنه يدور حول الاستمالة، والإقناع فقط، ولم يعن بعملية التساؤل، واحتفظ بالعلاقة بين المتكلم والمخاطب على اعتبار أنها مجهزة لاستيعاب نظريته في المساءلة، لأن هذه العلاقة «تهيئ الفضاء الأمثل لإثارة السؤال، وإذكاء المساءلة المستمرة القائمة على الحجاج باعتباره مفاوضة للمسافة بين الطرفين، وتكيفها حسب مقاصد المخاطب»[2]، فإنتاج الخطاب يكون بمثابة المراوحة بين مقصد المخاطب، ومتطلبات الفهم عند المخاطب، و هذا هو المقصد من مفاوضة المسافة بين الطرفين من ثم أعاد مايير صياغة العناصر الخطابية الأرسطية في أركان هي: الأخلاق، السؤال، الجواب، وجمع في ركن الأخلاق عنصر المخاطب والمتكلم، وجمع السؤال

[1]- محمد علي القارصي، البلاغة من خلال نظرية المساءلة ، ص: 397.

[2]- ينظر،محمد علي القارصي، المرجع نفسه، ص: 399.

والجواب في الخطاب، إن قياس الحجاج في هذا المقام يخضع طبعا لقياس المسافة بين المتكلم والمخاطب، والتي تحددها درجة بروز الإيتوس في الخطاب[1]« بحيث تكون للخطيب طاقة تأثيرية من جهة، وثقافية عميقة، ووعي بمستويات مخاطبيه وأهدافهم، من جهة ثانية»[2]، بهذه الخصال تتشكل التساؤلات الحجاجية في الخطاب، وهي أيضا ما يساهم في جعل المخاطبين مشاركين في الخطاب، فنجاعة الخطاب تتوقف على نسبة إذعانهم، وانجازاتهم، تلك التساؤلات وتصورات أجوبتها هي ما يقوّم البنية الحجاجية للخطاب.

فطرح الأسئلة يخلق مجالا من الاختلافات بين المتكلم المخاطب، كما يمكنه خلق مجال من الاتفاق إذا ما أقرّ المخاطب بما يطرحه عليه المتكلم، « إن صوغ السؤال بهذه الطرق يحتكم أساسا إلى ما يتصوره المخاطب بين علاقات اتفاق أو اختلاف تربطه بغيره، وبالعالم من حوله»[3].

الحجاج عند مايير مرتبط بهذين الركنين المتنافرين ركن البلاغة، وركن العلاقات الخطابية، فللبلاغة دور كبير في بناء العملية الحجاجية، بما تمنحه من صور مجازية تجذب السامع للخطاب، وتجعله يعمل عقله في كشف المكامن الحجاجية المتقصدة من المتكلم، أما العلاقات الخطابية فأخذها مايير، وأسس رؤيته على البلاغة الأرسطية مع بعض التعديلات؛ فعاد بالبلاغة والفلسفة إلى وظيفتهما الأساسية وهي المساءلة.

5 . 4- الاتجاهات الأساسية لدراسة الحجاج في البحوث التداولية (المنظور اللغوي أوزفالد ديكرو)

التداولية هي العلم الذي «يعنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة، وناجحة وملائمة في الموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم»[4]، قيام النقط السابقة الذكر في الخطاب، يعمل على إقامة الحجاج مما يكشف عن علاقة بينه وبين التداولية، إذ يعدّ الحجاج بابا رئيسا في المباحث التداولية،وقد برزت اتجاهات مختلفة تأخذ الحجاج في اعتبار الدراسات التداولية، اتجاه

---

[1]- ينظر: محمد علي القارصي، البلاغة من خلال نظرية المساءلة ، ص: 399.

[2]-Mayer.M, questions de rhétorique, paris, 1993, p :13-14. نقلا عن محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 137.

[3]- محمد علي القارصي، المرجع السابق، ص: 399

[4]- صلاح فضل، علم النص وبلاغة الخطاب، دط، عالم الفكر، الكويت، ص: 20.

منطقي يجمع بين المنطق والحجاج، يمثله جون بليز غرايز(jean blaize grize) واتجاه لغوي تمثله أعمال أزفالد ديكرو –وهو الاتجاه الذي يهمّنا في هذا المقام.

5 .4. 1– الحجاج في اللغة: يقوم الحجاج في مفهوم ديكرو(ducrot)، وأنسكومبر(Anscombre) على اللغة بالأساس، وقد تبيّن «أن الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتابع وتترابط على نحو دقيق، فتكون بعضها حججا تدعم، وتثبت بعضها الآخر»[1]، ذلك يظهر مكانة اللغة في نظريتهما، حيث يتصوران أنّ النتيجة في الحجاج قد تكون ظاهرة، وقد يتوصل إليها المتلقي باستنتاجاته عن طريق سبره للغة المخاطب بها، هذا الاهتمام باللغة حتما يؤدي إلى الاهتمام بالأشكال الدلالية، وهو ما أثّر عن أصحاب المدرسة البراغماتية، لذلك كان أساس نظريتهما «رفض التصوّر القائم على الفصل بين الدلالة، وموضوعها معنى الجملة، والتداولية وموضوعها استعمال الجملة في المقام من جهة، والسعي إلى سبر كل ما له صلة داخل بنية اللغة بالاستعمال البلاغي المحتمل من جهة أخرى»[(2)]، ليكونا بذلك قد قدما الدلالة التداولية على الدلالة الخبرية، ليكون مجال بحثهما فيما يعرف بالجزء التداولي المدمج في الدلالة، الذي يخصّ بحثه بالدلالة التداولية وشروطها.

هذه المقاربة تناولت الحجاج من ناحية تداولية قولية، فبحثت عن الوظيفة الحجاجية، والأعمال القولية للعبارة اللسانية.

«يفترض هذا الموقف أن التخاطب العادي لا يتم بتبادل الأخبار عن حالات الأشياء في الكون، بقدر ما يتم بتبادل الأعمال اللغوية، لذلك فإنّ اللغة تحيل إلى ذاتها، إذ هي تعكس عملية قولها، بحيث يكون معنى القول ما ينقله من وصف، وتمثيل لعملية قول ذلك القول»[3]، فَيَفْتَحَ مجالاً جديدًا له أيضا يدا في تقويض العلاقة بين التداولية والحجاج، وهو مجال أفعال الكلام، فالأفعال القولية ذات وظيفة حجاجية، لأنّ «الحجاج في ارتباطه بالمتلقي يؤدي إلى حصول عمل أو الإعداد

[1]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، ص: 23.

[2]– شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد العربية من أرسطو إلى يومنا، ص:351.

[3] – شكري المبخوت، المرجع نفسه، ص: 352.

له»[1]، هذا المذهب يؤدي مرة أخرى إلى تميز الحجاج عند ديكرو وأنسكومبر بالخاصية اللسانية الشكلية، وليس بالمحتوى الخبري، لأنّ التداولية تركز على دراسة الروابط بين مكونات الخطاب واللغة المحققة له.

5. 4. 2- السلالم الحجاجية:

سبقت الإشارة إلى أن الأفعال الكلامية ذات وظيفة حجاجية، يعني أنه بإمكان هذه الأفعال، أن توجه المتلقي نحو نتيجة معينة، أو تحويله عنها، يكون تحقق ذلك مختلفا حسب ظروف الخطاب «ذلك أن القيمة الحجاجية للمقول لا تنتج فقط عن المعلومات التي يحملها، وإنما يمكن للجملة أن تستخدم صرفات، أو عبارات، أو صيغا أسلوبية لإسناد الوجهة الحجاجية للمقول»[2]، فنوع المقول (لغته تراكيبه، سياقه) يُحدد السمة الحجاجية له، من هنا يلمس الاختلاف في قيمة الحجج، ومدى فاعليتها في توجيه المتلقي؛ أي إننا نجد فيها خصائصا درجية، وعلاقة ترتيبية بين الحجج، يمكن الرمز إليها كالآتي[3]:

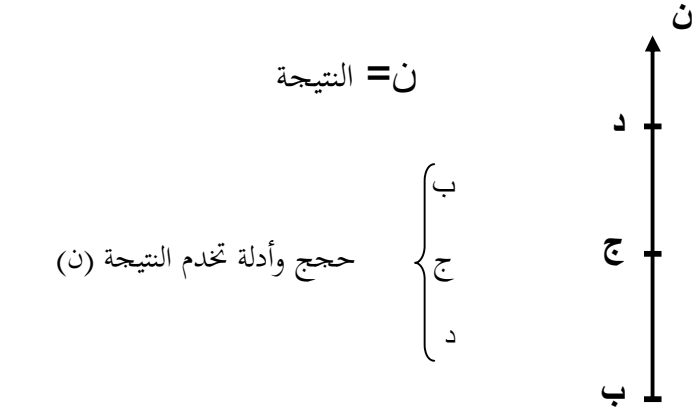

«ب» و«ج» و«د» حجج تحقق النتيجة (ن) فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما، علاقة ترتيبية معينة، فإنّ هذه الحجج تنتمي إذ ذاك إلى نفس السلم الحجاجي، فالسلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجهة، فلو أخذنا مثالا في وصف الأديب نجيب محفوظ:

---

[1] – صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، سنة: 1413هـ/2009م، صص: 120-121

[2] – محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص: 94-95.

[3] – محمد العزاوي، اللغة والحجاج، الطبعة الأولى، العمدة في الطبع، سنة:2006، ص: 20.

ب.ألف العديد من المؤلفات

ج.حصل على إجازة في الأدب

د.حصل على جائزة نوبل للآداب.

هذه الجمل هي حجج تخدم نتيجة مفادها أنّ نجيب محفوظ أديب فذّ، لكن الحجة الأخيرة هي التي ستكون في هرم الحجج، فترتب الحجج كالآتي:

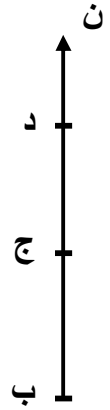

فإذا ذكرت الحجة «د» اكتفى المتلقي، واقتنع بالنتيجة أو مال إليها هذا التحديد الذي خصّه ديكرو لمفهوم السلالم الحجاجية، يضعها ضمن التقنيات الحجاجية التي تشكل البناء العام لمفهوم الحجاج، فهذا النظام المرتب للحجج حسب معيار معين يخضع لفكر وثقافة المتلقي، أو لأسباب معينة خاصة بالسياق، ونوع الجمهور وحتى مكان وزمان إنتاج الخطاب.

5. 4. 3–نظرية التداوليات المدمجة:

حاول أنسكومبر وديكرو تطوير السلالم الحجاجية بشكل يمكّن من دمجها في الوصف الدلالي، من خلال تقابل الدلالة مع التداول، فاللغة كما هو معلوم تدرس في مستويات التركيب والدلالة والتداول يخضع كل مستوى لسابقه «إذ تخضع القيمة التداولية للجملة، لمحتواها الإخباري الخاضع بدوره للبنية النحوية»[1]، هذا التصوّر الخطي –حسب ديكرو– يعطي أولوية للمحتوى الإخباري على حساب التداولي، لذلك يتجاوزه بتصوّر أنّ المحتوى التداولي للجمل يحدد بشكل مستقل عن المحتوى الإخباري، من خلال واسمات تتموقع داخل البنية التركيبية ذاتها «إذا لا مجال لنظام خطي من الدلالة

[1] – محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 97.

إلى التداول، بل إنّ التداول يمكن أن يحدد الدلالة»[1]، فيحدث أن لا يهتم بالخبر في الجملة، بل بالفعل الذي ينجز، من خلال تلك الجملة لدعم نتيجة معينة، فلا يكون التخاطب «بتبادل أخبار عن حالات الأشياء في الكون، بقدر ما يتم بتبادل الأعمال اللغوية»[2]، هنا تكمن علاقة الحجاج بأفعال الكلام، فإذا عرف الحجاج بأنه تقنيات تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن يزيد من درجة ذلك التسليم، فإنّ استعمال هذه التقنيات هدفه الأول إنجاز العمل المطلوب «ومن ثم سيكون فحص الخطابات الحجاجية المختلفة، بحثا في صميم الأفعال الكلامية وأغراضها السياقية، وعلاقة الترابط بين الأقوال التي تنتمي إلى البنية اللغوية الحجاجية»[3]، هذا التوجه يُسوّغ البحث في الترابطات الحجاجية الممكنة، في إطار البنية اللغوية، دون اللجوء إلى المحتوى الخبري، ودون اللجوء أيضا إلى البنى الاستدلالية «فترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي، وإنما هو ترابط حجاجي لأنه مسجل في أبنية اللغة، بصفته علاقات توجه القول وجهة دون أخرى، وتفرض ربطه بقول دون آخر، فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية، تمثل مكوّنا أساسيا، لا ينفصل عن معناه يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها، يوجه قوله وجهة حجاجية ما»[4]، إذ يتعامل التداول مباشرة مع الأبنية اللغوية، ويندمج مع الوصف الدلالي «فيكون مجال البحث هو الجزء التداولي المدمج في الدلالة، ويكون موضوع البحث، هو بيان الدلالة التداولية (لا الخبرية، الوصفية)»[5]، كما سبقت الإشارة. ولعل هذا مرجع تسمية هذه التداوليات بالمدمجة.

إذا أخذنا القول: «أنا صائم»

سيحلل على أساس نسبة المحمول (الخبر) صائم إلى الموضوع (أنا) ثم على أساس صدق هذه القضية أو كذبها، ثم على أساس النشاط التخاطبي الذي قام به المتكلم، ما الذي حمله على قول هذه الجملة؟ هذا التحليل يحصل عبر المراحل السابقة على التوالي إلى (التركيب، الدلالة، التداول) هذا

[1] – محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 97.

[2] – شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 352.

[3] – صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، ص: 126.

[4] – شكري المبخوت، المرجع السابق، ص: 352.

[5] – شكري المبخوت، المرجع السابق، ص: 351.

التحليل هو التحليل المتعارف عليه، وهو ما اعترض عليه ديكرو، عندما اعتبر أنه يمكن للظواهر التداولية البروز منذ المستوى الأول (التركيبي)، فوجود الضمير (أنا) مثلا لا يتحدد إلا مقاميا، وأيضا الإثبات المعبر عن اعتقاد المتكلم يتزامن مع المحتوى القضوي، وهو غير مضاف إليه بعد تركيب القضية وتحديد علاقتها بحالة الأشياء في الكون، حتى أنّ أقوالا كثيرة مركبة لا تترابط من جهة محتوياتها الخبرية؛ بل يقع الترابط فيها بين العمل المتحقق في جزء منها، والمحتوى الخبري في جزء آخر[1] أي بين الفعل الذي ينجزه جزء منها، وبين المعلومات المقدمة من الجزء الثاني، بذلك يتحقق مفهوم التداولية المدمجة، كما تم توضيحه، بأنّ يستغني عن نتائج الدلالة، ليتكون من البنى التركيبية للخطاب ويندمج مع الوصف الدلالي، لذلك عدّ منهج ديكرو قائما على وصف الشواهد اللغوية، أو النصيّة في ضوء رؤية لغوية حجاجية؛ تركيبًا، ودلالةً، وتداولاً من خلال التركيز على مجموعة من المفاهيم الإجرائية مثل الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، والمبادئ والعلاقات الحجاجية، والسلالم الحجاجية.

[1] – شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 353-354.

الفصل الثاني

الأصول العامة للحجاج في البلاغة العربية

الانتقال من الممارسة إلى التنظير

الفصل الثاني: الأصول العامة للحجاج في البلاغة العربية، الانتقال من الممارسة إلى التنظير

أدى ظهور البلاغة الجديدة وانتشارها على آفاق واسعة، إلى الرغبة في إبراز واكتشاف القيمة النوعية المميزة لها في البلاغة العربية؛ بإحياء هذه البلاغة، وتدارس الموروث البلاغي العربي يسمح باكتشاف ملامح من البلاغة الجديدة فيه، لأنها بلاغة اشتغلت بكل العناصر والمقومات التي تشكل البلاغة الجديدة، وإن كانت البلاغة العربية قد وصفت ببلاغة الأسلوب والعبارة، فإن البلاغة الجديدة قد سلطت الضوء حتى على حجاجية الصورة؛ بالتالي إمكانية نسبة الملامح الحجاجية إليها شرعي، وحصرها فيما هو شعري فقط مرحلة قد تعدُ قديمة، وبما أن البلاغة الجديدة شملت كل الألوان الأدبية، ووزعت قوانينها الحجاجية عليها، وإذ نروم تسليط الضوء على هذه الملامح الحجاجية في البلاغة العربية، فإنه يجوز لنا البحث في هذه الإشكالية التي مؤداها: هل كان للعرب وعي في دراسة الخطاب في أبعاده الحجاجية؟ ونقصد الخطاب هنا كل الألوان الأدبية.

1- الإقناع قبل الإسلام:

إستراتيجية الإقناع من استراتيجيات الحجاج الفعّالة، والتي من أجلها وُجِدَ الحجاج أصلا، وقد تمظهرت هذه الإستراتيجية في كل الخطابات سواء قبل الإسلام أو بعده، فقبل الإسلام نلفيها حاضرة في السجالات والمناظرات التي كانت بين الشعراء والخطباء قبل الإسلام، واستمر ذلك طبعا بعد الإسلام بشكل قد يكون أكثر تركيزا، لأنه من خلال هذه الإستراتيجية يهمّ المرسل إلى إقناع المرسل إليه بمحتوى خطابه، وقد تمت الإشارة إلى استحضار هذه الإستراتيجية بشكل مركز في الإسلام للرغبة العظيمة في تغيير الفكر والعواطف بدخول هذا الدين الجديد على العرب، فبمجيء الإسلام، كانت الرغبة في بداية الأمر الإقناع به كدين وفكر جديد يجب إتباعه، وبعد ذلك ظهرت الفرق والنحل، وتوسعت هذه الرغبة، وتعددت اتجاهاتها بتوجه كل فرقة أو نحلة، وبالتالي اتسعت رقعة الإقناع، وظهرت أهميتها القصوى من خلال نجاعتها، لكونها أكثر استراتيجيات الخطاب تأثيرا على المتلقي ونتائجها أدوم وأبقى؛ لأنها تمتاز بحصولها دون إكراه، أو دفع قسري؛ بل تحدث بإقناع

المرسل إليه ذاتيا[1] وتكون هذه الإستراتيجية أكثر نفعا إذ اتسعت، إلى جانب قيامها بإقناع المتلقي بإمتاعه؛ فالإمتاع يَهَبُ الخطاب قوة في استحضار الأشياء؛ فتصبح للمتلقي كأنه يراها رأي العين[2]، بالتالي تتنامى قوة الاقتناع لديه، إذ يتأثر عنده الجانب العاطفي، فيؤثر على الجانب العقلي، فيتركز الإقناع عندها.

بذلك يكون الإقناع والحجاج قد لعبا دورا أساسيا في الحياة السياسية والعقدية العربية والإسلامية، فكان هذا المسار مدخلا لاستحداث علوم جديدة دخلت البنية الفكرية العربية، منها المناظرة بين الفرق الكلامية التي ظهرت أساسا بعد النشاط الحجاجي الذي دار بين أعلام اتجاهات معينة، وكانت علوما لها أصول وأسس معينة تسير عليها، والضابط الأساس فيها هو الحجاج، فقد ظهر داع جديد لتفشي الأساليب الحجاجية، وهو ظهور البلاغة الإعجازية، حيث تنبه علماء الإعجاز إلى إعجاز الخطاب القرآني، هذا المبتغى بالذات يستدعي الاختلاف الذي هو مبدأ ومنشأ الحجاج، فظهرت آراء مختلفة وقد احتكم كل صاحب رأي إلى حجج معينة تجعل القرآن معجزا في رأيه، من هنا بدأت مسيرة البلاغة العربية من علماء الإعجاز كبلاغة حجاجية، واستمرت عبر مراحلها تستعين بالعناصر الحجاجية في بناء هيكلها، وتقوية مفاصلها، انتقالا مع كل عناصرها طبعا منذ بدايتها المهتمة باللفظ، ومن ثمّ دوره في الحجاج، وصولا إلى الاهتمام بالنظم، ودوره هو الآخر في البناء الحجاجي، إضافة إلى ذلك التمظهر الحجاجي في معاني، وبيان، وبديع البلاغة العربية.

والحقيقة أن مفهوم البلاغة العربية أصلا له علاقة وثيقة بمفهوم الحجاج، لوجود مصطلحات متعلقة بالبلاغة، يغلب عليها طابع البرهان والحجاج، إضافة إلى تعلق بعض المباحث البلاغية في تحليلاتها بالمنحى الحجاجي، كمباحث التمثيل والاستعارة مثلا.

---

[1]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، سنة:2004، ص: 445.

[2]- ينظر: طه عبد الرحمان، في أصول الحوار، ص: 38.

2-المفهوم الحجاجي للبلاغة: شكلت ثنائية التواصل والإبلاغ، والجمال والإمتاع أهم جوانب البلاغة العربية، لذلك ما فتئت التعريفات الخاصة بها، تتمحور حولهما، فنجد الجاحظ[1] يركز في تعريفاته للبلاغة، إضافة إلى جانب الجمال والفن على جانب الحجة والإقناع، فيقول: «جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة»[2] ليشير بذلك إلى أهمية القيمة الحجاجية، فَيُعْلِمَ أنها إلى جانب القيمة الجمالية تكمل هدف الخطاب .

إضافة إلى هذا المفهوم الملتبس بالحجاج المخصص للبلاغة العربية نجد هذه البلاغة تعجّ بالمصطلحات الحجاجية منها:الاحتجاج، الاستدلال، الإلجاء، الاستدراج، مجاراة الخصم، البصر بالحجة، وغيرها من المصطلحات ذات الأبعاد الحجاجية.

3-مظاهر الممارسة الحجاجية في الموروث البلاغي العربي:

إذا كان تصور النظرية الحجاجية قائما على أن «النص جملة من الملفوظات المترابطة حجاجيا في مقام تواصلي محدد، أي يمكن تفكيكه وإرجاعه إلى جملة من التقنيات الخطابية التي تؤلف مجموعه المنسجم، بالتالي كل نص بلاغي يقوم المتكلم أو الكاتب بإنتاجه أولا في مقام تواصلي، ثانيا يكون موجها إلى متلقٍ ليتأثر به، ويحمل على إنجازه فعل مرغوب منه، ما يجعله يحتوي قيما معينة، تذعن لها نفس المتلقي، ليكون النص في الأخير كياناً مكوناً من تقنيات حجاجية، وبلاغية إضافة إلى قيم وأفكار، ويتم الوقوف على الأمور السابقة الذكر حتى تثبت حجاجيته[3]، والنصوص بشكل عام تحاول تمييز مفاهيم وترسيخ أخرى، وفي النصوص بكل أنواعها، فنحن بصدد الحديث عن حجاجية

[1] - أبو عمرو بن بحر بن محبوب الكنائي الليثي، من أهل البصرة وكبار أئمتهم في الأدب خاصة، وكان من فضلاء المعتزلة، ألّف الكثير من الكتب منها: البيان والتبيين، والحيوان، والبخلاء، توفيّ سنة:255هـ . ينظر:ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المأمون، القاهرة، سنة: 1936، ج/16، ص:74.

[2]- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، ج1، القاهرة، سنة: 1998/1418، ص:88.

[3]- ينظر: محمد مشبال، بلاغة النص التراثي ، مقاربات بلاغية حجاجية ، الطبعة الأولى، دار العين للنشر، القاهرة، سنة 2013، ص 09.

النصوص بصفة عامة، وإن كان الكلام موجه إلى النص البلاغي بالتحديد، ففي الموروث العربي كل نص هو إرث بلاغي، سواء أكان خطابة، أم مناظرة، أو شعر، ما يجب توضيحه في هذا المقام احتواء كل هذه الأنواع على جوانب حجاجية، حتى يتم الكشف عن مكامن اعتماد البلاغة العربية على المبادئ الحجاجية.

نبدأ بالتوجه إلى أهم هذه النصوص ، وهي الخطابة، هذا النمط الذي صرف مكانا واسعا في الأدب العالمي، وليس العربي فقط، حيث خصّ له أرسطو كتابا، وأبدع فيه قوانين، وبما أن العربي اشتهر بالمنازعات والمناظرات مستعملا البلاغة؛ فالعبارة البليغة تقعده أو تقيمه، وقد احتاج الخطابة كأسلوب يمارس به هذا الطقس بوسائل بلاغية، وإن كان العرب في حقيقة الأمر يقدمون الشاعر على الخطيب، لكن بمجيء الإسلام حدث العكس فصار الخطيب أولى من الشاعر، لحاجة المسلمين إليه في الإقناع وجمع الأحزاب[1]، وما زاد الخطابة قوة أن الإسلام زادها بلاغة وحكمة، بما كان يتوخاه الخطباء من تقليد لأسلوب القرآن الكريم واقتباس من آياته وحججه، مما جعل الذوق الخطابي لديهم أكثر تنقيحا ورُقيًّا.

هذا الطرح يؤكد استعمال اللغة عند العرب بغرض الإقناع، فقد كان العرب على وعي بالدور الحجاجي لآليات البلاغة من استعارة وبديع وغيرهما من الأساليب البلاغية؛ التي كان لها الدور في تغيير الرؤى، وإذعان المتلقي، ولهذا عرفت الاستعارة الحجاجية بأنها «استعارة تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي»[2]، ولعل هذا هو الهدف الأساسي للحجاج.

هذا التوجه عند العرب لم يكن ليعرف الاستواء كدرس له أسس، إلا بعد انفتاح الثقافة العربية الإسلامية خاصة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين على الثقافة اليونانية، عندما قام فلاسفة الإسلام بشرح وتلخيص كتب أرسطو، فشاعت الأساليب الحجاجية في العلوم الإسلامية كعلم

[1]- ينظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، موفم للنشر، الجزائر، سنة 1993م، ج1، ص: 285.

[2]- عمر أوكان، اللغة والخطاب، د ط، إفريقيا الشرق، سنة 2001م، ص: 134. من أشهر التراجم نذكر: ترجمة الفارابي، وابن سينا، وابن رشد.

الكلام، وعلوم الفقه والأصول، وولدت علوم جديدة يمكن عدّها نظرية حجاجية عربية بحتة، وهي علم المناظرة[1]، كل هذه الأصناف البلاغية تجعل تصور اللغة كمكان مشترك بين المتكلم، والسامع، ما يخلق مكانا أكثر مقاربة وهو الخطاب، ومنه يمكن وصف البلاغة بأنها الإقناع من خلال الخطاب كما أن الخطاب لا يبنى بمعزل عن متلقيه، فهو شرط في إقامته، ودليل على خروج النص إلى الفعل وهذا هو الغرض المتوخى في كل الأنماط البلاغية العربية، نحاول فيما يلي البحث عن هذه المكامن الإقناعية الحجاجية في بعض هذه الأنماط للبلاغة العربية، كمحاولة لاستجداء المكون الحجاجي في البلاغة العربية.

3 . 1– الخطابة:

للخطابة شأن عظيم لدى الأمم، وهي قديمة قدم الإنسانية، فقد ظهرت مع الأنبياء والرسل عليهم السلام، لما لها من دور في تبليغ الدعوة لتوحيد الله عزّ وجلّ، وقد ذكر الله عز وجل في أكثر من موقع أهميتها، إذ لها ما لها من أثر واضح في تغيير المعتقدات، والتأثير في المتلقين، ففي قوله تعالى مثلا: ﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ،وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾[2] وقوله ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي** ﴾ دليل على قوة أثر الخطاب في الدعوة، والاستجابة من قوم سيدنا موسى، وقد تلاها بقول ﴿ **يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ وهنا حديث آخر عن فهم الخطاب، وتأويله، ومدى تأثير ذلك أيضا في الإقناع، وقد كان للتراث اليوناني الفضل في التأصيل للخطابة، كفن وصنعه؛ فهو من وضع أسسها كعلم مع أرسطو الذي وضع كتابا في فن الخطابة، جمع فيه كل متعلقاتها وأسسها.

[1]– ينظر: طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص: 231.

[2]– سورة طه، الآيات: من 25 إلى 28.

3 .1.1– الخطابة لغة:

الجذر خ ط ب: في لسان العرب، «خطب الشأن، أو الأمر صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر، يقال: ما خطبك؟ أي ما أمرك (...) والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة (...) والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطب بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان (...) والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب، يخطب خطابة، واسم الكلام الخطبة»[1]، وفي أساس البلاغة خطب، خاطبه، أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام.[2]

هي إذا مجموع أدوات يستعملها الخطيب للوصول إلى الإقناع بالموضوع الخاص بالخطاب، فهي القوة التي تدعو إلى الإقناع، إضافة إلى تعريف ابن وهب «إن الخطابة مأخوذة من خطبت، أخطب خطابة، كما يقال كتبت أكتب كتابة، واشتق ذلك من الخطب، وهو الأمر الجليل لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجلّ وتعظم»[3] ولعل هذا العظم ما يستمد قوة حجاجية أكثر في الخطابة، أكثر من غيرها من الخطابات الأخرى.

3. 1 . 2– عن تاريخ الخطابة العربية:

بداية الحديث عن الخطابة في العصر الجاهلي؛ حيث كانت طبيعة في العربي الساعي إلى حفظ مكانه في المجتمع، يتتبع مواطن الكلأ والماء، مما أدى إلى ظهور مناوشات بين القبائل العربية، استخدمت فيها كل قبيلة ما تملك من أسلحة، فرسان، ورماح، وسنان، وحتى قول وبيان، فكان الشعراء والخطباء ينافحون بقدر منافحة الفرسان، بل كان لهم الدور في شحذ نفوس الفرسان، ودفعهم إلى السعي للصدارة دائما، ما جعل مدونة الأدب الجاهلي تعجّ بالخطب الجميلة، وإن لم

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، باب الخاء، ص: 1194.

[2]– ينظر: محمود بن عمر، جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دت، ص: 114.

[3]– أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، ابن وهب الكاتب البغدادي، البرهان في وجوه البيان، تحقيق:حفني محمد شرف، دط، مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة:1969، ص:151

تصلنا كلها، ربما لداعي احتفاء العربي بالشعر، لسهولة حفظه بحكم أنه قول مقفى، في حين أن الخطبة غرض نثري لا يسهل حفظه.

وقد كان العربي في الجاهلية لا يتصنع إلقاء الخطب، بل كانت تأتيه تأثرا بفطرته وطبيعته «فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر، ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام (...) أو عند المقارعة، أو المناقلة أو عند صراع، أو في حرب فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ إنثيالا »[1] والخطب التي وصلتنا على ندرتها، تؤكد قول الجاحظ أعلاه، إذ تمتلك كل مقومات الخطابة، وقد جمع أحمد زكي صفوت أجودها في كتابه جمهرة خطب العرب.[2]

أما الخطابة في صدر الإسلام، فقد أخذت مكانة أعلى من مكانة الشعر، ويرجع ذلك إلى تراجع تداول عدد من الأغراض الشعرية التي لا تتماشى والفكر الإسلامي، كالغزل، والهجاء والتفاخر بالأنساب، والمدح المبالغ فيه، إضافة إلى أن طبيعة الدعوة للإسلام تستدعي شكل الخطابة أكثر من شكل الشعر، فالإسلام كان بمثابة انقلاب على نظم الجاهلية، وكل الانقلابات التي عرفتها البشرية يلعب الخطباء فيها دورا مهما.

ازدهرت الخطابة إذا بمجيء الإسلام، وتعددت أغراضها، فصارت خاضعة للدعوة للإسلام، والجهاد، كما صارت حاضرة بقوة بما يوائم تعاليم الدين الإسلامي «لتستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء، والتشييد للملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الأملاك، وفي الدعاء إلى الله عز وجل، وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته في الناس».[3] واستمر ازدهار الخطابة بمقدم حروب الردة والفتن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وشكلت هذه الظروف

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج03، ص: 28.

[2]- ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، دط، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 38.

[3]- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 150.

بيئة خصبة لنمو الخطابة، حيث استعانت كل فئة بخطبائها، لاستميال أراء الناس نحوهم[1]، للخطابة إذا وظائف نفسية وعلمية تتلخص إما في تغيير المعتقدات، أو الدفع لأمر أو المنع عن أمر، وبالتالي مطلبها التأثير والإقناع.

3 . 1. 3- حجاجية الخطابة العربية:

تمت الإشارة سابقا إلى أن عناصر بناء الخطابة عند اليونانيين هي: وسائل الإقناع، والأسلوب، وأخيرا الالتزام بترتيب أجزاء القول، وقد أضاف العرب عناصر خاصة بهم، كتقنيات الإلقاء، وقام محمد العمري بدراسة للخطابة العربية وآلياتها الإقناعية، بالرجوع إلى فهم أرسطو، مع الاحتفاظ بالخصوصية العربية، فحاول توظيف مصطلحات بلاغية من فهم العرب، وأدخلها فيما يناسبها ويستوعبها من نظرية أرسطو، ومنها مسألة مقتضى الحال[2] التي تدخل تحت إطارها اعتبارات الأحوال النفسية للخطيب، والتي اهتم بها أرسطو بشكل مباشر.

1- صور الحجاج في الخطابة العربية

باتباع إستراتيجية لوسم حجاجية الخطابة، يمكننا الانطلاق أولا من صور الحجاج ضمنها، وهي: الاستشهاد، والمثال، والقياس.

1. الاستشهاد:

هو: «نقل أقوال مكتوبة أو شفوية صادرة عن متكلم آخر غير الذي يستشهد ... من أجل إحداث تأثير تصديقي في الحجاج، إن الحجاج يلعب دورا يتمثل في كونه مصدر الحقيقة، الذي ينمّ

[1]- ينظر: عمار بن مزوز، نافذة على فن الخطابة، دط، دار الأمل للطباعة والنشر، المدينة الجديدة، تيزي وزو، دت،ص: 08، ص: 12.

[2]- ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الطبعة الثانية، إفريقيا الشرق، المغرب، سنة:2002، ص: 21 وما بعدها.

عن قول، أو عن تجربة، أو عن معرفة»[1] الاستشهاد بالقول باستحضار كلام طرف ما في الخطاب، أو معناه أما التجربة فتسرد تجربة ما، مرّ بها هذا الطرف، والمعرفة هي عبارة عن خبر علمي صادر عن عالم يستشهد به في الخطاب.

تسمى هذه الأنواع من الحجج بالحجج الجاهزة عند أرسطو، ويخصها بالخطبة القضائية عنده.

أما الخطابة العربية فاستثمرت هذه الحجج في الجاهلية، بالاستشهاد من الشعر، والأقوال المأثورة، وفي الإسلام بالقرآن الكريم، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى الشعر والأمثال طبعا، وهي جميعها حجج تلعب دورا هاما في الإقناع، إذ يصدقها الناس وخاصة إذا استعملت استعمالا دقيقا ومحسوبا، فهي تضيف إلى القوة الإقناعية للخطبة «وقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم، وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية»[2] ، وقد ساق الجاحظ العديد من مثل هذه الأمثلة للاستشهاد في الخطب بالشعر، ومن أشهر الخطب عند العرب خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، فهي تعجّ بالاستشهادات الشعرية والقرآنية، لهذا كان لها من الأثر ما كان، فنجده في خطبة الكوفة يقول:

إذا حاولت في أسد فجورا فإنني لست منك ولست مني

هم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النّسار وهم مجني

ثم قال: بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾[3] .

[1]- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة: أحمد الودرني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، سنة 2009م، ص: 94.

[2]- إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دط، دار المعارف، مصر، سنة 1993م، ص: 198.

[3]- سورة الصافات، الآيات: 171-172-173.

المثال:

يمتلك قوة إقناعية متميزة وهو «حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها»[1] فهو بمثابة الاستقراء في المنطق؛ بمقدمة ونتيجة يقسمه أرسطو إلى مصنّع وتاريخي.

أما المصنّع فهو:

أولا: مثل بالتشابه:

وهو تقديم احتمال وقوع نفس النتيجة للمقدمات المتشابهة مثلا[2].

اختيار القضاة بالقرعة م ــ فاسدين .ن

اختيار ربان السفينة بالقرعة م ــ فاسد .ن

فإن تشابه المقدمات يوصل إلى نفس النتيجة، فيقوم الخطيب باستعمال هذا النمط للإقناع بما يرمي إليه في طرحه.

ثانيا: مثل خرافي:

شخصياته من الحيوانات مثلا، وهذا مشهور في أمثلة العرب، ويتم الاستشهاد به غالبا.

أما المثل التاريخي، فمقدماته مأخوذة من واقع تاريخي.

استعمل العرب الإقناع بالمثل في خطابهم «وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل على صحته، والمثل مقرون بالحجة، ألا ترى أن الله عز وجل لو قال لعباده: أني لا أشرك أحدا من خلائقي في ملكي، لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدل على العلة

[1]- العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 82.

[2]- ينظر: أرسطو، الخطابة، الكتاب 02، الفصل 03، ص: 139.نقلا عن: محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص:82

فيه، ووجه الحكمة في استعماله، فلما قال ﴿**ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[1]، كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه، لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم بل يأنفون من ذلك ويدفعونه، فالله عز وجل أولى بأن يتعالى عن ذلك، وكذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم»[2] لما لها من قوة حجاجية وإقناعية في النفوس، فهي من أهم الأدلة التي يمكن الاعتماد عليها في البناء التركيبي للخطابة، والخطابة العربية تعج بهذا الصنف من الأدلة، نجد مثلا أشهر الخطب، خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي بعد مقتل عبد الله بن الزبير حيث قال: «ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة»[3] مثّل الحجاج قصة ابن الزبير بقصة سيدنا آدم، وخروجه من الجنة بعد المعصية، استعمل الحجّاج هذه الحجج ليهوّن من شأن مقتل ابن الزبير، ويمكن تمثل هذا المثل التاريخي هكذا :

عصيان سيدنا آدم ـ أخرجه الله عز وجل من الجنة.

عصيان عبد الله بن الزبير ـ قتله الحجاج بمعصيته.

[1]- سورة الروم، الآية 28.

[2]- ينظر: ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه القرآن، ص: 118.

[3]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 86.

2.القياس:

يعرف القياس عامة بأنه قول مؤلف من قضايا إذا سلمت بها لزم عنها قول آخر، لكن القياس المنطقي يقوم على الاستنتاج العلمي الصارم، في حين يقوم القياس المضمر، أو الخطابي الذي يعنينا هنا على الرأي والاحتمالات.

وقد قسم أرسطو القياس إلى ثماني وعشرين حالة من البرهنة بالقياس المضمر، وهي الأقيسة الاستدلالية، والأقيسة التنفيذية، ويمكن إيراد نماذج من هذه الأقيسة الخطابية وتلخيصها في:

1- التعارض والتضاد:

قال الحجَّاج زعمتم أنِّي إلى ساحر، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾[1] وقد أفلحت.

لا يفلح الساحر

أفلح الحجَّاج

الحجَّاج ليس بساحر.

2- الأسلوب:

تحتاج الخطابة إلى استنفاذ كل الأدوات التي يمكن لها التأثير في المتلقي وإقناعه، ومن المؤكد أن اللغة هي أهم هذه الأدوات؛ طبعا اللغة الخارجة عن النمطية المعتادة، القصد هنا الجمال الأسلوبي الخاص بكل خطيب أو العدوان على قاعدية اللغة «فالإجراء الأسلوبي يتم بطريقة تجعل القارئ ليس في حلّ من أن يمرّ عليه مرّ الكرام»[2] بل سيشده إليه باختلافه وتمييزه، ولعل هذه من أهم الأدوات

[1]-سورة طه، الآية: 69.

[2]- صلاح فضل، علم الأسلوب،الطبعة الثالثة، النادي الأدبي الثقافي بجدة، سنة 1998م، ص: 248.

التي تدعم حجاجية الخطابة، لأن الخطيب يطوّر أسلوبه وفق ميول المتلقي، ووفق فهمه، بالتالي سيصل إلى إقناعه، عن طريق نمط بناءه الأسلوبي الخاص.

وإذا كان الأسلوب مكوّنا مهما في بلاغة الخطاب اليوناني، فهو المكوّن الأساسي في البلاغة العربية أيضا، فالشكل الأسلوبي نوع من أنواع البرهنة على مضمون الخطاب.

قد تعود هذه الأهمية للأسلوب في الخطابة العربية في وجهة نظر محمد العمري، إلى الأهمية القصوى للشعر عند العرب، وهو المبني على الأسلوب المتين، فهو يؤدي مهاما خطابية عندما يستشهد به الخطيب، أو ينشئه أثناء الخطابة، أيضا اتسام الخطابة بالسمات الشعرية، بخوضها موضوعات الشعر، كالتعزية والشكر والوصف[1]، وإن كان محمد العمري يرى في هذا الشأن أن الخطابة العربية تكاد تكون شعرية، لكون جل الخطباء العرب شعراء، وإن لم يكونوا، فهم من حفظة الشعر، وعليه يختلط أسلوب الخطابة بأسلوب الشعر بالضرورة.

هذه السمة تضاف إلى سمات أخرى يتميز بها كل خطيب عن غيره، وهذا أعظم إبراز لأهمية الأسلوب في البناء الخطابي، بالتالي إبراز دوره الحجاجي، فمن المعروف وضع الشروط والمبادئ من البلاغين والشعراء لضبط الأسلوب، مثلا – لا حصرا- الدعوة إلى الابتعاد عن الإغراب في الخطابة، حيث دعوا إلى مجانبة التكلف لما له من أثر في تقبيح وتهجين الكلام[2] يُسحَبُ هذا على الشعر أيضا – بالطبع- في المقابل فئة أخرى دعت إلى الإغراب وظنّته العامل في نجاعة الخطاب، ومنه ما عرف عن أبي تمام.

هذا الاختلاف الذي طال تصور نوعية الأسلوب الناجحة في شكل الخطاب، ووظيفته ومن ثمة حجاجيته، قد صنّف أنواعا من الأساليب المختلفة، وفق حقبتها الزمنية، ونحن هنا بصدد الحديث عن أسلوب الخطابة العربية، فإننا نلفي الخطباء في الصدر الأول من القرن الأول الهجري «لا يهتمون

[1] – ينظر: العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 99-100.

[2] – تطرقت جلّ كتب النقد العربي القديم لهذه المسألة بالنقاش والتحليل.

بالانزياح الدلالي إلا نادرا»[1] في حين برزت طائفة أخرى في العصر الأموي تهتم بالتصوير، والانزياح منهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وعمر بن سعيد الأشدق، والذين أبرزوا قدرة فائقة في حسن التصوير، وقد كانت الصورة عندهم المادة والشكل، والموضوع والحجة[2] ، فالصورة تقوم مقام الحجة في الخطاب بعد الصورة هل يكون لإيقاع الخطبة أثر في إقناع المتلقي؟ هل يمكن الحديث عن حجاجة البنية الصوتية إضافة إلى حجاجية الصورة؟ بطبيعة الحال الإيقاع في الخطابة هو بالضرورة طرق السجع فيها، وهذا الأخير حاضر في النثر العربي بعرامة، فهو يمثل أهم الظواهر الأسلوبية فيه، وقد أشار النقاد العرب إلى أهميته، وحددوا مكانته، وجعله ابن وهب الكاتب من أوصاف البلاغة، لكن بشرط أن يكون في بعض الكلام لا في جميعه، فهو يشير إلى أهميته، وينزّله منزلة القافية من الشعر «وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه»[3]، ولعل استخدام هذا السجع للإقناع، يظهر في إدعاء النبوات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فيتخذ كل مدّع فواصل قصار مسجوعة متوازنة باعتبار أن «توقيع الكلام وتوازنه يكاد يكون حجة على صدقه»[4].

ومن خصائص الأسلوب في الخطبة أيضا، أن تكون الخطبة غير مطوّلة، فلا حاجة للخطيب إذا رام إقناع جمهوره برأيه أو أطروحته إلى الإسهاب والتطويل في بسط الحجج، وحشد الدلائل والبراهين؛ لأن ذلك يؤدي إلى بلبلة في تركيز المتلقي، وبالتالي يقوم الخطيب بانتقاء واختيار الحجج الأكثر فاعلية في نجاعة خطبته[5]، هنا يشتغل السلم الحجاجي المقترح من طرف العالم اللغوي أوزفالد ديكرو[6].

---

[1]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 103.

[2]- ينظر: محمد العمري، المرجع نفسه، ص: 105.

[3]-ابن وهب الكاتب، البرهان، ص: 165.

[4]-محمد العمري، المرجع السابق، ص: 116.

[5]- ينظر: سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، سنة 2008م، ص: 121-122.

[6] - ينظر: ص: 48، من الفصل الأول لهذا العمل.

فالخطيب عليه أن يعوّل على الأسلوب ليصل إلى أذهان المتلقين، لأن جمالية ومتانة الأسلوب في الخطاب الشفوي من أنجع السبل للوصول إلى الإقناع، وهو ما يمثل تسلسل السلم الحجاجي.

3- الترتيب:

القصد منه تقسيم الخطبة، وترتيب أجزائها وهما حسب أرسطو قسمان : أولاً طرح موضوع، وثانيا إقامة البرهان على ذلك الموضوع، «ويستحيل نتيجة لذلك متى قمنا بعرض الموضوع، ألا نبرهن عليه، أو نبرهن عليه بدون أن نكون قد قمنا على وجه مسبق بعرضه، لأن البرهان يفترض شيئا يبرهن عليه، وكل عرض مسبق ليس له إلا غاية واحدة، وهو إقامة البرهان، ومن هذين القسمين يتعين أن يكون أحدهما مطلوب القضية، والآخر ثباتها تماما كما نميز من ناحية أولى المسألة ومن ثانية البرهان عليها»[1] لعل هذه الخطوات هي الأهم لإقامة الخطبة والحجاج فيها، حسب مذهب أرسطو، فما يهم هنا هو عرض القضية، ومن ثمة البرهنة عليها هذا في العموم، ولعل هذا التقسيم لا يقع إلا في ذهن المستمع، فهو الذي يكشف عن الموضوع وعن حججه، أما الخطيب فيجب أن يكون وظيفيا قد قسم خطبته كما هو معروف إلى مقدمة وعرض وخاتمة، في المقدمة أو الاستهلال، تمهيد لذهن السامع للموضوع، ولها من الأهمية ما يجعل المستمع يعجب، ويميل إلى الخطبة لمجرد سماعها، أو يجعله يسأم، ويعرض عنها، أما العرض وهو ملخص الفكرة التي يعرض إليها الخطيب، ويحوي تمهيدا لعرض الحجج المستعملة للإقناع، ثم الخاتمة هي آخر كلام الخطيب، وأعلقه بالأذهان لذلك عليه تخيّر أسلوبها، وفيها مختصر لقضايا موضوع الخطبة بأسلوب مغاير في أغلب الأحيان، أما بالنسبة للبلاغة العربية وخطابتها فلا يوجد تقنين للنظام الذي ينبغي للخطيب أن يتبعه في ترتيب أجزاء خطبته، إلا كما أشار محمد العمري من إلحاح على الاستهلال الديني[2].

فلا يوجد حرص على «توفر الخطب على نظام معين، تظهر فيه المقدمة والعرض، والخاتمة(...) ذلك لا ينفي اهتمام الخطباء بعرض القضايا مشفوعة بوسائل الإقناع والتأثير المتوفرة لديهم عرضا

[1]– أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص: 222.

[2] – ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 140.

مناسبا، يسمح بالوصول إلى الغرض»[1] ولعل هذا يجعل الخطب العربية متميزة، اختلافا عن غيرها، فمن أوصافها «أن تفتتح بالتحميد والتمجيد وتوشّح بالقرآن، وبالسائر من الأمثال، فإن ذلك ما يزيد الخطب عند مستمعيها وتعظم به الفائدة فيها»[2] هذه المعايير جعلت العرب يصفون ما ينقص منها في الخطب صفات معينة، كأن يطلق على الخطبة التي لا تفتح بذكر الله، البتراء، والتي لا توشّح بالقرآن والأمثال الشوهاء، ومن المؤكد أن الخطب المتوفرة على تلك المعايير أكثر إقناعا وحجاجا من هذه الناقصة في نظرهم، فذلك التصنيف يأخذ بعدا آخر بوصفه الأكثر حجيّة.

ولعلنا بالتركيز على بلاغة الإقناع في الخطابة العربية، نجد أنفسنا ملزمين بتخصيص فضاء لبلاغة الخطابة عند الجاحظ، «فقد قُرِنَ هذا التيار غالبا بالجاحظ، الذي عدّ مؤسسه، ومحكم خصائصه»[3]، اشتغال الجاحظ بهذا السبيل له مبرراته، إذ ينطلق الرجل في دراسته البلاغية مُنطَلَقًا مذهبيا، فقد كان منخرطا في نحلة تعتبر أنّ اللغة والبلاغة هما سلاح المناظرين والمتجادلين، وَوَلَهُ الجاحظ: «بأئمة الحجة والكلام دفعاه إلى ربط البلاغة بأهداف إقناعية»[4] وأكثر ما يتوضح هذا المذهب في اهتمام الجاحظ بوظيفتي الإفهام، والإقناع في القول، ثم من خلال تركيزه على عنصري المقام، والمتلقي.

وقد أولى الجاحظ بالغ الاهتمام للخطاب الشفوي، لتوفر السمات الحاملة لبلاغة الإقناع فيه أكثر من أي خطاب آخر، ولأنه كذلك؛ إضافة إلى أنه القناة الأولى والأساسية للاتصال الأدبي عند العرب جعل الجاحظ يركز على وسيلتين بيانيتين مميزتين لهذا الخطاب هما: الصوت والإشارة، فقام بتحديد مقومات جودة الصوت، من سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وإقامة الوزن، وقد جمع الجاحظ هذه المسائل عندما تكلم عن واصل بن عطاء، حيث قال: «ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذا كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج

[1]-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، ص: 141.

[2]- ابن وهب الكاتب، البرهان، ص: 153.

[3]- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، سنة 2013م، ص: 61.

[4]- عبد اللطيف عادل، المرجع نفسه، ص: 61.

على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لابدّ له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال وأن البيان يحتاج إلى تميز، وسياسة وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الأدلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزيّن به المعاني (...) ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة- رام أبو حذيفة- إسقاط الراء من كلامه»[1]، وقد أثنى الجاحظ على هذا من واصل، وفي إشارة منه إلى أن الرجل لم يقدم خطبته لأجل الصنعة الفنية، ولا القدرة غير المسبوقة في إسقاط حرف من الحروف في كل خطبة، بل وإنما «لمحاجة الأكفاء ومفاوضة الأفواه»[2] مرجع الأمر إذا إلى حجاجية الخطبة.

تتوقف هذه الحجاجية على كل العناصر التي قدمها الجاحظ، فهو عندما يقول إن حاجة المنطقي إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، إشارة إلى ضرورة تعاضد كل هذا العناصر، لأجل إنشاء خطبة تحاجج الأكفاء على حدّ تعبيره، كذلك في حدّه للبلاغة يقحم الحجاج، فالبلاغة عنده «البصر بالحجة ومعرفة مواضع الفرصة(...) ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها عن الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة»[3]. وقال «جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التمس من المعاني أو غمض»[4] في إشارة إلى محتوى القول وشكله، ومقامه، وكلها عناصر ذات أهمية في العملية التواصلية، غير أن البصر بالحجة هنا أخذ مسرى آخر غير إتمام عناصر العملية التواصلية، وهو مسرى الاستدلال البلاغي، أي مسعى الإقناع، فبلاغة الجاحظ إن كانت كما تم التفصيل فيها في معظم الدراسات مختصرة في مفهوم البيان الذي يتنازعه مفهومان هما البيان ومعرفة الوظيفة الفهمية، والبيان إقناع (الوظيفة الإقناعية)، فعملية البيان لا

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 14-15.
[2]- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، ص: 15.
[3]- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، ص: 88.
[4]- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، ص: 88.

تتم إلا بهاتين «لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[1] هذا مرتبط بوظيفة اللغة الأساسية وهي وظيفة التواصل، وهذا كإطار لمفهوم البيان لكن الشيء الأهم هو موضوع الإقناع.

يمكن رصد الالتفات إلى بلاغة الخطاب الإقناعي عند الجاحظ منذ بدايته، أي في صفحاته الأولى، حيث تلفيه يختصر الكلام عن الدور الإقناعي للكلام، وما يتصل به من عناصر إقناعية، ما يلخص الجانب الإقناعي الذي مال إليه الجاحظ «ممتدا بين قطبي الاستمالة، والاضطرار مع تداخل هذين المستويين، خاصة في الوسائل المؤدية إليهما»[2] وهي كل ما تناقلته كتب النقد، ومما ذكر الجاحظ من أغراض ينجزها الخطاب، متى سلم صاحبه من العيّ والحُبسة، وتوقف اللسان، وضيق الصدر، ومتى وفرّ لقوله مقومات الإبلاغ والصحة، والإيضاح والحجة، والترتيب ولعل هذا ما جعلنا نخصّ الجاحظ بالذكر في مقام الخطابة؛ لأنه أكثر من رصد هذه القضايا، إضافة إلى دور المقام طبعا الذي ذكره الجاحظ أيضا «فالمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَضِعُ بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[3]، فيحدد موضع الإيجاز وموضع الإطالة، بصورة تجعل بناء الخطاب متناسقا مع عرضه، وهو من محققات الإقناع .

تُمسَح هذه الخصائص بشكل أعمّ على كل الأشكال الأدبية، وإلى جانب الخطابة برز نوع أدبي قريب جدا منها من حيث الشكل، وهو المناظرة.

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 76.

[2] – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 1999، ص: 199.

[3]- الجاحظ، المصدر السابق، ص: 136.

3 . 2- حجاجية المناظرة:

تتبوأ المناظرة مكانة مهمة في التراث العربي، فهي بقيمتها المركزية في الثقافة العربية، تمثل إسهاما رئيسيا في التنظير لطرائق الحجاج في التراث.

3 . 2 . 1- المناظرة لغة:

«التناظر: التراوض في الأمر، ونظرك الذي يراوضك، وتناظره وناظره في المناظرة، والنظير المثل وقيل المثل في كل شيء، وفلان نظيرك أي مثلك، لأنه إذا نظر إليها الناظر رآهما سواء ... ويقال ناظرت فلانا، أي صرت نظيرا له في المخاطبة.»[1]

توصف المناظرة في هذا التعريف اللغوي بشرط الندّية، والمثلية، ووصلها بالمخاطبة يجعلها فعالية تخاطبية تحاورية.

3 . 2 . 2- المناظرة اصطلاحا:

ربطت بالجدل عند عبد الرحمان ابن خلدون[2] «وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة... فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابا، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت، ولخصمه الكلام والاستدلال»[3]، لم يترك ابن خلدون مسافة بين الجدل والمناظرة في

[1]- ابن منظور، لسان العرب، جذع نظر، المجلد الخامس، ص: 4467-4468.

[2]- عبد الرحمن ابن محمد ابن خلدون، ولد في تونس سنة 732هـ، قرأ على والده وحفظ القرآن، كما تتلمذ على يد أكابر علماء عصره، اشتغل كاتبا في ديوان سلطان تونس، كما شغل مناصب كثيرة على عهد بني مرين، من مؤلفاته "المقدمة" ، توفي سنة:808هـ بالقاهرة، ينظر: ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، سنة:1961، ص:42-96.

[3]- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 1993م، ص: 362.

حده هذا، ما جعل المناظرة عنده حجاجية بامتياز؛ فإضافة إلى كونها إبداع لطرائق خطابية، هي أيضا إبداع لتقنيات منطقية، ولعلنا نستشف الفرق بين الجدل والمناظرة من خلال هذه النقطة، أن تختص المناظرة بخصائص خطابية معينة لها صلة بالبيئة التي ظهرت فيها المناظرة، حيث كان «الوعي المبكر لعلماء الإسلام، بأن الحق لا سبيل إلى اقتناصه بغير اجتماع العقلاء على طلبه»[1] هذا هو الركن الأخلاقي للمناظرة فهي تخضع لضوابط خلقية معينة، كما تضبط بضوابط منطقية، وهي التي تشترك فيها مع الجدل، وهي مسائل متعلقة بالمعترض، والمدعي ليكون الفرق بين المناظرة والجدل في الهدف؛ فهدف المناظرة «الكشف عن الحقيقة أو الصواب، وهدف الجدل التغلب على الخصم»[2] والجامع بينهما بالتأكيد هو الصفة الحجاجية، إذ يقومان على القبول والاعتراض، والاستدلال والجواب، وهذه المسائل تتعلق بهما معا.

فالمناظرة إذا ممارسة حوارية تقوم بين متخاطبين عبر مسار حجاجي معين، تختلف عن الخطابة في كونها «تسائل جحود المخاطب، الذي يفترض فيه أن يكون ملما بالموضوع عالما به، ولكنه منكر لموقف مناظره بخصوصه»[3]، فتكون المناظرة هنا، خطابة الخاصة، لأن جمهورها يقتصر على جملة من المفكرين، والعلماء، وهي أكثر شحنا للصفة الحجاجية من الخطابة.

3 . 2 .3- الاشتغال الحجاجي في المناظرة:

المناظرة حسب طه عبد الرحمان صورة للحجاج الفلسفي التداولي، باعتباره فعالية استدلالية خطابية، مبناها على عرض رأي أو الاعتراض عليه، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض، أو ببطلان الرأي المعترض عليه[4] ما يعطي طابع المفاعلة؛ إذا يفاعل بين عارض، ومعترض، يتوجه كل

[1]- رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة، من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار،الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، سنة 2010م، ص: 86.

[2]- محمد حسن عبد الله، المنهج وأدب الحوار في المناظرة، السيرافي، ومتى، مجلة البيان، العدد: 388، الكويت، مارس 2001م، ص: 35.

[3]- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 150.

[4]- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص: 66.

منهما بآليات إقناعية «وكل خطاب استدلالي يقوم على (المقابلة والمفاعلة) يسمى مناظرة»[1] وإذا لاحظنا تداولية المناظرة يذهب العارض تحت مسمى الإدعاء، بالرجوع إلى مسميات أفعال الكلام (فعل الإدعاء)، ومن شروطه حسب طه عبد الرحمان، أن المدعي يعتقد بصدق ما يدعي، وقد رمز الدكتور لهذه الحالة بـ: عد (مد، ب) صد (مد . ب).

حيث تمثل عد: ادعى، مد: مدع، ب: قضية، صد: صدق.

أما الشرط الثاني وهو مطالبة المدعي المانع أو المعترض، بتصديق هذه الدعوى، رمزيا كالآتي: يسمى طه عبد الرحمان المانع هنا المخاطب، ويرمز له: خ فيكون ما يلي: (عد (مد.ب)⟵صد (خ،صد، (مد.ب) وهنا تتجلى الصفة الحجاجية في المناظرة، إذ يهفو المدعي إلى إقناع المعترض بطرحه في موضوع المناظرة.

ثالث الشروط وهو بمثابة اللوغوس في الخطاب وهو الحجج، إذ يلزم المدعي بالبيّنات، والجمع ليقنع بما ادعى، وقد رمز له طه عبد الرحمان بـ

عد (مد.ب) ⟵ بو ∇ عد (مد ، بو) △ حج (بو، ب)]

حيث ∇يوجد على الأقل، بو مجموعة من القضايا.

حج: حجة، △(واو العطف)

رابع الشروط وهو ضرورة استحضار هذه البيّنات، أو الحجج، فللمخاطب حق المطالبة بهذه البيّنات وتقويمها.

عد (مد، ب) ⟵ قو (خ بو [عد، (مد، بو) △حج (بو، ب)]

الشرط الخامس وهو أن يكون منطوق الإدعاء صادق، يعني ما ينطق به الإدعاء، أما مفهومه فهو قابل للتكذيب، هذا يفتح أفق حوارٍ ثنائي الأبعاد في المناظرة، إذ ينشأ نوع من الحوارية عند

[1]- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص: 66.

المدعي نفسه بتحقيق الشرط الخامس، وهو تسليمه أولا أن إدعاءه صحيح، وثانيا أنه معرض للتفنيد، هذا حوار ذاتي بدور في نفس المدعي.

أما الحوار العام فيعدّ خاصية مباشرة للمناظرة، إذ تتحدد المناظرة بوصفها فعالية حوارية، أساسها التداول حول قضايا خلافية، ويتخذ الحوار «صيغة المواجهة الإقتناعية المباشرة؛ إذ تتدخل فيه ذاتان متقابلتان ضمن مشهد تخاطبي فعلي»[1] وما يثبت حوارية المناظرة الإسلامية قيامها على نظام الأسئلة والأجوبة التي تستدعي حوارا واضحا، إذ يبادر المعترض بطرح إشكال ويجيب المدعي، أو قد يحدث العكس، وهذا شهير وواضح في المناظرة قديمها وحديثها، مثلا نجد في مناظرةٍ لأبي سعيد السيرافي[2]، ومتى بن يونس، يبادر أحدهما الآخر بالسؤال مثلا يقول السيرافي: «حدثني عن المنطق ماذا تعني به؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه، ورد خطئه على سنن مرضيّ وطريقة معروفة»[3] هذا السؤال إيذان ببداية النقاش وبناء المناظرة، وقد أجابه متى: «أعني به أنه آلة من آلات الكلام، يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه كالميزان، فإني أعرف به الرجحان من النقصان، والشائل من الجانح»[4]، قدّم متى مفهوم المنطق عنده، مختصرا الكلام فيه حاصرا إياه في تقنية من تقنيات الكلام، التي تقيس صحيحه من سقيمه، هذا المسلك استدعى ردا ونقاشا مثيرا لمفهوم المنطق، ولعل هذا يمثل دور السؤال في بناء الهيكل الإفادي للمناظرة، حيث ردّ أبو سعيد قائلا: «أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف، والإعراب المعروف، إذ كنا نتكلم بالعربية، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقل»[5] وطوّر

[1]– عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 183.

[2] – أبو سعيد، الحسن بن عبد الله بن المرزبان، تصدّر لإقراء القراءات والنحو، واللغة، والعروض، والفقه، والحساب، أخذ اللغة عن ابن دريد، والنحو عن ابن الشراح، توفيّ رجب 368، ينظر: شذرات الذهب، المجلد الرابع، ص: 367،368.

[3] – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، شرح: صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، سنة 2002م، ص: 114.

[4]– أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ص: 114.

[5]– أبو حيان التوحيدي ، المصدر نفسه، ص: 114.

النقاش انطلاقا من كلام متّى مستأنسا بحجج تقوي طرحه وخطابه قال: «وهبْك عرفت الراجح من الناقص، من طريق الوزن، فمن لك بمعرفة الموزون إنما هو حديد أو ذهب أو شبه»[1]، وهذه أسئلة أخرى ستفتح فيما يستهل من المناظرة أفاقا أخرى للنقاش، بردّ متّى، وإشكالات أخرى طبعا سيتم طرحها كلما طالت المناظرة، وقد سارت المناظرة في التراث الإسلامي على هذا النسق الذي يعضد القوة الحجاجية ببنية المناظرة؛ حيث نجد المناظرات المتأخرة عن المناظرة الفائتة، تبنى على طرح الأسئلة، من ذلك المناظرات الشهيرة للشيخ ابن تيمية[2] يمكن الاستئناس بمثال من أشهر مناظراته مع الشيخ أحمد بن عطاء السكندري[3] ابتدأت المناظرة بسؤال استفزازي -إن صحّ التعبير- نُسِجَت المناظرة من خلاله.

قال ابن عطاء، ماذا تعرف عني يا شيخ ابن تيمية؟ قال: أعرف عنك الورع، وغزارة العلم (...) فماذا تعرف عني أنت؟ هل تدعي عليّ بالضلال، إذ أنكر استغاثة غير الله»[4] يمكن القول أن هذا السؤال هو فاتحة كل النقاش الذي أسس المناظرة، إذ بالإجابة عنه فُتقت مواضع خلاف أخرى، اختلف فيها الفقيهان، تمت المناظرة بطرح كل منهما حججه وأرائه، فللسؤال إذا مركزية مهمة في بناء المناظرة، وبدونه تكون خارج النقاش على حدّ تعبير ميشال مابير[5].

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ص: 114.

[2] - ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، من كبار أئمة الدين، ولد في العاشر من ربيع الأول سنة:661هـ، تولى الإفتاء وهو ابن اثنتي وعشرين عاما من عمره، عقدت له المجالس والمناظرات مع العلماء والفقهاء الذين اختلف معهم، فاشتهر بمناظراته وحضور حافظته وقوة حجته، تعمق في دراسة المذاهب الإسلامية، من مؤلفاته "رفع الملام عن الأئمة الأعلام". ينظر: سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، دت، ص:115 وما بعدها.

[3] - أبو الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم، كان أعجوبة زمانه في التصوف، تتلمذ على الإمام أبي العباس المرسي، من مؤلفاته: الحكم العطائية، وتاج العروس، توفيّ سنة:709هـ. ينظر:سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره، ص: 125.

[4]- سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره، ص: 12.

[5]- Michel meyer.pur une anthropologie rhetrique.p128 ، نقلا عن: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 207.

لذلك تستهل معظم المناظرات به، وفي جمهرة المناظرات التي جمعها السكوني[1]، يتأكد هذا الطرح إذ تفتح المناظرة بالسؤال؛ وطبيعة السؤال هنا ليست استعلامية لأن المناظر يخمن جواب مناظره ولكنها تقريرية، والتقرير يكون سؤالا عما تعلمه ليقرّ لك به[2]؛ والقصد منه عموما فتح العرض، وشحذ النقاش.

إضافة إلى فنية السؤال والجواب فنية أخرى تبني الحوار وهي أدوار الكلام، والمقصود منه تناوب المتناظرين على الكلام، كل بدوره، هذا الغرض يجعل المناظرة تسير على نسق معين يجعل نمط بنائها منطقيا، حين يقوم طرف المناظرة الأول (المدّعي) بطرح قضية وسرد أدلتها، ويقوم الطرف الثاني (المعترض) بمنع دعوى المدعي، بسرده هو الآخر لأدلة تمنع تلك الدعوة، طبعا تتفرع أدلته بين أدلة تنقض القضية، وأدلة تنقض أدلة المدعي التي عرضها لإثبات قضيته، هذا ما يصطلح عليه بالمنع، وهو ما جعل صورة المقاربة التنسيقية للمناظرة، والتي تستحضر بقيام هذه المحاورة، والمناوبة بين المعترض والمدعي أكثر وضوحا، توضح هذه التنسيقية في المناظرة المنقولة إلينا كتابيا -وجلّها في كتب التراث- من خلال الفعل قال، فنلفي ناقل المناظرات إلينا يوضح انتقال أدوار الكلام من خلال الفعل: قال، أو ردّ مثلا، بينما ومع التطور الحاصل اليوم، وتوفر السمعي البصري تنقل إلينا المناظرات، ونلاحظ انتقال أدوار الكلام من خلال الفترة الزمنية المخصصة لكل مناظر، نجد مثلا مناظرات الشيخ أحمد ديدات[3] مع القديسين المسيحيين منقولة إلينا، ونلاحظ انتقال أدوار الكلام، وسرد القضايا والحجج بينه وبين مناظره.

هذا الانتقال يجسد الصفة الحجاجية للمناظرة، ذلك لأن هذه الأدوار تحدد الاختلاف، وهي تثبت أن المتداخلين مشدودان ومعنيان بما يجري، إنهما على حدّ تعبير ميشال مايير «ليسا غير آهين»

[1] – أبو علي عمر السكوني ، عيون المناظرات، تحقيق: سعد العزاب، دط، منشورات الجامعة التونسية، سنة: 1976.

[2]– ينظر: ابن وهب الكاتب، البرهان، ص: 94.

[3] – داعية إسلامي من جنوب أفريقيا من أصل هندي ، اشتهر في العالم الإسلامي والغربي من خلال منهجه المتفرد في الدعوة وهو منهج المناظرة والجدل والحوار على مشهد من الحشود الجماهيرية، ينظر: أحمد ديدات بين الأنجيل والقرآن، دط، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلية، الجزائر، سنة: 2005، ص: 7.

«ils ne sont pas indifferent [1]» بل يحاول كل واحد منهما، أن يشتغل مساحته لنشر كل ما أوتي من حجج ليتفوق على مناظره، إذ يجعل هذا التناوب المناظرات كتلة حجاجية، تتراص بالاستدلالات المختلفة المطروحة من الطرفين وتؤشر على التواتر العالي، وبلوغ المناظرة مرحلة الاحتدام، والاختلاف وهذا الأخير هو أصل منشأ للحجاج.

وقد يحصل أن يتم خرق قانون التناوب في الأدوار بقصد الإفحام، قد يتخذ هذا الخرق أشكالا منها: 1- صمت أحد المتناظرين، يحصل هذا عندما يعجز أحدهما عن الحجة، وقد حصل هذا في المناظرة الشهيرة بين السيرافي و متّى، عندما سأل السيرافي أبا بشر في معرض حديثهما عن علاقة اللفظ بالمعنى، حيث قال السيرافي: «ماذا تقول في قول القائل: «زيد أفضل الإخوة»، قال: صحيح قال: فما تقول إن قال، «زيد أفضل إخوته»، قال صحيح، قال فما الفرق بينهما (مع الصحة)، فبلج، وجنح، وغصّ بِريقه».[2]

من خلال توزيع أدوار المناظرة، يفترض أن يكون الدور لمتى، لكن بِصمته وعجزه عن الرد، أخذ السيرافي الدور، وواصل في سرد حججه، قد تكون هذه الحالة تعبيرا عن الاستسلام، والاقتناع بحجج الخصم، فترجح الكفة للمتواصل في المقارعة.

2- قطع كلام أحد المتناظرين: يلجأ المناظر إلى قطع كلام خصمه لتشتيت أفكاره، وفي مناظرة السيرافي ومتى الكثير من هذا، وإن كان ما يظهر أنّ السيرافي إذ استبد بالكلام، فلقوة حججه وطول حجاجه، فبالمقارنة مع كلام متى يلحظ الفرق في طريقه الطرح، وما يظهر من قطع الكلام المقصود هنا أن السيرافي وبعد احتدام المناظرة بينهما حول أولوية اليونان وفضلهم، وتقديمهم، لا يعطي الفرصة لمتى لالتقاط أنفاسه، فيسرد حججه ردا عليه، ويمطره بطرح إشكالات أخرى، فبعد الحديث عن انبهار متى باليونان وعلومهم، وقوله أنهم أمة كباقي الأمم تصيب وتخطئ، وتعلم أشياء، وتجهل

[1]-Mechel, meyer, les fondements de l'argumention dans argumentation et questionnement, sous la direction de corinne hoogaert, paris presses universitaires en France, 1996.p17.

[2] - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص: 122.

أخرى، ويسترسل حتى يقول «وها هنا مسألة تقول أن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة قال: نعم قال وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكتشافات قال بالطبيعة، قال كيف يجوز أن يكون هاهنا شيء يرتفع به هذا الاختلاف الطبيعي، والتفاوت الأصلي، قال متى هذا قد مرّ في جملة كلامك آنفا، قال أبو سعيد: فهل وصلته بجواب قاطع، وبيان ناصع، ودع هذا، أسألك عن حرف واحد وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه، متميزة عند أصل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطا طاليس، الذي تدل به، وتباهي بتفخيمه، وهو (الواو)، ما أحكامه، وكيف مواقعه؟...فبهت متى»[1] وحتى وإن ردّ عليه في هذه المسألة، فإن السيرافي باستعماله أسلوب قطع الكلام تارة، وأساليب أخرى تارة أخرى استطاع إفحام متّى.

3- إنشباك الكلام: وهو يشبه نمط قطع الكلام، لكن بطريقة إستراتيجية، لقلب موازين الإقناع حيث يقوم المحاور بالانخراط في كلام خصمه، «إذ يتصيد فيه أحد المتناظرين المدخل المناسب في كلام الآخر لبسط إدعائه، أو إعلان اعتراضه»[2]، مما يزيد من قوة حججه ومقارعته، وتشتيت ذهن خصمه بطبيعة الحال، وقد يحصل أن يتجلى الإنشباك في تدخل طرف ثالث، بتدخله يزيد حجاجية طرف على حساب حجاجية الآخر، حصل ذلك في مناظرة متى والسيرافي، حيث تدخل الوزير ابن الفرات في مواضع منها «يا أبا بشر أكان هذا في نحوك؟»[3] وتوجه بالكلام للسيرافي أيضا، والواضح انحيازه له، حيث قال» تمم لنا كلامك في شرح المسألة، حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس والتبكيت عاملا في نفس أبي بشر»[4] لعل انحياز الوزير أثناء إنشباكه في المناظرة بين بشر، والسيرافي جعل السيرافي أكثر حظوة في الهجوم الإقناعي، وأكثر تمكنا من متّى إذ إن للسلطان هيبته.

[1]- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص:117-118.

[2]- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص:192.

[3]-أبو حيان التوحيدي، المصدر السابق، ص:122.

[4]- أبو حيان التوحيدي ، المصدر السابق، ص:123.

4- الاستبداد بالكلام: إن الاحتفاظ بدور الكلام لمدة أطول كما سبقت الإشارة، هو من دواعي تفوق المناظر على خصمه، ومن طرقه الاستبداد بالكلام، فهو آلية مهمة للإقناع، وفي مناظرة السيرافي ومتى، يُلحظ سيطرة السيرافي على أكبر وقت في الكلام، باستطرادات، وحجج تجعل مساحته أطول من مساحة متى، وقد يتمظهر هذا الاستبداد من خلال تحكم أحد المتناظرين في فتح وإغلاق الحوار، وقد يظهر أن فاتح الخطاب هو من يستبد بالكلام، بالتالي هو من سيمسك ناصية المناظرة، ويلجم خصمه، كما حصل في مناظرة السيرافي، إلّا أنّ هذا لا يعمم، فنلاحظ مناظرات ابن تيمية، تفوق مناظرات خصمه من حيث الحجج، مع أنه ليس مفتتح الحوار، لكن الملاحظ أن تدخله أطول، ففي مناظرة شهيرة له مع ابن المطهر، ابتدأ ابن المطهر الحوار بقوله «الإمامة هي أهم المطالب في أحكام الدين »[1] في كلام مقتضب، واستشهاد بحديث للنبي صلى الله عليه وسلم، يرد ابن تيمية بقوله: «إن الإمامة أهم المطالب، كذب بالإجماع، إذ الإيمان أهم»[2] ويقوم بتحليل طرح ابن المطهر وتفنيده بالاستدلالات والحجج، ففي رده عن الحديث المستشهد به في طرح ابن المطهر قال «من روى هذا؟ وأين إسناده؟ بل والله ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم هكذا»[3]، وفي كل تدخلاته التي تلي يأخذ المساحة الأكبر في الكلام، ما يزيد من حجته ويقوي قدرته على الإقناع.

وفق الحالات السابقة وباختلافاتها، يسير بناء المناظرة بطريقة ديناميكية، في دائرة حوارية تتوسع، وتنغلق، كما يحصل في أي تفاعل حواري، وحسب جاك موشلر فإن «الإغلاق يتحقق بحصول الاتفاق accord « أما التوسع بالمفاوضة négociation»[4]، ولعل التوسع هو بمعنى تأجج الاختلاف بين المتناظرين، كلما استمر هذا الاختلاف توسعت دائرة الحوار، والعكس هو الصحيح «فكلما تكون الأطراف المتحاورة متفقة، لا يبقى هناك ما يقال، ولكن عندما يكون هناك اختلاف

[1]- سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية، ص:22

[2] - سيد الجميلي، المرجع نفسه، ص:22

[3]- سيد الجميلي، المرجع نفسه، ص:22.

[4]-Jacques moeschler, argumentiation et conversation .o p. cit. p152 .

فالمناقشة تبقى سارية، وممكنة»[1] تأتي تدخلات كل طرف مشحونة بالاختلافات والتناقضات، لتبنى المناظرة على حجج، وحجج مضادة، ولا تفتأ تتوسع على هذا المنوال.

أما الغلق، فبعد طوال الجدال في موضوع المناظرة، وطرح كل طرف وجهة نظره، واستدلالاته ونقضه، واعتراضه، حتما ستصل المناظرة إلى نهايتها، سواء بوصول المتناظرين إلى نوع من التسوية، أو كما في جل المناظرات في التراث الإسلامي، التي يتم إغلاقها ببلوغ أحد المتناظرين إقناع خصمه والجمهور «لتؤول المناظرة إلى «إلزام المانع» أو «إفحام المدعى»[2] حيث يتم إلزام المانع عندما يظهر عجزه عن متابعة اعتراضاته لدعاوى المدّعي، أي عندما يتوقف عن نقض الدعاوى، وطرح الحجج المناقضة، ويتم إفحام المدعي، إذا عجز عن استحضار الأدلة المقوّمة لادعاءاته.

حدوث وضعية من الوضعيتين السابقتين، تؤدي إلى انقطاع المحاورة بتفوق أحد الطرفين.

ذكر عبد اللطيف عادل ملخصا للباحثة «أوريكسوني لصور الانقطاع»[3] التي يمكن أن تحصل في المناظرة .

1-السكوت،2-العجز، 3-الإفحام، 4-الانقطاع، 5-البهت، 6-افتقاد الجواب، 7-سقوط الاستدلال.

عبر كل هذه الحالات من تبادل لأدوار الكلام، تتشكل البنية الشاملة للمناظرة، مكونة من مختلف الأساليب، وبما أن للمناظرة طبيعة جدلية فإنها تستدعي إضافة إلى الاستفهام آليات أخرى تغذي صفتها في النقض، ولعل أكثر ما يوائم خصائص المناظرة من ادعاء واعتراض، آلية النفي التي

[1]- Jacques moeschler, argumentiation et conversation, p15

[2] – ينظر: طه عبد الرحمان، في أصول الحوار، ص: 78.

[3] – عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع، ص:198.

تمتلك صفات تُذْكي تطور المناظرة وتجعله أكثر تسارعا، وما يؤدي النفي في العربية أدوات منها: «ما، لم، لن، ليس»[1] . ولعل أكثر صيغ النفي تكرارا في العربية (ليس ولم) .

– لم–لا: في قول ابن تيمية ردا على ابن المطهر، وقولك «إن الإمامة أحد أركان الدين، جهل وبهتان، فإن النبي صلى الله عليه وسلم، فسر الإيمان وشعبه، ولم يذكر الإمامة في أركانه، ولا جاء ذلك في القرآن»[2]، وقول ابن المطهر ردا على ابن تيمية «أهل السنة لم يلتفتوا إلى القول بالرأي والاجتهاد، وحرموا القياس»[3] نفي عن أهل السنة ميولهم للاجتهاد.

– ليس: قول ابن سعيد: «وليس واضع المنطق يونان بأسرها»[4]

– ما: قول ابن عطاء مناظرا ابن تيمية « ما كل الصوفية يلبسون الخرق، وهأنذا أمامك فما تنكر من هيئتي؟»[5]

نلفي هذه الأدوات موزّعة على البنية العامة للمناظرة، مغذية لها، إذ يستعمل في المواجهة الاقتناعية لقلب اعتقاد الخصم[6]، وهو يمثل نوعا من الاعتراض المكوّن للحوارية في المناظرة، يبنى ذلك بنفي المعترض طرح العارض، ورصد حجج تكون أكثر قوة من حججه، على أن تكون تابعة لتدليل حجج العارض، ومعاكسة طبعا في قوتها الحججية قول المعترض[7]؛ «القصد هنا أن تكون حجج المعترض من نفس معدن حجج العارض، تختلف فقط في كونها عكس الأولى، وإن يكن في حقيقة الأمر، أن سيرورة المناظرة كلها ابتداء من أول اعتراض تخضع لقانون النفي، وإلّا كيف تكون مناظرة، أي إن مجرد رفض طرح المدّعي هو بطبيعة الحال نفي ضمني، حتى وإن لم تستخدم صيغ النفي

[1]– أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية، مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، مطابع منشورات عكاظ الرباط، سنة: 1993، ص:80.

[2]– سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية، ص22.

[3]– سيد الجميلي، المرجع نفسه، ص25.

[4]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص:117.

[5]– ينظر، عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص224.

[6]– سيد الجميلي، المرجع السابق، ص16.

[7]– ينظر: طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص44.

المذكورة، فعندما يسأل أبو سعيد متى عن المنطق ويجيبه متى: «أعني به أنه آلة من آلات الكلام»[1] ويرد أبو سعيد بجملة: «أخطأت» هي ضمنيا نفي لطرح متى، كما تستعمل صيغ النفي أيضا، ففي نفس المناظرة، وفي موضع آخر، عندما يتحاوران حول اللغة وأنها كانت مختلفة بين الشعوب، فإن المنطلق واحد حسب متى، «والناس في المعقولات سواء»[2] يرد السيرافي نافيا هذا الطرح وحججه، «لو كانت المطلوبات بالعقل، والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة، وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البيّنة في أربعة وأربعة وأنهما ثمانية، زال الاختلاف وحضر الاتفاق، ولكن ليس الأمر هكذا»[3] هذا النفي لطرح متى سيعقبه نفي لحججه، أيضا.

الشاهد: سبقت الإشارة إلى مركزية الشاهد في بناء الحجاج، ولعله يتميز في المناظرة بارتباطه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والشعر، والأمثال والحكم، مع التركيز على القرآن الكريم، والشعر تسمى هذه الوسائل عند أرسطو «الحجج الجاهزة أو غير الصناعية»[4]وإذا رتبنا هذه الحجج، في سلم سلم الحجاج المقترح من طرف أوزفالد ديكرو، نجد الشاهد القرآني أعلى مراتب السلم يليه الشعر وثم الأمثال والحكم، وإن استعمال الشاهد القرآني في المناظرة العربية أكثر حضورا في المناظرات الدينية العقدية، كما لا يستغني عنه في غيرها من المناظرات، إذ نجده في مناظرة متى والسيرافي حاضرا، وهي مناظرة علمية، حيث نجد أبا سعيد السيرافي، وهو يوضح وجوده ومواضع الواو في العربية، يستشهد بالقرآن الكريم فيقول «ومنها معنى الحال، في قوله تعالى ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾[5] ويسوق أثناء بسطه لمواقع الواو وأمثلة في كل موضع.

إن استعمال الشاهد القرآني كما سبق الذكر في أعلى مراتب الحجاج، فهو كلام الله الحجة القاطعة، ويوجه المناظر إلى التبكيت وإفحام الخصم، إذا أجاد استخدام هذه الحجج، وأدرك موضع

[1]- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص114.

[2]- التوحيدي، المصدر نفسه، ص115.

[3]- التوحيدي، المصدر نفسه، ص115.

[4]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص90.

[5]- سورة آل عمران، الآية 46.

وزمن استخدامها خاصة في القضايا المصيرية، فنجد سيدنا أبا بكر، حين اختلف الصحابة الكرام عندما تناقلوا نبأ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واحتدمت الأمور بينهم، ذكر قول الله تعالى﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[1] وهو هنا قد استعمل الحجة القاطعة لوضع حدٍّ للخلاف الذي وقع بين الصحابة.

وكما للشواهد القرآنية مكانة في إفحام الخصوم المتناظرين، فللشاهد الشعري مكانة مهمة أيضا، باعتباره صاحب سلطة كبيرة في الثقافة العربية، بالإضافة إلى ما تضيفه الشواهد الشعرية من تغطية إقناعية، تضيف جمالية خاصة، وتلطيفا لجو المناظرة، وللشعر لغته العذبة التي تزيّن المجالس، ومن أمثلة الاستشهاد بالشعر في مناظرة السيرافي ومتّى، قول الأخير[2] «...فعلى هذا لم ينفك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك إلا نفعا يسيرا من وجه واحد، وبقيت عليه وجوه فأنت كما قال الأول[3]، حفظت شيئا، وغابت عنك أشياء » .

وعند تفصيله في حالات الواو، ومواضعه، لم يستغن السيرافي عن الاستشهاد بالشعر، ومنها أن تكون أصيلة في الاسم (...)ومنها أن تكون مقحمة(...) ومثله قول الشاعر[4]:

فلما أجرنا ساحة الحي وانتحى

---

[1]- سورة آل عمران ، الآية:144.

[2]- ينظر: أبو علي عمر السكوني ، عيون المناظرات، تحقيق: سعد العزاب، ص:157.

[3]- يريد بالأول أبا نواس، في قصيدته ومطلعها:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

وتتمة بيته المستشهد به، فقل لمن يدعي في العلم فلسفة ، ينظر: ديوان أبو نواس، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص:27.

[4]- الصدر لامرئ القيس، وتتمته: فلما أجرنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

ينظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، دار الكتاب العربي، بيروت 2005، ص:28.

والقصد من استعمال هذه الحجج هنا تقوية وتأكيد المعرفة، ومن المؤكد أن أبا سعيد يتفوق على متّى في علم النحو العربي، وفي حفظه لمتون الشعر، لذلك استخدمها كحجج تُفحم خصمه فلا يجد بعدها حججًا معارضة.

3 .3– الحجاج والشعر: الملاحظ أن جلّ الدراسات المتناولة لمسألة الحجاج والشعر، تستهل دراستها بنفس الطرح، وهو الاختلاف حول مسألة وجود علاقة بين الشعر والحجاج، فمن الباحثين من نفى وجود علاقة بينهما وهو مذهب الباحث الأمريكي –تولمين– (toulmin) الذي ذهب إلى أن الشعر والحجاج متعارضان، وعلل رأيه بقوله إن الحجاج يقوم على الابتذال، أما الشعر فيصدر عن رؤية فردية [1] وقد قام أبو بكر العزاوي بمناقشة هذا الرأي عندما درس الحجاج في نصوص شعرية قديمة ومعاصرة،كما تبرز في هذا المسار دراسات سامية الدريدي، وفي دراسة أجراها محمد عبد الباسط رأى فيها أن المفهوم المخصص للشعر، جعل ماهيته ووظيفته مختلفتين عن ظرفية الحجاج وعمل الإقناع، في مذهب البعض طبعا، لأن الغرض هنا إثبات عكس هذا الفرض، وتمثُّل وظيفة حجاجية للشعر، وهذا المفهوم حسبه قد رسخته عوامل معينة:

1– هي مسألة نقدية بامتياز، وهي قضية الطبع والصنعة، هذه الإشكالية النقدية أخذت مساحة واسعة في الدراسات النقدية العربية، ما يهمنا في هذا المقام هو تأثيرها على نسبة الحجاج في الشعر ففي بدايات التخلي عن مبادئ عمود الشعر القديم، وقعت تصادمات بين الشعراء وكذلك النقاد و«لقد هيمن مفهوم الطبع على ما عداه، مُقْصِيًّا من دائرة الشعرية كل قول يرتكز على التدبير الفكري، وهو ما اختزله الجدل بين القدماء والمحدثين في العصر العباسي في ثنائيتي الطبع والصنعة»[2] رفض إدخال عناصر جديدة لمكون القصيدة كعنصر التدبر الفكري، سيجعل الصبغة الحجاجية للنص الشعري تنخفض، وقد أشار محمد عبد الباسط إلى تراجع الوظيفة الحجاجية في النص الشعري، رابطا ذلك ببداية الجدل المنطلق في العصر العباسي بين ثنائيتي الطبع والصنعة.

[1]– ينظر: أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، الطبعة الأولى، الأحمدية للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، سنة: 2010، ص38.
[2]– محمد عبد الباسط، في حجاج النص الشعري، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 2013، ص29.

2- الحد الذي خصّ للشعر في التراث العربي، يجعل مسلكه غير مسلك العقل، يخاطب عاطفة المتلقي، ولا يتقدم إلى مخاطبة عقله، فهو: «كلام مخيّل مؤلف من أقوال موزونة، متساوية، وعند العرب مقفاة، والمخيّل هو الكلام الذي تُذعن له النفس، فتبسط عن أمور وتنقبض عن أمور، عن غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالا، نفسانيا غير فكري، سواء كان مصدّقًا به أو غير مصدّق»[1] هذا يجذب صفات المبالغة والحلاوة والكذب، حسب التعبير النقدي (أعذب الشعر أكذبه) ويستبعد الصفات العقلية، والاستدلالية «فالشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجّة، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة»[2] بل بالحلاوة والطلاوة، وبديع القول الذي يلمس العاطفة مباشرة دون إعمال الفكر، وقد أشارت سامية الدريدي إلى أن هذا الإقصاء للشعر من دائرة المنطق، وسحب إمكانية إعمال العقل، أنها مسألة متعلقة بتحديد الأجناس الأدبية، فتصور القدماء أن الشعر إذا دخل باب المنطق لاَنَ وضعفت طاقته الشعرية، بالتالي يصير مثل الخطبة تماما[3].

لعل هذا المذهب نشأ أصلا من دخول الفكر اليوناني في الثقافة العربية، وتأثرها به، حيث ميّز أرسطو بين الخطابة والشعر فجعل الخطابة أقوالا إقناعية، والشعر أقوالا تخييلية، إلّا أن هذا قد لا ينطبق على الشعر العربي، باعتباره شعرا مختلفا عن الشعر اليوناني «فلو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني، وحسن تصرفهم في وضعها(...) لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية»[4]، إضافة إلى الاختلاف في مهمة الشعر عند الفريقين؛

[1]- ابن سينا، تلخيص كتاب أرسطا طاليس في الشعر ضمن فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمان بدوي،الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، سنة: 1973، ص:161.

[2]- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، الطبعة الرابعة، سنة: 1966، ص:100.

[3]- ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر، ص:50.

[4]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص:69.

فحسب الفلاسفة المسلمين إن للشعر إضافة إلى مهمة الإمتاع مهمة الفائدة والقيمة الأخلاقية[1]، وهم لم ينظروا إلى الشعر بوصفه فعلا تطهيريًا خالصًا، بل قرنوا التخييل الشعري بالتصديق البرهاني، بل وأكثر من ذلك ذهب ابن سينا إلى أن الخيالات في الشعر تفعل فعل التصديق، وأن القياس الشعري وإن كان غير مُصدق به، فإنه لا بد أن يجري مجرى القياس المصدق به، بسبب التأثير الذي يحدثه في النفس من قبض وبسط[2] في حين أنه من المنظور الأرسطي، لا يعدو التخييل الشعري أن يكون مغالطة وتلاعبا بالعقول، وهناك من صنف الشعر في آخر السلم المنطقي، في حين جمع الناقد العربي حازم القرطاجني[3] بين الشعر والخطابة، لأن الغرض في الصناعتين واحد، وهو «إعمال الحيلة في إلقاء الكلام في النفوس بمحل القبول، لتتأثر بمقتضاه»[4] مع الاحتفاظ طبعا بالاختلافات في طبيعة الفنين، ومميزات كل واحد منهما، ثم إن البلاغة العربية قد اهتمت بالكلام وخصائصه وقوانينه بعيدا عن التصنيفات الأجناسية، ومن هنا استأهلت اسم العلم الكلّي على حدّ تعبير حمادي صمود، لأنها تجاوزت ثنائية نثر/شعر إلى ثنائية أعم،كلام بليغ/ كلام عادي[5].

هذا الرأي المتحيّز إلى إبعاد الحجاج عن الشعر، وإدماجه بالخطابة، قد وصل إلى الباحثين المتأخرين، فنجد محمد الولي يذهب إلى أن الشعر والخطابة كلاهما يستهدفان المتلقي، إلّا أنهما مختلفان فيما يلتمسانه منه؛ ففي وجهة نظره قد يترفع الشعر في أجود أنواعه عن هدف الإقناع، فغالبا

---

[1]- للتوسع والتفصيل في مهمة الشعر بين الإمتاع والفائدة، ينظر: الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة: 1999.

[2]-ينظر: ألفت الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1984، ص:129.

[3]- القرطاجني : هو أبو الحسن حازم بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطاجني، ولد سنة: 608هـ، قرأ الفقه على يد أبيه، وتتلمذ على يد نخبة من المشايخ المشهورين، صنف حازم مصنفات عديدة منها: "المقصورة"، "وكتاب النحو"، "وكتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، توفي سنة:684هـ، ينظر:جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة:1964، ج/2، ص: 491-492.

[4]- حازم القرطاجني، المنهاج، ص:361.

[5]- ينظر: حمادي صمود، في نظرية الأدب عند العرب، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، سنة 1990، ص:145.

ما يهتم بالشكل، والتعدد الدلالي، والغموض أما الخطابة فلم تجوّد أبدا لوصفها بالغموض، كما جُوِّدَ الشعر لغموضه، فموقف محمد الولي يراوح مكانه، إذ يصرح «إذا كانت البلاغة تسعى إلى التأثير في المتلقي، وتعديل حاله النفسية والفكرية، فإن الشعرية (أي الشعر أو الخاصية الشعرية) تسعى إلى نفس الغاية، إن متلقي القصيدة لا يظَّلُ هو نفسه، بعد الانتهاء من القراءة، فإذا كان تغيير الأحوال النفسية، والفكرية، هو غابة الأقوال الحجاجية أو البلاغية، فإن الشعر نفسه يحقق هذا الغرض هنا تلتبس الوظيفتان»[1] بعد عرضه لهذه المقارنة، وتوصله إلى نتيجة توافق أهداف البلاغة والشعر، يرجع قليلا عنها، باعتباره أن الوظيفتين الشعرية والحجاجية تلتبسان وتتعارضان «فإن المتحدث بمجرد ما يقوى حرصه على الإقناع، يبادر بشكل عفوي إلى تجنب استخدام الشعر»[2] إذا كان اعتبار استخدام الخطيب مقومات جمالية في أسلوبه، وتوجهه إلى الغموض هي وسائل حجاجية؛ فلماذا لا ينسحب ذلك على الشاعر أيضا؟ فقد شاركت القصيدة الخطبة في كثير من موضوعاتها، وغاياتها «فالشعر قد يقال للتعجب وحده، وقد يقال لأغراض المدينة، وهي المشورية، والمشاجرية، والمنافرية»[3] ليكون مثل الخطابة.

وقد يحسن القول هنا بوجود بلاغة إقناعية بحتة خاصة، وبلاغة أخرى أسلوبية إقناعية، وفي البلاغة الأسلوبية «لا يحصل الفهم بكليته فيتعطل الإقناع، وقد يصل توقف البلاغة عند حدود الإمتاع وقد أشار بروتاغوراس بقوله «وهم الشعراء الذين لا نستطيع أن نطلب منهم ما يقصدون بما قالوا»[4] لأن القول الشعري آفاقه واسعة لا تحصر في معنى واحد، والتسليم بأن الأقاويل إنما تستعمل

[1]- محمد الولي، بلاغة الحجاج، مجلة علامات، العدد الخامس، سنة 1996، ص:20

[2]- محمد الولي، المرجع نفسه، مجلة علامات، ص:20.

[3]- ابن سينا، الشفاء، نقلا عن شكري عباد، كتاب أرسطو طاليس في الشعر تاريخه في الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتب، سنة 1993.ص:198

[4]- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، سنة:2009، ص:32.

«في مخاطبة إنسان يستنهض لفعل شيء ما، باستقرار إليه، واستدراج نحوه»[1] عندئذ لا يكون التأثير والانجازية في البلاغة الأسلوبية، إلا بحصول الإقناع، ووقوع الأسلوب الشعري من السامع موقع النهوض بالفعل وانجازه[2].

3 .3 . 1– توشيح الجمال بالحجاج في الشعر العربي:

إن الشعر العربي يكشف عن توشيح الجمال والإقناع، فهما مرتبطان، لا يكاد أحدهما ينفصل عن الآخر، أو يقوم بغير الآخر، فالجمال خير رافد للإقناع، ولا فضل في حجاج منطقي صارم، يفتقر إلى جمال يوشيه، ويدعم فعله في النفوس.

ئإن دراسة بنية القصيدة العربية –التقليدية– والتوصل إلى سماتها، ومنها وحدة القصيدة الممامة في كل النصوص الشعرية، وقد يوطد مفهوم هذه السمة من خلال البحث في الوظائف الحجاجية للقصيدة التقليدية باعتبار «أهم سمة من سمات الخطاب الحجاجي الانسجام، وانعدام التناقض»[3]؛ فمنتج الخطاب إذا أراد لخطابه أن يكون حجاجيا عليه انتقاء أجزائه، والوصل بينها، حتى يصل إلى ذهن المتلقي ويقنعه، وقد ذكر هذا الشرط في صناعة النظم في نقدنا القديم في غير موضع عند العسكري[4]، وابن رشيق، وغيرهما.

لعل ما يعطينا مشروعية تصور حجاجية الأقاويل الشعرية، توفرها على حجج في تركيبها، أي بنيتها الداخلية، ومنها:

1–**الحجاج بالأنموذج:** وهو «ضرب من الحجج المؤسسة لبنية الواقع، إنها حجج لا تتأسس على الواقع، ولا تنبني على بنيته، بل هي التي تؤسس الواقع وتبنيه أو على الأقل تكمله، وتظهر ما خفي

[1]– الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق: محمد أمين، مكتبة الخانجي، مصر، 1931، ص:26.

[2]– ينظر، عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص:31.

[3]– سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص:41.

[4] – العسكري أبو هلال: هو الحسن ابن عبد الله بن سهل أبو هلال اللغوي العسكري، كان الغالب عليه الأدب والشعر، من مؤلفاته " الصناعتين"،"كتاب التبصرة"،"المحاسن في تفسير القرآن". ينظر:ياقوت الحموي، معجم الأدباء،ج/8،ص:258.

من علاقات بين أشيائه، وصلات بين مكوناته»[1] وهذا دأْبُ الشعر العربي، إذ يعتمد على هذه التقنية في بناء الواقع، والتأسيس له بواسطة الحالات الخاصة، وجعلها نماذج عامة.

حيث «يتخذ الشاعر أنموذجا معينا، Idol، مثلا أنموذج الفضائل والقيم إذا كان الأمر مدحا، أو فخرا، أنموذج للرذائل والمعايب إذا كان الغرض هجاء، وأنموذجا للجمال والحب إذا كان الغرض غزلا»[2] فهو على حد تعبير أوليفي روبول: «المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده»[3] ومن المؤكد أن لهذه الآلة الحجاجية فنيّات تستند عليها في بناء نفسها.

تقنيات البناء بالأنموذج:

1- **الانتقاء:** الاختيار الواعي لعناصر القول، معنى، وأسلوبا، فلا وجود للقول الشعري إنْ رام نمذجة للصدفة والاعتباط[4]، والاختيار من أهم العناصر المكونة للأسلوب في الدراسات الحديثة، إلا أنه في قياس النمذجة يكون اختيارا خاصا نوعا ما، حيث يفرض على الشاعر استحضار عناصر قول (لفظا، معنى) لتميز أسلوب هذا الكاتب، بأن يصير أسلوبه متتبعا مثلا بأسلوب النمذجة، حيث يستقدم معان كلها مبررة ومقصودة، مثلا في ملعقة الأعشى[5]:

وَدِعْ هُرَيْرَةَ إنّ الرَكْبَ مُرتحِلُ غراء وهلْ تُطيقُ وداعًا أيها الرّجلُ

فرعاءُ مصقولٌ عوارضِها تمشي الهويّنا كما يمشي الوجى الوحلُ

كأن مِشْيتَها مِنْ بيتِ جارتِهَا مَرُّ السّحابةِ لا رِيْثٌ ولا عجِلُ

تسْمَعُ للْحليِ وَسْوَاسًا إذا انصَرفتْ كمَا اسْتعانَ بريحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ

---

[1]-سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص:62.

[2]- سامية الدريدي، المرجع نفسه، ص60.

[3]- أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، الطبعة الثانية، المطابع الجامعية الفرنسية، سنة: 1994، ص186.

[4]- ينظر سامية الدريدي، المرجع السابق، ص64.

[5]- أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، وأخبار شعرائها، ص139.

هذا مطلع معلقة الأعشى، وهو يتبع فيه قاعدة الاستهلال بالنسيب، قد اختار الأعشى من معجم وصف الحبيبة من صفات خُلقية، وخَلقية فبرع في التصوير، وهو رافد من روافد الحجاج، انتقاؤه للألفاظ والمعاني، أبرز النص بأكثر إقناعية، عندما وصف مفاتن ومحاسن هريرة، غراء، فرعاء، مصقول عوارضها، يصف بياضها، وطول شعرها، وكذلك يصوّر ميزاتها في أقوى تصوير، عندما وصفها كأنها مرّ سحاب، وهذا من أجمل الوصف لمشيّة النساء، حيث لا عجل ولا تريث، ساهم هذا في القوة الحجاجية للبيت، فوكد غُنج هريرة ودلالها، ثم صور خُلقها الحسن، حيث استعمل حجة أن الجيران لا يكرهون خروجها، لأنها حسنة الخلق، لا تتجسس على أحد منهم، فانتقاء الألفاظ، والمعاني في هذا المقطع من المعلقة يعجُّ بمناح حجاجية هامة، جعلت منه قطعة حجاجية بامتياز، تصور صفات المحبوبة وتقنع المتلقي بها، ما يُجلي صفة الحجاجية حتى في شعر النسيب.

2- **الحشد والجمع**: هي الإفراط في استخدام النعوت والصفات، وما يعكسه من كثافة في المعنى، فمعاني المدح معروضة، وكذلك معاني الفخر والهجاء[1] للشاعر عامة أن يحشد معظم المعاني والألفاظ الملائمة لغرضه، كما له أن يهمل بعضها، إلا أنه إذا استعمل تقنية النمذجة فعليه العمل بالحالة الأولى، وأن يجتهد في جمع المعاني والألفاظ، لذلك الغرض، بداعي جعل قصيدته أكثر حجاجية، فهذه المعاني تعدُّ حججًا صناعية، تلف المتلقي بطوق حجاجي، يجعله يسلم لمعانيها، فمثلا نأخذ مقطعا لأبي نواس يرثي صديقا له وهو قوله:[2]

طوى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ ... وليس لما تطْوِي المنيةُ ناشرُ
فلا وصل إلَّا عبرةٌ تستديمها ... أحاديثُ نفسٍ ما لها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق له شيء عليه أحاذرُ
لئن عمرت دور بمن لا أودّه ... فقد عمرتْ ممن أحبُّ المقابر

[1]- ينظر: سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص67.

[2]- أبو نواس، الحسن بن هانئ، الديوان، تحقيق وشرح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة: 2005، ص:437.

نجد أبا نواس يحشد كل معاني وألفاظ الرثاء المقنعة، على قصر المقطع: طوى ،الموت، المنية، فلا وصل، عبرة، لم يبق شيء عليه أحاذر، عمرت بمن أحب المقابر.

كلها ألفاظ ومعان تقوي حجاجية المقطع، وتظهر لوعة الشاعر على فقد صديقه، وحسن الانتقاء، وحشد هذه الجملة من الألفاظ والمعاني في حيز واحد يقنع المتلقي، ويؤثر فيه.

3- **الإقصاء**: بقدر ما يحشد الشاعر من صفات ونعوت في تشكيل موضوع شعره، ممدوحا كان أم مرثيا، أو مهجوًا، يقصي الشاعر معاني أخرى، ويبقيها مغيبة، فيجب استبعاد بعض الألفاظ حتى يستقيم الشعر فمثلا قول العسكري: «ومن الخطأ قول أبي تمام:[1]

ويومٍ[2] كطولِ الدهرِ في عرض مثلهِ ووجديَ من هذا وهذاك أطولُ

وقالوا هذا الشيء في طول ذلك وعرضه، إذا كان مما يرى طوله، وعرضه ولا يستعمل فيما ليس له طول، وعرض على الحقيقة ولا يجوز مخالفة الاستعمال البنية، وكان أبو تمام قد استوفى المعنى في قوله «كطول الدهر» ولم يكن له حاجة إلى ذكر العرض»[3] وهذا هو الإقصاء المطلوب في النمذجة لتكثيف الحجاج لأن الحجاج عامة يقوم على قانون الانتقاء فيختار المحتج ما يخدم أطروحته، ويستبعد ويغيب ما يضعفها أو ينقصها؛ وهذا ما وقع فيه أبو تمام، فكان يتوجب عليه إقصاء لفظ (عرض) ليتم حجاجية بيته ويجمل معناه.

4 **–تجاوز العادي والسائد المعقول**: وهذا تجسيد صريح لظاهرة الغلو في الشعر العربي القديم.

قول امرئ القيس[4]:

وليلٍ كموجِ البحر أرخى سُدُولَه عليَّ بأنواعِ الهمومِ لِيبْتلِي

---

[1] – أبو تمام، الديوان، ضبط وشرح: شاهين عطية، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 2003، ص:230.

[2] – وردت في الديوان: بيوم.

[3] – العسكري، الصناعتين، ص:127.

[4] – أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، ص:30.

نوع التشبيه هنا فريد؛ يختلف عن المألوف، جعل من البيت حجاجيا بقوة فما زال هذا البيت يتردد عند ذكر أجود التشبيهات.

4- الحجاج بين البيان والبرهان:

تمت المعرفة أن الحجاج ، وآليته الإقناع قد حضرا في الحياة الأدبية العربية، حيث لعب الحجاج دورا هاما في جميع مناح الحياة اجتماعية، وعقدية، وسياسية، ومختلف وجوه الحياة الأدبية، فترجم في التأليفات التي ظهرت على فترات، وكان محركها التأليف في الإعجاز، فكتاب البيان والتبيين للجاحظ مثلا هو كتاب في البلاغة والأدب، والصراع العقائدي، وعلم الكلام، غير أن محوره هو الإعجاز[1]، وما يجعل الضوء أكثر تسليطا عليه هو شهرته في التأسيس لبلاغة الإقناع، بحكم المنطلق المذهبي الذي صدر عنه، فلقد كان منخرطا بشكل قوي في نحلة تعتبر أن اللغة والبلاغة هما سلاح المناظرين، و المجادلين الذين يتوخون نصرة مذهبهم، والإقناع به، وهذا المعتزلي الذي كان على رأس إحدى هذه الفرق، وعى بشكل حاسم الدور الجسيم للكلام في مقارعة الرأي بالرأي، ومواجهة الخطاب بالخطاب، لذلك أثنى على أصحاب هذه الملكة من المحاججين مما جعله يربط البلاغة بأهداف إقناعية[2]، وقد جاء مفهوم البيان عند الجاحظ كما وضح محمد العمري قائما على جزأين، مفهومه كمعرفة، ومفهومه كإقناع.

أما الأول: فهو الوظيفة الفهمية، وفي تعريفه للبيان يقول الجاحظ: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السَّامِعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا من كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر، والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأيٍّ بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3]، يجري الإفهام عند الجاحظ على اعتبارات تواصلية تستدعي القائل والسامع

[1] -ينظر، محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية، والبلاغية عند العرب، د ط، دار الحداثة، بيروت، سنة: 1986، ص45.

[2]- ينظر، عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 61.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76.

لأن يساهمان في فهم وإفهام المعنى «فالأمر يتعلق بإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر»[1]، وعُمِمَ هذا الشرط على مفهوم البيان، حيث تتم البلاغة بهذا الشرط، الفهم والإفهام، بمراعاة المتلقي الموجه إليه الخطاب، وجعله من حسابات الخطاب، فلا تتم العملية الخطابية، إلا بحصول المعرفة لديه للرسالة التي وجهت إليه، وفق خطة تواصل معينة، وقد ركز الجاحظ على الوسائل التي تحافظ على العملية التواصلية، وتضمن نجاعتها، ذلك بوصف كل مبُددات التشويش المحتمل الذي قد يمس عملية الإفهام، وهي شرط استقامة الكلام، من طلاقة اللسان؛ أي خلوه من اللجلجة والتمتمة، واللثغة، والفأفأة، والتقعير، والتشديق، واختيار الألفاظ المناسبة، والحرص على الإبانة وكشف المعنى.[2]

الإفهام إذا مسالة مركزية في بلاغة الجاحظ؛ لأن مدار الأمر عنده «البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبيّن كان أحمد»[3]، و ما هو إلا خطوة أساسية لتكميل الخطاب، ومغزاه، وهو الوصول إلى الإقناع؛ الذي هو موضوع البيان والتبيين أساسا، ولن يتم الوصول إليه دون المرور بمرحلة الإفهام.

ثانيا: البيان إقناع:

كان تركيز الجاحظ كما تمت الإشارة على الكلام والمتكلم والسامع، فكان أول من تكلم وتوسع في دور كل طرف من أطراف العملية التخاطبية، المتكلم والسامع، والنص، في جعل النص بليغا مؤثرا مقنعا[4]، وبما أن الرجل اهتم بالخطبة أكثر من أي نص آخر، فكانت هي المثال المستشهد به كنص حجاجي، يحاول الجاحظ وصف حيثياته حتى يكون كذلك، فالقول الخطبي عنده يكون للخصومة والمنازعة والاحتجاج على أرباب النحل، والخطيب مطلوب منه الإفصاح بالحجة، والغاية

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص 194.

[2]- ينظر، عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 63-64.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 11.

[4]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 137-307.

من ذلك أن تكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع [1]، ولذلك دعا سيدنا موسى الله عزّ وجلّ ليرسل معه أخاه هارون، فهو أفصح لسانا، وكانت رغبة سيدنا موسى الوصول إلى غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، وقد استشهد الجاحظ بهذا الشاهد ليشدّ الانتباه إلى سلطان الكلام البليغ الفصيح، وأثره الحجاجي، فربط البلاغة بالحجاج والإقناع ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**.. ﴾[2]، إن بلاغة سيدنا هارون وفصاحته هي الحجة التي ستجعل عقول القوم أفهم وأعناقهم أميل، ونفوسهم إليه أسرع.

وقد جمع محمد العمري الأغراض التأثيرية جمعا طريفا منظما، بوضع غرضها في الإقناع، في جدول أخرجه ضمن مؤلفه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، موضحا من خلاله أن الجاحظ لم يقصد بمعنى الفهم والإفهام المعنى التعليمي الهادئ، بل قصد صبّه في البعد الإقناعي من خلال إيراد مسميات لتأثير البيان، تصبُّ في هذا المعنى، مثل استمالة القلوب، فهم العقول، الاضطرار، التحريك، وفيما يلي الجدول الجامع لذلك[3]:

المؤهلات و العوائق		صفات البيان و موضوعه		الغرض
المؤهلات	العوائق	الصفات	الموضوع	التأثير
المنطق	العي	الإبلاغ	الدعوة إلى مقالة	استمالة القلوب
الأحلام	الحصر	الإبانة	الدفاع عن نحلة	ثني الأعناق
العقول	ضيق الصدر	الإفصاح	إبلاغ رسالة	التصديق
الدهاء	توقف اللسان	الفصاحة	الحجة	ميل الأعناق
المكر	اللثغ	الوضوح	الحاجة	فهم العقول

[1]- ينظر: الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص: 07.

[2]- سورة: القصص،الآية:34.

[3]- ينظر محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها، وامتداداتها، ص: 198.

الألسنة النكراء التمييز السياسة لباس التقوى طابع النبوة		الصحة البيان حسن التفصيل الإيضاح وضوح الدلالة الإفهام الفهم الاحتجاج الأدلة	المنازعة	إسراع النفوس الاستمالة الاضطرار التحريك حل الحبوة

وردت المسميات السابقة في نصوص متفرقة للجاحظ، ومن خلالها يمكن التأسيس لمفهوم بلاغة الخطاب الإقناعي عنده، فقد فصل في طريقة صنع البيان للوصول في آخر العملية التواصلية إلى الإقناع، وكان يستشهد لكلامه بشواهد توضح أهمية البيان في الإقناع، منها مثلا قوله «ولما علم واصل ابن عطاء، أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه كان داعية مقالة، ورئيس نِحْلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل، وأنه لا بد من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال، وأن البيان يحتاج إلى تميز، وسياسة(...) وأن ذلك أكثر ما تُسْتَمَالُ به القلوب، وتُثْنَى به الأعناق، وتُزَّين به المعاني، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان المتمكن، والقوة المتصرفة كنحو ما أعطى الله نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى، وطابع النبوة(...) رام أبو حذيفة إسقاط الراء»[1]، وغير هذا كثير من النصوص توضح صفة البيان وغرضه عند الجاحظ، أو ما سماه بفصل الخطاب، وهو القول المقنع الذي ينجز مهمة الحجاج

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 14-15.

«فإنك إن أوتيت تقرير حجة الله تعالى في عقول المكلفين، وتحقيق المؤونة على المستمعين، وتزين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحبة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب»[1].

إضافة إلى كل هذا وضح الجاحظ دور المقام في جعل الخطاب إقناعيا، إذ إن «نجاعة الخطاب وفعله في المخاطب رهينان باستحضار المتكلم لطبيعة المستمعين، ومواقفهم، وظروفهم(...)فالقول المقنع لا يكون غفلا بل حاملا لانتظارات المتلقين»[2]، «فالمعنى ليس يشرف بأنه من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يحب لكل مقام من مقال»[3]، هكذا تنبه الجاحظ لأهمية المقام، وجعل له دورا هاما في بلاغة الإقناع لديه، وهو عنده «يكتسي طابعا تداوليا يجعله يلف كل عملية القول، فالمتكلم محكوم باعتبار مخاطبه، وباعتبار التلاؤم بين الغرض وصورة قوله، واعتبار السياق الذي يرِدُ فيه الخطاب»[4]، حيث ينبغي مراعاة المخاطب قدره ومنزلته الاجتماعية، وقدر استيعابه للخطاب، وبالتالي يكون المتكلم قائما بدراسة شاملة لخطابه من ألفاظ ومعان وصور، حتى قبل إنتاجه للخطاب، ليُحْرِزَ به المنفعة المرجوّة منه، ويجعله خطابا حجاجيا مقنعا.

أساس بلاغة الإقناع عند الجاحظ إذًا: التركيز على الإفهام، ومراعاة المقام، إذ يكونان سبيلا إلى إتمام استراتيجيات الخطاب تبليغا وإقناعا، وفي نفس مسار الجاحظ، برزت فئة من البلاغيين السائرين حسب فرقهم الكلامية التي ينتمون إليها، والذين إن اختلفوا مذهبيا فهم متفقين في اعتبار البلاغة ومكوناتها أساسا حجاجيا، مستعملين هذا الفهم في تنزيه القرآن الكريم، وذلك ما فعله ابن

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 81..

[2]- عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 66.

[3]- الجاحظ، المصدر السابق، ص 136.

[4]- عادل عبد اللطيف، المرجع السابق، ص 65.

قتيبة[1] في مؤلفه «تأويل مشكل القرآن»، فقد صنفه للرد على الملاحدة، وأشباههم الذين يطعنون على القرآن الكريم، ويقولون بتناقضه، وفساد نظمه، واضطراب إعرابه، إنما وضع ابن قتيبة كتابه هذا للرد على هؤلاء ليُحِق الحق، ويبطل الباطل، ما جعله يستعمل خطابا حجاجيا صارما، ليقيم الدليل على ما يقوله، ويسقط دعوة الطاعنين ويمحوها، وقد استعمل البلاغة كأسلوب حجاجي من خلال توجيه معاني آي القرآن، وبيان دلالاتها من خلال المجاز، والاستعارة، متفقا مع الجاحظ في هذه النقطة، وإن كان مختلفا معه في المذهب، فالجاحظ معتزلي وابن قتيبة سُنِيٌّ كاره للمعتزلة[2].

وقد انطلق من أسئلة كلامية، حيث أورد ادعاءات المدعين على القرآن الكريم، ثم رد عليها من خلال أبواب كتابه، سالكا تيارا مزدوجا بين المجاز اللغوي في النص القرآني، والذي شرعه أبو عبيدة[3]، وتيار الأسئلة الكلامية التي هيمنت في عصره (القرن الثالث) لذلك يلاحظ أن مفهوم المجاز عنده ما هو إلا استمرار لمفهومه عند أبي عبيدة، مع إضافة جديد هو مجاز كلامي أصولي، وقد رام من خلال هذه الطروحات أن ينضح عن كتاب الله كما عبر[4]، مستعملا أسلوبا حجاجيا يدافع به عن القرآن.

و قد استمر الاحتجاج للقرآن من طرف علماء الإعجاز والكلام بالتطور بعد الجاحظ وابن قتيبة، وغير بعيد عن الأفق البياني الذي فتحه الجاحظ واستنادا إليه «بالمخالفة والتكميل»[5] ألّف ابن وهب كتابه «البرهان في وجوه البيان».

---

[1] – عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري، وقيل المروي، ولد ببغداد سنة : 213 هـ، أخذ العلم بها عن إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد بن عبيد الله الزيادي، وغيرهم، خلف مؤلفات أشهرها: "عيون الأخبار" و "أدب الكاتب"، توفي سنة: 276هـ. ينظر: شهاب الدين أبي الفلاح الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب، المجلد الأول، ص:25،26.

[2]– شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ ، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، سنة: 1995، ص: 59.

[3] – أبو عبيدة: معمر بن المثنى البصري النحوي، تصانيفه تقارب مائتي تصنيف، منها "مجاز القرآن" "غريب الحديث"، توفي سنة 213، ينظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، سنة:1398هـ،1978م، ج5، ص:243.

[4] – ينظر: عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القران، تحقيق: احمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ص: 17.

[5] – محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها، وامتداداتها، ص: 211.

فقدم نقده لبيان الجاحظ قائلًا: «...فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب البيان والتبيين، وإنك وجدته إنما ذكر فيه أخبار منتحلة، وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، فكان عليه غير مستحق، لهذا الاسم الذي نسب إليه، وسألتني أن أذكر لك جملا من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله، محيطة بجماهير فصوله، يعرف بها المبتدي معانيه يستغني بها الناظر فيه»[1].

وقد جعل ابن وهب البيان في أربعة أوجه هي: «بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر، واللُّب، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب»[2]، اعتمد ابن وهب على الاستدلال والإقناع في فهمه للبيان، حيث يظهر من خلال تصوره للبيان أنه لا يفصله عن العقل «فالبيان ناجم من إعمال الإنسان النظر العقلي في الأشياء، والأشياء دليل العقل، ولا بيان بدون دليل عقلي»[3]، وحديثه عن أوجه البيان، وربطها بالعقل، وإعمال الفكر دليل على أن منشأ البيان عنده إقناعي، لذلك عضد تفكيره البلاغي بالفلسفة اليونانية التي تقدم العقل، وتعتمد القياس الموصل إلى الإقناع.

وكان تقديمه لمفهوم القياس كالتالي: «وليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم القياس نتيجته، كقولنا إذا كان الحي حساسا متحركا فالإنسان حي، وربما كان ذلك في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين، أو أكثر على قدر ما يتوجه من إفهام المخاطب، فأما أصحاب المنطق فيقولون أنه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق(...) وإنما يكتفي في لسان العرب بمقدمة واحدة على التوسع علم المخاطب، والنتائج ثلاث، إحداهما ما صدر عن قول مُسَلّم في العقل لا خلاف فيه فتكون النتيجة عنه برهانا كقولنا إذا كان الزوج ما رُكِبَ من عددين متساويين، فالأربعة زوج والأخرى ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه؛ فتكون النتيجة عنه إقناعا كقولنا: إذا كان حق

[1] -ابن وهب الكاتب ، البرهان في وجوه البيان، ص: 49.

[2] - ابن وهب الكاتب، المصدر نفسه، ص: 56.

[3] - عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 70.

الباري عزّ وجلّ واجبا علينا لأنه علة لوجودنا، فقد وجب حق الوالد أيضا، وصحة هذه النتيجة إنما تقع بالاحتجاج لمقدمتها»[1]، فرق ابن وهب بين نتائج القياس، بين البرهان، والإقناع، حيث جعل البرهان في قول مُسَلّم في العقل لا يمكن بأي حال الاختلاف فيه، وهذا يبتعد عن البلاغة، ويقترب من المنطق الرياضي، بينما النتيجة الثانية ففيها بلاغة الإقناع، حيث تستعمل في نتيجة هذا القياس الأساليب البلاغية، فيحتج بالمقدمة حتى يتم الإقناع بالنتيجة، وهذا ما يهم هذا البحث في بيان ابن وهب.

تنبه ابن وهب أيضا لخاصية لصيقة ببلاغة الإقناع، وهي الحوارية حيث يقول: «ولما كان يعتقده الإنسان من هذا البيان، ويحصل في نفسه منه غير متعدّ إلى غيره، وكان الله عز وجل قد أراد أن يتمم منه فضيلة الإنسان خلق له اللسان، وانطقه بالبيان، فخبر به عمّا في نفسه من الحكمة التي أفادها، والمعرفة التي اكتسبها، فصار ذلك بيانا ثالثا أوضح مما تقدمه، وأعمّ نفعا»[2]، ذاك يعني أن ابن وهب قد ركز على النصوص التي تتسم بسمة الحوارية أكثر، مثل أدب الجدل، وأدب الحديث، وقد جعل ابن وهب الجدل مجادلة، ليدل على طابعه التفاعلي، كما ربطه بالاختلاف[3] وحاجة كل طرف إلى الحجج التي تقنع الطرف الآخر، فما الجدل والمجادلة إلا «قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه من اعتقاد المتجادلين»[4]، وفي هذا السياق وضح كيف يتقدم البليغ بالحجة في الجدل «فقد أجمعت العلماء، وذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجته، وبيّن عن حقه(...) ووصف الله عزّ وجلّ قريشا بالبلاغة في الحجة، واللدد في الخصومة، فقال : ﴿ **وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا** ﴾[5]»[6].

---

[1]- ابن وهب الكاتب، البرهان ، ص: 68-69.

[2]- ابن وهب الكاتب، المصدر نفسه، ص: 58.

[3]- ينظر: عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 71.

[4]- ابن وهب الكاتب، المصدر السابق، ص: 176.

[5]- سورة مريم، الآية: 97.

[6]- ابن وهب الكاتب، المصدر السابق، ص 177.

يُثْبَتُ إذا أن ابن وهب عضد تفكيره البلاغي بالفلسفة اليونانية، فقدم العقل، واعتمد القياس للوصول إلى الإقناع، وعلى امتداد مشروعه البياني ظلّ محتفيّا بالحجة، وما لها في إرساء برهانية وإقناعية البيان عنده.

برز بعد هذا علماء تخصصوا في الإعجاز في مؤلفاتهم، اعتمدوا أساليب حجاجية أيضا، مثل الرماني[1] ورسالته «النكت في إعجاز القرآن»، وقد تناول فيها أقسام البلاغة وصنفها عشرًا، وفي حدوده لهذه الأقسام ركز على اكتمال البلاغة بجمال التعبير، وروعة الأداء، إلا أن الملاحظ أنه لم يحتف بالبلاغة بقدر عال، رغم أنه قد عدَّها مبحثا من مباحث الإعجاز عنده، ويرجع ذلك إلى اعتبارات فكرية، فهو منتم إلى مذهب المعتزلة الذي ينسب إعجاز القرآن إلى صرف الناس عن الإتيان بمثله، أكثر من النص وشكله البلاغي؛ «فهو لم ينسب النص إلى الإعجاز إلا على استحياء»[2]، وحجاج القرآن بالنسبة إليه كامن في عجز الناس عن الإتيان بمثله، أكثر من أي مسالة أخرى، في حين ذهب الخطابي[3] إلى أن حجاجية القرآن الكريم في بلاغته، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن النظم التأليفية، مضمنا أصح المعاني[4]، فخرج إلى النص في حد ذاته، في بنيته النظمية، التي

التي

[1] – علي بن عيسى الرماني (296–384) عالم معتزلي، ولد ببغداد، و توفي بها، صنف العديد من الكتب في شتى أنواع المعرفة، خاصة العلوم العربية، اللغة، النحو والتفسير، والاعتزال، ينظر:محمد بن إسحاق بن النديم، الفهرست تحقيق: إبراهيم رمضان، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة 1997، ص: 286.

[2]– تمام حسان، الأصول: دراسة إبستيميولوجية للفكر اللغوي عند العرب(النحو، فقه اللغة ، البلاغة)، دط، عالم الكتب، القاهرة، سنة: 2000، ص: 320.

[3] – الخطابي، أبو سليمان حمد ابن إبراهيم الخطابي البستي، ولد رجب عام 319هـ، أقام ببست، وتوفي فيها وإليها نسب، أخذ العلم عن البارزين من علماء عصره، توفي بعد حياة حافلة بالعلم والأدب سنة 388هـ، من مؤلفاته " أعلام الحديث، ومعالم التنزيل، وبيان إعجاز القرآن"، ينظر: محمد خلف الله، ومحمد سلام زغلول، مقدمة ثلاث رسائل في الإعجاز ،الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ص: 08–09.

[4]– ينظر: الخطابي، بيان إعجاز القران، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ص: 27.

أورثته طبيعة حجاجية، أما البقلاني[1] فأرجع تفرد القرآن، وثيمته الحجاجية إلى تفرده بطرق التأليف الخاصة به وذلك في مؤلفه «إعجاز القرآن»، وبيّن أن حجة القرآن، إنما هي في مخالفته الأساليب المعتادة، في حين تناول القاضي عبد الجبار المعتزلي مسائل البلاغة والفصاحة، واعتنى بالتركيب في القرآن؛ وهناك تكمن حجاجيته حسبه، لأن خروج القرآن عن العادة قدر الفصاحة يوجب كونه معجزا.[2]

إذًا كانت اجتهادات علماء الإعجاز كلا حسب توجهه الفكري مساهمة هامة، وحلقة محكمة في تصور مفهوم الحجاج، وبنائه في البلاغة العربية، فكل منهم سعى إلى تصور مكامن حجاجية القرآن الكريم، وقد استفاد عبد القاهر الجرجاني[3] من هذه التصورات لبناء نظرية النظم التي هي حجة القرآن الكريم عنده، تلك المؤلفات جاءت خاصة بالإعجاز وحملت ما حملت من ملامح حجاجية بلاغية، فإن كانت كتبا خاصة بالإعجاز، فقد وضحت الملامح الحجاجية التي فرضها التأليف الإعجازي، خلال هذا الرهط من الزمن الذي انشغل فيه علماء الإعجاز والبلاغة في البحث عن وجوه الإعجاز، وجمع الأمثال والحكم، والخطب، والشعر، وانشغل في المقابل الشعراء والنقاد بجمع الصور البلاغية، وتصنيفها، وانتخاب الأمثلة منها القديم والحديث للاحتجاج في معركتهم الأدبية

[1] – الباقلاني: أبو بكر الباقلاني، ولد سنة:338، في البصرة، متكلم ومتحدث وقاضي، له عدة مصنفات بلغت خمسا وخمسين بين مصنف ورسالة، منها:"الإنصاف في أسباب الخلاف"، "التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة من الخوارج والمعتزلة"، توفي سنة: 403هـ، ينظر: إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة:1997م، ص:18.

[2]– ينظر: القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب التوحيد و العدل، نشر وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، ج1، ص: 197، نقلا عن شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، الطبعة التاسعة ، دار المعارف، القاهرة،سنة:1995، ص

[3] – عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني، أخذ النحو بجرجان، عن أبي الحسين محمد بن الحسن الفارسي، من علماء النحو والبلاغة، أشهر مؤلفاته: "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، توفيّ سنة: 471. ينظر: شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن محمد العكري ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد الأول، ص: 308.

ذلك صنيع عبد الله بن المعتز[1]، وقدامة بن جعفر[2]حتى الوصول إلى مرحلة الجمع بين النقد والبلاغة في التأليف، وهو ما عرف بالبلاغة العامة مع أبي هلال العسكري، وبالنسبة للبديع ألف فيه عبد الله بن المعتز كتابا هو كتاب البديع، قال في مقدمته: «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن، واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة، والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا، ومسلما، وأبا نواس، ومن تقيَّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكن كثُر في أشعارهم، فعُرِف في زمانهم، حتى سميّ بهذا الاسم، فأعرب عنه ودلّ عليه»[3]، لذلك يعد ابن المعتز أول من تفطن لهذا العلم، وجعل فنونه في خمسة أنواع «الاستعارة، التجنيس، المطابقة أو الطباق، ورد الأعجاز على ما تقدمها، والمذهب الكلامي» وما جاء من حديث عن البديع بعد ابن المعتز بعد رؤيته هذه، كله أُخِذَ عنه، وحدث أن أُضِيفَتْ بعض الأبواب مثلما أشار أبو هلال العسكري في الباب التاسع من كتابه الصناعتين: «وزدت عما أورده المتقدمون ستة أنواع»[4] و تبقى أصوله ما قدم ابن المعتز.

وما يشغلنا في الحديث عن البديع دوره الحجاجي، فهو يتجاوز أن يكون حاضرا لمجرد الزخرفة في الخطاب، ولكن يهدف إلى الإقناع، والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، حتى لو تخيل الناس غير ذلك لهذا نجد البديع في الشعر والمنافرات والخصومات، لوعي العرب بدوره الحجاجي، فأكثروا من استعمال فنونه، كحجج يُعَوَّلُ عليها في الإقناع بمقاصد الخطاب.

---

[1] – عبد الله بن المعتز، أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل المعتصم بن هارون الرشيد، أديب وبليغ وشاعر، أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد، وأبي العباس ثعلب، له من التصانيف كتاب "الزهر والرياض" وكتاب "البديع" توفيّ سنة: 296. ينظر: شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن محمد العكري، شذرات الذهب، المجلد الثالث، ص:406.

[2] – قدامة بن جعفر، هو: أبو الفرج بن جعفر البغدادي، كاتب وناقد وأديب، كان نصرانيا وأسلم على يدي المكتفي بالله العباسي، توفيّ بعد سنة: 320، وقيل 337، له مؤلفات عديدة، منها "الخراج" و"جواهر الألفاظ" وكتاب "نقد الشعر"، ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج/17، ص:12،14.

[3]– عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، شرح: إغناطيوس كراتشوفسكي، الطبعة الثانية، دار المسيرة، لبنان، سنة:1982، ص: 01.

[4]– أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة:1406هـ.1986م، ص:267

بعد الكثير من المحطات وصلت البلاغة العربية إلى ما عرف بمرحلة التقعيد مع السكاكي[1] حيث قام بجمع وتصنيف أقسام البلاغة آخذا عمن سبقه، وقد عالج البيان في إطار بلاغي منطقي، في حين تناوله الجاحظ في إطار أدبي خطابي، وابن وهب في إطار منطقي فقهي[2] وكان الجميع يؤسس لبلاغة حجاجية.

بالنسبة للسكاكي الذي رفد البلاغة بالمنطق، ومن خلال تقسيمه لكتابه مفتاح العلوم إلى : علم الصرف، وعلم النحو، وعلمي المعاني والبيان؛ يظهر تصوره للعلاقة بين البلاغة والنحو والمنطق، واعتنائه بهذه الثلاثية يجعل الملاحظ يستحضر قراءة الجرجاني «معاني النحو» «ولا شك أنه وهو يقدم مبادئ النحو والاستدلال كان يكشف المخبوء، وغير المصرح به عند عبد القاهر الجرجاني»[3] لأن الجرجاني لم يُفصِّل في الآليات التي تحسن الكلام بتلك الدرجة من العمق الذي فصّل فيه السكاكي ولذلك نُسِبَ تقعيد البلاغة العربية إليه كما هو معروف في تاريخ البلاغة.

إن دمج السكاكي علمي البيان والمعاني مع الحد والاستدلال يشرِّع وسم بلاغته ببلاغة الاستدلال، «فلما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بُدًّا من التسمح بهما»[4]، هذا التمام الحاصل بين علم المعاني والحد والاستدلال، هو أساس بلاغة الخطاب على نظام استدلالي عند السكاكي؛ «ليصبح البيان مُؤسسا على نظام العقل، مما يجعل البلاغة معرفة واستدلالا»[5]، فالتصوير البياني عنده قائم على الاستدلال أولا ثم التخييل، وكأنه يخرجه من قوقعة الزخرف والتحسين إلى

[1] – السكاكي: يوسف بن أبي بكر أبو يعقوب السكاكي، من أهل خوارزم، ولد سنة:554هـ، إمام في العربية، المعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلم فقيه في علوم شتى، وضع كتاب مفتاح العلوم بعد اطلاعه على أعمال أسلافه، توفي سنة:626هـ، ينظر: السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد، مفتاح العلوم، ضبطه وشرح هوامشه وعلق عليه، نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة: 1407-1987م، مقدمة المحقق، ص: و.

[2] – جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دط، دار غريب للطباعة، القاهرة، سنة 2000، ص: 149.

[3] –محمد العمري، البلاغة العربي، أصولها وامتداداتها، ص: 485.

[4] – السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد، مفتاح العلوم، ضبطه وشرح هوامشه وعلق عليه، نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة: 1407-1987م، ص: 06.

[5] – عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 76.

بحبوبة الحجاج، بوسمه بصفات إقناعية لأنه جعل التصوير البياني عملية استدلالية قوَّمها على الانتقال من المعنى إلى معنى المعنى، أو من الدلالة الوضعية إلى دلالة أخرى عقلية[1] وهي كما وضح «الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، كلزوم أحدهما الأخر بوجه من الوجوه»[2] بهذا يخرج البيان إلى عالم الحجاج، فنجده يقول: «إذا قلت خذها وردة لا تصنع شيئا سوى أن تُلزم للخد ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية، ليتوصل بذلك إلى وصف الخد بها»[3]، وكأنه يطلب من البلاغي جمع كل ما يدل على الموصوف وفق القاعدة الاستدلالية، للوصول إلى نتيجة الوصف، حتى تكون مقنعة للمتلقي، وللمثال السابق القياس الآتي:

خدها وردة ⟵ م1

الوردة حمراء ⟵ م2

خدها أحمر ⟵ ن

ارتبطت المعاني السابقة: -الخد والوردة- بسبب العلاقة المنطقية بينها وهي الحمرة لتتكون صورة عقلية في ذهن المتلقي عن حمرة الخدّ، تجعله يسلم لهدف صاحب الخطاب.

إذًا بنى السكاكي بلاغته ومفهومه للبيان على الاستدلال، حتى يؤكد حجاجية البلاغة، ليؤكد هذا الطرح وإضافة إلى كل المعطيات السابقة اهتم بالمقام الراعي «للنجاعة التواصلية»[4]، والنجاعة الإقناعية، استمر نهج السكاكي في عضد البلاغة بالمنطق مع حازم القرطاجني صاحب مؤلف منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

وقد سلك هو الآخر سبيلا استدلاليا، لكنه لم يخضع الخطاب الأدبي إلى الصرامة المنطقية، «بل كان على وعي أنه أمام خطاب طبيعي يفرض عليه أسلوبا مرِنًا في الاستدلال، كما كان يدرك

[1]- ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، ص : 78.

[2]- السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 330.

[3]- السكاكي، المصدر نفسه، ص: 505.

[4]- ينظر:محمد العمري، البلاغة العربي، أصولها وامتداداتها، ص: 485.

أن القواعد التي يخضع لها هذا الخطاب غير القواعد الصورية التي يفرضها المنطق، وعليه تطويع هذه القواعد وفق خصائص الخطاب الطبيعي»[1]، وإنما تبنى هذا الأسلوب ليجعل البلاغة إقناعية، والكلام عنده كما صرح «يحتمل الصدق أو الكذب إما يرد على جهة الإخبار والاقتصاص وإما يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال»[2]، وقد فصل في القول الخطبي والشعري هنا، ولكن ليس هذا مقام ذكر ما جاء به في هذا الشأن، مايهمنا أنه اعترف بوجود جانبين للكلام إمتاعي وإقناعي متأثرا بمذهب الفلاسفة المسلمين، وهي الرؤية التي تجعل للمحاكاة والتخييل حضورا في الخطب، وللحجاج والإقناع حضورًا في الشعر، على «أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مُخَيَّلة، مؤكدة لمعانيها مناسبة لها في ما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة»[3]، فهو يسعى إلى فرض التوازن في هذه المسالة بأن تتسم كل صناعة بما هو أصل فيها، ولا تستكثر بما هو ليس أصلا فيها.

يعدُّ منهاج حازم مرحلة مهمة في تاريخ البلاغة العربية، وهو كذلك في تاريخ الحجاج العربي، فقد صرح حازم مباشرة بالدور الإقناعي، إذ نجده يستعمل مصطلح إقناع على طول صفحات مؤلفه.

وإضافة إلى اجتهادات البلاغيين وعلماء الكلام في التأسيس للدرس الحجاجي العربي، لا يمكن إغفال دور فئة أخرى، وهي فئة علماء الأصول، وعلماء التفسير فقد اهتم علماء الأصول بالخطاب الشرعي الذي يتمثل في خطاب الله عزّ وجلّ، أو خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام، أو خطاب

[1] – خديجة كلاتمة، آليات الاستدلال الحجاجي في منهاج البلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجني، مجلة المخبر، العدد الثامن جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر ، سنة 2012، ص: 188.

[2] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 62.

[3] – حازم القرطاجني، المصدر نفسه، ص: 362.

الأمة المجمع عليه، حيث ركزوا على مقاصد هذه الخطابات للتقرب من مقاصد الشريعة[1]، وهو ما يعرف بين أواسط الأصوليين بالاستنباط، هنا يتجلى الوجه الحجاجي لعلم الأصول، حيث إن الأصولي أثناء استنباطه للحكم الشرعي يستدعي أدلة تدل عليه وتلزم به السامع أو متلقي هذا الحكم، لهذا تكون «المسائل الأصولية ذات طبيعة حجاجية استدلالية تفسيرية لأنها تستنبط الحكم، وتثبت الدليل على ذلك»[2]، بغرض إقناع السامع الذي يتبوأ مكانا مهما في حجاجية الأصوليين، إذ لأجله وجد الخطاب الديني في الأصل، والغرض توصيل الهدف من هذا الخطاب إلى ذهن المتلقي وإقناعه بذلك المقصد من الخطاب، إذا كما أن للأصوليين الفضل في التأسيس لهاديات تحليل الخطاب، حيث أفاضوا في مقدمات تحدد الدلالات وتصنفها[3]، لهم الفضل أيضا في التأسيس للدرس الحجاجي باهتمامهم أولا بتحليل الخطاب، باستنباط أحكامه طبعا، ثم بالسامع متلقي هذا الخطاب، وأيضا بالمقام وأسباب النزول، فقد أضافوا إضافة حجاجية للبلاغة العربية، بالتوازي مع علماء التفسير، الذين حملوا على عاتقهم تفسير آيات القرآن، وبما أن الحجاج هو ما يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فان المفسرين بما قدموا من خطاب تفسيري إلى جمهور يتلقاه فينفعل به انفعال طاعة واستجابة أو انفعال رد وإدانة[4]، وقد قدم علي الشبعان في كتابه الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، في نماذج ممثلة في تفسير سورة البقرة، قدم نماذج حجاجية رائدة في عالم المفسرين، وأوضح وأثبت أن المفسرين هم محاججون يتوجهون بخطابهم التفسيري إلى جمهور ليذعن ويسلم بفحوى ذاك الخطاب.

[1] –ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، مثل من سورة البقرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، سنة: 2008، ص: 113.

[2] – عباس حشاني، خطاب الحجاج و التداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد الأردن، سنة : 2014، ص: 292.

[3] – ينظر:طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 292.

[4] – ينظر: علي الشبعان، الحجاج و الحقيقة وآفاق التأويل، ص: 90.

إضافة إلى هؤلاء ساهم الفلاسفة المسلمين بنصيبهم في التأسيس للدرس الحجاجي أيضا؛ حيث اعتبروا الحجاج عمود البلاغة، إذ تحدث ابن رشد في حواره مع نص أرسطو عن عمود البلاغة، وهو عنده ذو طبيعة منطقية[1]، كما عدوا الكلام قدرة حجاجية أو فعالية حجاجية لغوية، يقول الفارابي: «صناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزيف كل ما خالفها بالأقاويل»[2] وهذا هو المعنى المتعارف للحجاج، وقد اثبت حضور العقل الحجاجي عند الفلاسفة في أبحاث مختلفة[3]، لتسهم هذه الحجة في بناء الحجاج البلاغي العربي لما لها من علاقة مباشرة ودور في تحسين ملامح البلاغة العربية، وإظهار حظوظها الحجاجية.

[1]- ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص: 51.

[2]- الفارابي: رسالة في العلم المدني و علم الفقه، وعلم الكلام، ص ص: 75-76 ، نقلا عن، حمو النقاري، منطق الكلام، ص: 160.

[3]- ينظر: محمد آيت حمو، العقل الحجاجي بين الغزالي وابن رشد، دراسات نقدية لفلسفتي الغزالي وابن رشد، الطبعة الأولى، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2012.

الفصل الثالث

مفهوم البلاغة عند العسكري، من الأصول إلى التأصيل

الفصل الثالث: مفهوم البلاغة عند العسكري، من الأصول إلى التأصيل

1- **التعريف بالمُؤَلِف والكتاب** :أبو هلال العسكري هو الحسن بن عبد الله بن سهل، من أعلام القرن الرابع، نشأ بعسكر مكرم، وهو بلد مشهور من نواحي خرستان وإليها نسبته، انتقل إلى بغداد والبصرة، خلف كثيرا من الكتب منها «جمهرة الأمثال»، و«ديوان المعاني»، و«المصُون في الأدب»، و«الصناعتين»[1] محل الدراسة في هذا البحث.

الواضح أن أبا هلال قد تأثر بكثير من المشايخ قبله (مشايخ البلاغة والأدب) غير أنه لا يكاد يرِد في كتابه غير اسم واحد نقل عنه الكثير من المواضيع؛ هو خاله وشيخه، أبو أحمد الحسين بن إسماعيل العسكري، وأشار إلى غيره إشارات قليلة، وقد ألف العسكري عدة مؤلفات لها صلة بفروع مختلفة من المعرفة، كالحديث، والتفسير، والتاريخ، واللغة والأدب، ولكن أصاب هذا النتاج ما أصاب غيره من الضياع، من مؤلفاته كتاب «الأوائل»، «جمهرة الأمثال»، «ديوان المعاني»، «الفروق اللغوية».

ولئن كان واضحا اعتماد العسكري على طروحات سابقة في رصد صور البيان والبديع، فقد حاول الاجتهاد، وأحدث نسقا من الانسجام بين أراء مختلفة؛ «وهذا بدون ريْب يرفع عمله، وقد عُني فيه بإكثار الأمثلة، كما عُني في أحوال كثيرة بتحليل أطراف منها تحليلا يدل على رهافة حسه وصفاء ذوقه ونقائه»[2].

كما أنه ألف كتابه على وحدة منهجية، فقد أفرغ كل ما جمعه من معارف حول البلاغة، وبثها في عشرة أبواب، تضم ثلاثة وخمسين فصلا، سنذكر فيما يأتي هذه الأبواب:

الأول: الإبانة عن موضوع البلاغة وحدودها، وفيه ثلاثة فصول.

والثاني: في تمييز الكلام جيده من رديئة، ومحموده من مذمومه ، وفيه فصلان.

أما الباب الثالث: فهو باب في معرفة صنعة الكلام، وترتيب الألفاظ، ويقع في فصليين، يتكلم فيه العسكري عما يحتاجه الكاتب في مكاتباته المختلفة.

---

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، مقدمة المحقق، ص:ج.

[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 146.

والباب الرابع: في البيان عن حسن السبك، وجودة الرصف (فصل واحد).

والباب الخامس: الإيجاز والإطناب، في فصليين.

أما الباب السادس: ففي حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته، وفيه فصلان.

الباب السابع :خاص بالتشبيه ،وفيه فصلان أيضا.

والباب الثامن: مخصوص لذكر السجع، والازدواج، ويقع في فصلين هو الآخر.

أما الباب التاسع: وهو أكبر الأبواب في الصناعتين، في شرح البديع، والإبانة عن وجوهه، يقع في خمسة وثلاثين فصلا، لو أُفْرِدَ لكان كتابا مستقلا في البديع.

آخر الأبواب في الصناعتين، بابُ في ذكر المقاطع من الكلام، ومبادئه، وفيه ثلاثة فصول، وقد شغل باب البديع كما لاحظنا أكثر من نصف الكتاب، لكن الملاحظ أن العسكري قد فصل بعض الفصول البديعية عن باب البديع، وكان محمد العمري قد فسر ذلك منهجيا، بأن العسكري إذ فصل بين التشبيه والاستعارة من جهة، وبين السجع والتجنيس من جهة أخرى، فأدخل بعضهما في باب البديع، وأخرج البعض منه، بالرغم من اشتراكهما في البناء والوظيفة إلى حد بعيد، أرجع ذلك إلى وفرة التشبيه والسجع عند العرب ما قبل العصر العباسي، مما يخرجهما من دائرة وزمرة البديع، إضافة إلى اعتبار التشبيه –لانتشار استعماله– أخذ مكانه كغرض شعري، على غرار باقي الأغراض الشعرية (هجاء ، مدح ،نسيب ...الخ)، وكذلك السجع الذي وصل مكانة الجنس الأدبي في الجاهلية، وما اشتهر بسجع الكهان خير دليل[1]، هذه الاعتبارات ذكرها محمد العمري، ويمكن إضافة اعتبارات أخرى، كرغبة العسكري في التمييز عن غيره في تقسيم أبواب البلاغة، وصنعة الكلام حتى يظهر أثره في التأليف، إضافة إلى شدة تخصيصه في القضايا المدروسة، ورصد أكبر عدد من الشواهد، وإضافته لست فصول يقول أنه تفرد بذكرها في باب البديع، وكلها مسائل توخاها لتظهر سمته في التأليف.

[1]– ينظر:محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، صص: 294–295.

كما نلاحظ أيضا أنه درس الاستعارات والمجاز والكناية والتعريض والتذييل والاعتراض في الباب المتخصص للبديع، وهي ليست منه، وإن كان هذا التوسيع في إطلاق اسم البديع على مباحث البلاغة، بدأ ينتشر بعده؛ ليصل إلى تسعين نوعا مع ابن رشيق[1](456).

تنبه الكثير من دارسي ومتتبعي تاريخ البلاغة، لأخذ العسكري عن سابقيه من علماء البلاغة والنقد، وإن كان هو قد صرح باسم وكتاب الجاحظ فقط في مقدمته، بعدما أشار إلى قلة المؤلفين الحاذقين في التأسيس لصنعة الكتابة والشعر، وخصّ الجاحظ ببعض الإطراء، قال: «فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه في اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصَنَّفةَ فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جمُّ المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفِقَرِ اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبَّه عليه من مقاديرهم في البلاغة، والخطابة، وغير ذلك، من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة»[2] ، بيد أنه رغم الإطراء يعطي ملاحظات منهجية، حول تأليف البيان والتبيين، «إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير»[3]، ولأن أبا هلال رجل منهجي[4]، يبث هذه الملاحظات، فهو قد تحرى في مؤلفه إتباع خطة منهجية محكمة، واستمر في إتباعها حتى آخر الكتاب، فجمع «كل ما يحُتاج إليه في صنعة الكلام، نثره ونظمه، ويُستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهذار»[5]، وكأنه يشير إلى أنه ألف كتابا ليسد نقص كتاب الجاحظ منهجيا، وليكشف عن الحدود والأقسام لوجوه البيان [6]مستعملا منهجا قائما على الشرح والتحليل، ابتداء بطرح القضية محل الدراسة، ثم تفسيرها ببعض ما قيل فيها من أراء بعض

[1]- ينظر: عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة: 1412 هـ-1992م، ص:17.

[2]- العسكري، الصناعتين، ص: 04-05.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص:05.

[4]- ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، الطبعة الأولى، دار النفائس، عمان، الأردن، سنة:1432 هـ،2011م ،ص: 128.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 05.

[6]- ينظر شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 140.

العلماء، وهذا لا يحدث في كل المواضع،كما حرص العسكري على تبسيط المفاهيم، ودعمها بطائفة من الشواهد، التي نَوَّعَ فيها بين آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وشعر العرب، ونثرهم.

2- الغاية من تأليف الصناعيين :

أشار العسكري في مقدمة كتابه إلى هدفه الأساسي من تأليف الصناعتين :

أهمية علم البلاغة والفصاحة، فهو عنده «أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه»[1]، فالبلاغة الوسيلة الأكيدة لدراسة إعجاز القرآن، قال: «وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز والبديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كَلِمِهِ وجزالتها وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها»[2]، إنه الاعتبار الديني الذي توخاه العسكري في تأليفه، إضافة إلى اعتبار آخر وهو الاعتبار الأدبي الذي يرتبط نظريا بالاعتبار الأول[3].

يلامس العسكري في مناقشته للاعتبار الأدبي جانبين لصاحب العربية كما سماه،كونه متلقي، وكونه منتج، وعلى الاثنين امتلاك ناصية هذا العلم، ففي حال كان متلقيا، وأخلّ بطلب هذا العلم، «وفرط في التماسه ففاتته فضيلته، وعُلِقَتْ به رذيلة فَوْتِهِ، عفَّى على جميع محاسنه، وعمَّى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بَانَ جهله، وظهر نقصه»[4]، وإذا كان منتجا «وأراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة، وقد فاته هذا العلم؛ مزج الصفو بالكدر، وخلط الغُرَرَ بالعُرَرْ[5]، واستعمل الوحشي العكر، وجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل»[6].

---

[1]- العسكري، الصناعتين ، ص:01.

[2]- العسكري، المصدر نفسه :ص: 01.

[3]- هذه الاعتبارات مذكورة : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 290.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 02.

[5]- الغُرَّة :النفيس من كل شيء ، العُرّة: القذر.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص:02.

العسكري وإن كان لا ينكر كل الإنكار فضل من سبقه إلى البحث في بعض أبواب هذا العلم، إلا أنه أشار إلى النقص العالق بهذه الدراسات، وقد صرح كما ذكرنا باسم الجاحظ في مقدمته، وباسمي ابن المعتز، وقدامة بن جعفر في مواضع أخرى، «وهو يلتقي بأولهما في الفنون التالية: الاستعارة، التطبيق أو الطباق، التجنيس، الكناية والتعريض، رد الأعجاز إلى الصدور، الالتفات الاعتراض، الرجوع، تجاهل العارف، المذهب الكلامي، وهي عشرة مصطلحات يلتقي فيها مع ابن المعتز، يلتقي مع قدامة في:المقابلة، صحة التقسيم، صحة التفسير، الإشارة، الأرداف والتوابع، الغلو والمبالغة، والعكس، والتذييل، والترصيع، والإيغال، والتوشيح، والتكميل والتتميم، وهي اثنا عشر مصطلحا[1]. أما ما ذكر هو أنه قد أضافه على ما ذكره المتقدمون، ستة أنواع: التشطير، المجاورة، التطريز، المضاعف، الاستشهاد، التلطف.

ما لوحظ على العسكري أخذه الكثير من الشواهد للمباحث السابقة عن قدامة، وكذلك أخذه لبعض التقسيمات لفنون الخطاب، كالإيجاز مثلا، كما أخذ من غيره مثل الرماني، وابن طباطبا[2]، غير أنه لم يشر إلى ذلك، ولعل جمعه هذا لمآثر من سبقه هو الهمّ الأكبر لتأليف الصناعتين، كما ذكر محمد العمري، «وهو همٌّ منهجي تحيط به مسؤولية تاريخية، يرجع إلى رغبته في تصنيف المعارف التي انتهت إلى عصره في الموضوع، وتنظيمها تنظيما يسهل الاستفادة منها، فلم يكن هناك مُؤَلَّفٌ يعتمد عليه في الموضوع»[3]؛ أي موضوع البلاغة، والقصد هنا أنه لم يكن هناك مؤلف ممنهج، مبسط لفهم البلاغة، وذكر العسكري ذلك عند نقده لكتاب الجاحظ، وهذا هدف آخر لتأليف الكتاب الذي جمع الشعر والنثر.

3 – الصناعة الأدبية عند العسكري:

اعتبر العسكري الإبداع الذي حاول وصفه في كتابه صناعة كباقي الصناعات التي تحتاج إلى الحذق والمهارة، والدربة، ومصطلح الصناعة هو «العلم الحاصل بالتمرّن، أي أنه قواعد مقررة

[1]– ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 142.

[2]– ابن طباطبا العلوي، نشأ بأصبهان، أخذ العلم والأدب عن مشايخها، ألف العديد من المؤلفات الأدبية، توفي سنة: 322، ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج/17، ص:142.

[3]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 291.

وأدلة»[1]؛ أي أنها قواعد تستدعي الدُربة على تطبيقها، وإنما اسْتُحْضِرَ المصطلح، لأن العسكري سمى مؤلفه الصناعتين، ويقصد صناعتي الشعر والنثر، وهو في مقصده العام يقصد إلى صناعة الإبداع الأدبي عامة، وقد بثّ أهم تقنيات الصناعة في كل أجزاء الكتاب، فهو يؤسس لصناعة الكلام، بصفة عامة، فتجده في باب سماه في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ يقول: «إن أردت أن تصنع كلاما، فأخطر معانيه ببالك، وتنوَّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تَطلُّبُها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غَشِيَك الفُتور، وتخوَّنَكَ الملال فأمسك؛ فإن الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيس»[2] هو هنا يُلقن مبادئ صنعة الكلام الذهنية، والنفسية، وأخرى متعلقة بحسن اختيار التوقيت لإنتاج صناعة الكلام.

وقد ذكر في موقع آخر مصطلح الصنعة فقال: «ينبغي لصانع الكلام ألّا يتقدّم الكلام تقدما، ولا يتبع ذُنَابَاه تتبعا، ولا يحمله على لسانه حملا، فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفُه، والشارد منه»[3] ثم وفي نفس الفصل يأتي على ذكر الصحيفة المشهورة للتأسيس للصنعة، وهي صحيفة[4] بشر بن المعتمر[5]، فبعد ذكر صاحبها لمنازل البلاغة، وهي اللفظ الشريف والمعنى الظاهر المكشوف، وثانيها عدم التعجل، يقول في المنزلة الثالثة «أن تتحول هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفّها عليك»[6]، وإن كان العسكري قد تكلم عن مصطلح الصناعة بشكل عام، فإنه قسّم تلك الصناعة فيما بعد عندما تكلم عن أجناس الكلام؛ وأجناسه ثلاثة «الرسائل، والخطب، والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف، وجوْدة التركيب»[7]. وهذا منهجه في في التأليف أن يتحدث عن الصناعة بصفة عامة، وعن تقنياتها العامة، مع ذكر بعض الخصوصيات لكل جنس طبعا، ولتوضيح هذه التقنيات استدعى العسكري شواهد من تراث العرب شعرهم

---

[1]- تمام حسان، الأصول، ص: 15.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص:133.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص:133.

[4]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:134-135.

[5]- هو بشر بن المعتمر، ويكنى أبا سهل الكوفي، كان متكلما رصينا، انتهت إليه رياسة المعتزلة ببغداد، وكان شاعرا وراوية، توفي سنة: 210هـ، وهو صاحب الصحيفة المشهورة في البلاغة والتي أوردها غير واحد من النقاد من بينهم الجاحظ، وابن رشيق.ينظر: ابن النديم، الفهرست، ص:184-205.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص:135.

[7]- العسكري، المصدر السابق، ص:161.

ونثرهم، وإن كان مكثرا للشواهد الشعرية؛ لمكانة الشعر عند العرب، واعتنائهم بصنعته أكثر من غيره.

3. 1- صناعة الشعر:

اجتمع العسكري مع باقي النقاد العرب في صياغة ماهيته الشعر، وما اتفق في حدودهم أنه: قول موزون مقفى: «منظوم بائن عن المنثور، الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما يخص به من نظم»[1]. ركز النقاد قبل العسكري وبعده على التفريق بين صنعتي الشعر والنثر، فساهم بحلقة من حلقات النقد العربي للوصول إلى التعريف المتكامل للشعر حيث نسجل أن «تعريفات الشعر عبر المسار النقدي العربي كانت تقترب من طبيعة الشعر ووظيفته.»[2] إلى أن وصلت إلى أعلى درجات الدقة في حدِّه مع حازم القرطاجني.

والعسكري لم يخصص حدًّا واضحا للشعر؛ لكننا نستكشف مفهومه عنده من خلال كلامه عن مميزاته، ومراتبه العالية في الكلام وفضله، أما ما يلتقي فيه مع النقاد من رعاية الوزن والقافية فقوله: «وإذا أردت أن تعمل شعرا، فاحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزنا يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية، ولا تتمكن منه في أخرى.»[3]وهذه أول مراحل إنتاج الشعر عنده، يبدأ في الذهن أولا، ثم يتخير أجود الألفاظ وأصحّ المعاني، ويفرغها في قوالب موزونة ومقفاة، وهو يتصور وظيفة للشعر ومكانة تختلف عن غيره من الأجناس (الرسائل، الخطب)، بأن جَانَبَهُ أمر الدين والسلطان ونسبهما إلى الخطب والرسائل، فلا «يقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعا، ولكن له مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل، وغيرها»[4]، ومن المواضع التي يُفضل فيها الشعر عن غيره «طول بقائه على أفواه الرواة، وامتداد الزمان الطويل به، وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض»[5] وهذا من نتاج الأوزان، والتقفية، وبديع الكلام، وطرافة المعاني، ما يجعله سهل الحفظ، لصيقا بالأذهان، ما يؤهله أن يكون

---

[1]- ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف، مصر، دت، ص: 41.

[2]- زروقي عبد القادر، المحاكاة والتخييل، الحدود والتماهي، الطبعة الأولى، دار اليازوري العلمية للنشر، الأردن، سنة:2013، ص: 144.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص: 139.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص:136.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 137

كالأمثال في الحفظ، مستفاضا في الناس «وقد قيل لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر»[1]، ويكفي أن ألفاظ العربية جزلها وفصيحها، وفحلها وغريبها تؤخذ من الشعر، حتى أن معيار الصانع الحاذق للكلام أن يكون رواية للأشعار العربية، فهو بمثابة سجل لأنساب العرب، وتواريخها، وأيامها، ووقائعها فهو ديوان العرب وخزانة حكمتها، مستنبط آدابها، ومستودع علومها،[2] ليتصدر بذلك الكفايات التي يجب أن تتوفر في منتج الخطاب، سواء كان شاعرا أو ناثرا، وحسب العسكري «من أكمل الصفات، صفات الخطيب والكاتب، أن يكون شاعرا، كما أن من أتم صفات الشاعر إن يكون خطيبا كاتبا»[3].

3. 1. 1- مميزات الشعر عند العسكري:

1. **الوزن والقافية:** مسألة الوزن والقافية، هي الواسم الأساسي لفن الشعر العربي، وكما تمت الإشارة، فإن جلّ الحدود التي وصلتنا تعرف الشعر بهذه الخاصية، وكذلك فعل أبو هلال، فهو إذ يسمي الشعر نظما، يعني أنه موزون، متساوي الأجزاء، ويوجه الناظم بقوله: «وإذا أردت أن تعمل شعرا، فاحضر المعاني التي تريد نظمها في فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزنا يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها»[4]، وهذا تأكيد لتمسك التراث النقدي بهذا التقليد، الذي يبعد وصف الشعرية إذا تم تجاهله، أو تجاوزه، وإن كان النقد الحديث والمعاصر الذي يعتبر الإيقاع الشعري «أوسع من مجرد الوزن، فبالإضافة إلى الإيقاع الصوتي صار من الممكن عقلا وذوقا الحديث عن إيقاع الصورة الشعرية، وإيقاع الدلالة...وكلها إيقاعات وثيقة الصلة بإنتاج الدلالة»[5] فإن هذه الرؤية كانت حاضرة حاضرة عند العسكري إذ نلمس عنده «نزعة كيفية في ميله إلى التوازن بصفة عامة، والتوازن وإن كان صفة لجانب من البناء المعنوي القائم على المقابلة بين طرفين، فهو خاصة ملازمة للمقوّم الصوتي»[6]، فكثير من أبواب البديع تحمل هذه المميزات؛ حيث تهتم بالتوازن، فنجد على سبيل المثال التوازن على

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 137.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:138.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 139.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 139

[5]- محمد عبد الباسط عيد، في حجاج النص الشعري، ص: 118.

[6]- محمد العمري، الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة:2001، ص: 95.

مستوى المعنى في فصل المقابلة، بأن يورد المتكلم كلاما ثم يقابله بمثله في المعنى أو اللفظ من جهة الموافقة، أو المخالفة،[1] مثاله قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾[2] فمعنى خواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلاً لظلمهم، وهذا توازن على مستوى المعاني، إذ يفهم المتلقي أن هذا مُستدع لذاك، ومُلزم له، وكذلك الأمر لفصل التوشيح وغيره.

أما على مستوى توازن الأصوات فمن أحسن صوره التطريز،«وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة، كلمات متساوية في الوزن، فيكون التطريز فيها كالطرز في الثوب»[3]؛ وقد أشار أبو هلال إلى نُدرة هذا النوع البديعي في الشعر؛ فهو لا يتوفر إلا للحاذق المتمكن، ومن أمثلته الطافح فيها شكل التوازن الصوتي قول العسكري في مرثية [4]:

أصبحتْ أوجهُ القبور وضاء وغدَتْ ظلمة القبورِ ضِياءُ

يوم أضْحَى طريدةً للمنايا ففقدنا به الغِنى و الغَناءُ

يوم ظلّ الثرى يضم الثريّا فعدمنا منه السَّنا والسناءُ

يوم فاتتْ به بوادرُ شؤم فرزينا به الثَّرى والثراءُ

يوم ألقى الرّدى عليه جرانًا فحرمنا منه الجَدَا والجداءُ

يوم ألوتْ به هَنَات الليالي فلبسْنا به البلى والبلاءُ

التطريز واقع في ألفاظ: وضاء، غناء، سناء، ثراء، جداء، بلاء، وواقع في: ففقدنا، فعدمنا، فرزينا، فحرمنا، وهو لون بديعي لا يتأتى إلا للحاذق المتمكن، وغير هذا الكثير من فصول البديع، كالتجنيس مثلا، التي قد يحصل التناسب، والتوازن فيها على السبيلين، المعنى، واللفظ، وهو ما ذكره العسكري من أنه هنالك ضرب من التجنيس، تجانس فيه الكلمة الأخرى لفظا واشتقاقا للمعنى، كقول الشاعر[5]:

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 425.

[2]- سورة النمل: الآية:52.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص:425.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص:425-426.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 321.

يوماً خلجْت على الخليج نفوسَهم عَصْبا وأنت لمثلها مُسْتامُ

ثم قال: خلجت: أي جذبت، والخليج: بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهاتان اللفظتان متفقتان في الصيغة، واشتقاق المعنى والبناء»[1]، التوازن المعنوي لصيق بكل أجناس الكلام، شعرا ونثرا، أما الصوتي وإن كان حاضرا في المظاهر النثرية إلا أن حظّه الأكبر في الشعر، وذلك ما أشار إليه أبو هلال، وغيره من النقاد والبلاغيين، والظاهر عناية العسكري بأشكال عديدة للإيقاع، من إيقاع السهولة وانسيابية النطق، وحسن تجاورِ الحروف، والألفاظ، ومنح الكلمات أكبر رصيد من العذوبة، والرشاقة، ونجده في مواضع ينتقد بعض الأوزان مُدليًا شهادته النقدية، مُعلِنًا موقفه، ومراعاته لهذه الخاصية الشعرية، فهو يعيب على الأصمعي، اختياره قصيدة المرقش[2].

هَلْ بالدّيارِ أَنْ تُجيبَ صَمَمْ لو أنَّ حيًّا ناطقًا كَلّمْ

قال: ولا أعرف على أي وجه صرف اختياره إليها، وما هي بمستقيمة الوزن، ولا مُونِقَة الروي، ولا سلسة اللفظ، ولا جيدة السبك ولا متلائمة النسج»[3]، هذه هي مميزات الشعر عنده، وكلها مراعية للوزن والإيقاع فمِمَّا «يُفضل به الشعر أن الألحان التي هي أهنى اللذات، إذا سمعها ذووا القرائح الصافية والأنفس اللطيفة، لا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر، فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة، إلا ضربا من الألحان الفارسية، تصاغ على كلام غير منظوم، نظم الشعر تمطط فيه الألفاظ، فلا ألحان منظومة والألفاظ منثورة»[4]، وهذه الميزة تجعله متقدما على غيره، فلا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب من شعر نادر، منظوم به زِنة الألفاظ، وتمام حسنها، ورونقها، ومن مظاهر زنة الألفاظ أيضا، فصول تكلم العسكري عنها في باب البديع، فصل الترصيع، وهومظهر واضح من مظاهر الوزن المطلوب في نظم الشعر، وهو«أن يكون حَشْوُ البيت مسجوعا، وأصله من قولهم رصعت العقد إذا فصلته»[5]،ومثاله قول امرئ القيس:[6]

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:321.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:03.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 03.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 138.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 375.

[6]- ينظر: علي بن محمد، مختارات من الشعر العربي، دط، منشورات السهل، سنة:2009، ص:21.

سَلِيمُ الشَّظَى عَبْلُ الشَّوَى شنج النَّسا له حجَبات مُشْرِفَاتٌ على الفَالِ

فهو ضرب من السجع يشرط فيه أن يقع في حشو البيت، يتمثل في ارتجاع جزء من صوت الكلمة في نفس الشطر، وقد حصل في بيت امرئ القيس، بكلمتي الشظى والشوى، هما متوازنتان وزنا وإيقاعا، على مستوى الحروف المشتركة (الشين، والألف المقصورة) وكذلك التشطير يقوم على مبدأ التوازن هو الآخر «أن يتوازن المصراعان، والجزآن، وتتعادل أقسامهما»[1] و منه قول البحتري[2]:

شَوقِي إليك تَفِيضُ منه الأَدْمُعُ وجَوًى إليك تضيقُ عنه الأضلعُ

شوقي إليك ⟵ جوى إليك

منه الأدمع ⟵ عنه الأضلع

والملاحظ أن العسكري إذ يقول المصراعين، والجزأين، بذلك يخصّ هذا المبحث بالشعر، لكننا نجده يقدم مثالا منه في النثر، مما يوضح أن الرجل يميل إلى الأوزان المتساوية حتى في النثر، وهذا النوع هو إضافة مؤثرات إيقاعية على بنية النثر[3]، والبحث قد تطرق إلى هذه المؤثرات مع الشرح في مواضع منه، والقصد هنا توضيح أهميتها في تحسين صنعة الشعر، وقبوله من وجهة نظر العسكري.

ومن أهم وجود التحسين أيضا القافية، وهي الواسم الأساسي والحقيقي للشعر، وقد ذكرها العسكري عند ذكره لما يجب أن يتوفر في الراغب لنظم الشعر، فهي قسيم الوزن، في المكونات الأساسية له، بل إن القافية نالت أهمية أعلى، وحظُّ جودتها وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظِّ سائر البيت،[4] وذلك مذهب العسكري، إذ يوليها أهمية عظمى، لكنه يشترط فيها أن يحتملها المعنى الذي نُظِم لأجله الشعر؛ «فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية، ولا تتمكن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقا، وأيسر كُلْفَةً منه في تلك»[5]، وقد وضح ذلك بالتفصيل، بذكر ثلاثة

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:411.

[2]- البحتري، الديوان، شرح: يوسف الشيخ محمد، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 2000، ج1، ص:35، وقد ورد البيت في الديوان بلفظ شوقٌ بدل شوقي وعليك بدل إليك.

[3]- ينظر: فايز مد الله الذنيبات، قضايا الأسلوب والبلاغة عند العسكري في كتاب الصناعتين، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا، جامعة مؤتة، سنة: 2006، ص: 266.

[4]- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 112.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 139.

مواضع تستخدم فيها القافية، فضربٌ منها أن يضيق على الشاعر موضع القافية، فيأتي بلفظ قصير قليل الحروف فيتمم به البيت كقول الشاعر[1]:

أَتَتْني تُؤَنِّبُني في البُكا فأهلًا بها وبتأنيبهَا

تقولُ وفي قولها حشمةٌ تَراني بعين وتبكي بهَا

فقلتُ إذا استحسنتْ غيركم أمرتُ الدموعَ بتأديبهَا

قوله: «تراني بعين وتبكي بها»حسن الموقع جدا، لأنه تحرى القافية، وأتمّ المعنى، لهذا وصفه بحسن الموقع، أما الضرب الثاني أن يضيق به المكان– الشاعر– ويعجز عن كلمة سالمة، تحتاج إلى إعراب ليتم بها البيت، فيأتي بكلمة مُعتلة لا تحتاج إلى الإعراب، فيتمه به[2]، ومن ذلك قول ذي الرمة[3]:

أراح فريقُ جيرتِك الجمالا كأنهم يريدون احْتِمالَا

فكدتُ أموتُ من حَزَنٍ عليهم ولم أر حاديَ الأظغان بالَى

لجوء الشاعر لهذه القوافي، هو خلق لمساحة حرية في النظم، إذ يتم التحرر من قواعد النحو اللغوية التي تفرضها المفردات السالمة في الحركة الإعرابية، أخر موضع هو أن توافق القافية ما تقدمها من ألفاظ، ولم يخصّ العسكري هذا بالشعر فقط، إذ يسميها الفاصلة، ويذكر هنا وجود تناسب دلالي بين الفاصلة وما سبقها من ألفاظ سواء في الرسالة أو الشعر[4] من ذلك قول أبو نواس[5]:

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لبيب تكشَّفتْ لهُ عنْ عدُوٍّ في ثيابِ صديقِ

المعنى أن ذكر العدو يقتضي ذكر الصديق، وسامع البيت يتوقع القافية، حتى قبل سماعها، ليتدخل عمل الدلالة هنا، والعمل البديعي على مستوى الدلالة هو مبحث المطابقة؛ حيث يُذْكَرُ اللفظ وضده (العدو، الصديق)، وبهذا يتوازى عمل الإيقاع الصوتي مع الإيقاع الدلالي، غير أن الوظيفة الإيقاعية لا تُؤَدى على حساب الوظيفة الدلالية للقافية هكذا يتصورها العسكري فاعلةً في الدلالة

[1]– العسكري، الصناعتين، ص: 446.

[2]– العسكري، المصدر نفسه، ص: 447.

[3]– العسكري، المصدر نفسه، ص: 448.

[4]– ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 448.

[5]– أبو نواس، الديوان، ص:466.

والمطلوب أن تكون ركنا في بناء الجملة، وذلك ما تمت الإشارة إليه سابقا في أول ما عرض إليه العسكري في التأسيس لصناعة الشعر، وما يؤكد هذا الطرح أنه وإن اشترط الوزن والقافية لا يقدمهما على الدلالة، وقد ذكر في هذا السياق، عيوب القافية التي لا تفيد، بل هي مستدعاة لأنها تفيد الروي فقط[1]، وكلما أورد العسكري شاهدا شرح كيف اسْتُدْعِيَتْ قافيته لإعمال الروي، وسدِّ الحاجة الإيقاعية، فليس لها قيمة تذكر في معنى البيت كقول أبي تمام[2]:

كالظبيةِ الأدماءِ صافت فارتعتْ زهرَ العرارِ الغضِّ والجثَجاثَا[3]

ليس في وصف الظبية أنها ترتعي الجثجاث فائدة، وسواء رعت الجثجاث، أو غيره من النبت[4] الشاهد أن الشاعر استدعى اللفظة للمحافظة على القافية لا غير، وهذا رديء في قياس الشعر الذي يميل إلى الرونق، والحسن لفظا ومعنى.

القافية إذا أحد أهم المكونات الأساسية للشعر عند العسكري، بل هي شرط قار فيه، شريطة تعبيرها عن المعنى بدقة، فهي بمحافظتها على الرتابة و الجرس الإيقاعي الموسيقي في الشعر تحافظ في المقابل على الإيقاع الدلالي والمعنوي.

2. الابتداءات، المطالع والمداخل:

المتكلم البليغ عامة سواء كان شاعرا، أو خطيبا، أو كاتبا «هو من يبدع ويتفوق في ثلاثة مواضع من خطابه، الابتداء، والتخلص، والانتهاء»[5]

وإن الحديث عن الابتداء يعني« أول ما يقع في السمع من كلامك»[6] فقد ذكر العسكري ما يجب أن يتجنبه الشاعر في ابتداءاته؛ حيث «ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومُفتتح أقواله مما يتطير منه، ويُستجفى من الكلام والمخاطبة، والبكاء ووصف إقفار الديار، وتشتيت الآلاف، ونعي

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص: 450.

[2]- أبو تمام، الديوان، ص:65

[3]- أدماء: سمراء، العرار: نبت، والجثجاث نبت آخر، ينظر: أبو تمام، الديوان، هامش الصفحة 65.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 450.

[5]- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، الطبعة الأولى، كنوز المعرفة، الأردن، سنة: 2014 ، ص: 79

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 435.

الشباب، وذمّ الزمان»[1]، هذه الابتداءات يجب أن تُجانِبَ أغراضا كالمدائح والتهاني، ولا بأس بها في أغراض كالمراثي، ووصف الخطوب الهادئة، يشير العسكري أن المتلقي يتطير من مثل هذه الابتداءات لأن الابتداءات لها وظائف شعرية، وتأثيرية كبيرة، فقد يكون الابتداء مدعاة إلى نجاح الخطاب، أو فشله، حيث إن كان «حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله عز وجل: ألم، وحم، وطس، وطسم، وكهيعص، فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية للاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه»[2]، هذا مدعاة للتفطن لأهمية الابتداء، وقد ذكر العسكري عدة شواهد يجمع فيها أحسن الابتداءات في الجاهلية وفي غير الجاهلية مبينا فضلها، ومكانتها عند متلقي الشعر، وبديعها ابتداءات المتنبي[3]:

أَرِيقُكِ أَمْ مَاءُ الغَمَامَةِ أمْ خَمْرُ بِفِيَّ بَرُودٌ وهُوَ في كَبِدِي جَمْرُ

و قوله:[4]

كُفِّي أَرَانِي وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا هَمٌّ أَقَامَ على فُؤادٍ أَنْجَمَا

يبدو أن العسكري قد أُعجب بابتداءات المتنبي، مع أنه ينتقده في مواضع عدة، فقد أورد من ابتداءاته أكثر من عشرة أبيات، علق عليها في الأخير وقال: «فهذه وما شَاكَلَها، ابتداءات لا خلاق لها»[5]، وهو إذ يتصور هذه الأهمية للابتداء في القول الأدبي عامة، والشعر خاصة، لا يحصر ذلك على سبيل الحسن والرونق، وإظهار تمكن الشعراء، بل يتصور دورا آخر يقوم به حسن الابتداء هو الإعلان عن مغزى الشعر منذ بدايته، فيكون صدر الكلام دليل على حاجته ومبين لمغزاه ومقصده «كما أن أبيات الشعر ما إذا سمعت صدره عرفت قافيته»[6]، بأن يأتي الشاعر في صدر كلامه بما يمهد لما سيأتي من الشعر.

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 431.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 437.

[3]- المتنبي، الديوان، مراجعة: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة: 2005، ص: 97.

[4]- المتنبي، الديوان، ص: 213.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 437.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 442.

3. حسن التخلص والخروج:

هو الانتقال من غرض في الشعر إلى غرض آخر، «وكانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار، والبكاء عليها، والوجد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: فدع ذا وسل الهم عنك بكذا كما قال[1]:

فدعْ ذَا وسَلْ الهمَّ عنكَ بِحسْرةٍ دمول إذا صامَ النهارَ وهَجَرَا

وهذا نموذج لحسن التخلص مستحسن عند أبي هلال، ويذكر غيره من نماذج هي ليست قواعد للخروج في الشعر، بل تأتي هكذا عفو الخاطر، وقد استشهد بشعر لعلقمة، جمع فيه بعض هذه النماذج، وهي في قوله [2]: وربما تركوا المعنى الأول وقالوا: وعيس، أو هوجاء، وما أشبه ذلك كما قال علقمة:

إذا شابَ رأْسُ المرءِ أو قَلَّ مَالُهُ فليسَ لهُ في وُدِهِنَّ نَصِيبُ

وعَنْسٍ بريانِها كأن عُيُونَها قوارير في أدهانهن نُصوبُ

فإذا أرادوا ذكر الممدوح قالوا: إلى فلان ثم أخذوا في مديحه، كما قال علقمة[3]:

وناجيةٍ أفنى ركَيبَ ضُلُوعِها وحَارِكِهَا تَهَجُّرٌ ودروبُ

وتُصْبِحُ عَنْ غَبِّ السرى وكأنها مُوَلّعة تخشى القنيصَ شَبُوبُ

فوصفها ثم قال:

إلى الحارثِ الوهابِ أعملْت نَاقَتِي لِكَلْكَلِهَا والقُصْرَيَيْنِ وَجِيبُ

ثم بعد هذا ينوِّه بأن الشاعر قد يستعمل أسلوبا آخر غير ما ذكر سابقا، وهو أن ينتقل من المعنى الأول إلى المعنى الثاني مباشرة، من ذلك قول النابغة[4]:

---

[1]- ينظر، العسكري، الصناعتين، ص: 452.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 452-453.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 452.

[4]-النابغة الذبياني، الديوان، شرح وضبط: عمر فاروق الطبّاع، دط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دت، ص:83، وقد جاء البيتان في هذه الطبعة من الديوان بلفظة المشيب بدل الفؤاد، ولفظة شاغل بدل داخل.

على حينَ عَاتَبتُ الفؤادَ على الصِّبا وقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَيْبُ وَازِعُ

وقدْ حالَ هَمٌّ دُونَ ذلكَ داخلٌ ولوجَ الشّغافِ تَبْتَغِيهِ الأصابِعُ

وعيدُ أبو قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ أتاني ودوني راكسٌ فالضَّواجِعُ

انتقل مباشرة دون استعمال أي وسيلة تمهد للانتقال، مع ذلك جاء المعنى حسنا واضحًا لا يظهر عليه عدم التناسق.

ومن الخروج أيضا، خروجٌ متصل بما قبله، وهو بقاء على نفس خط المعنى، رغم تغيير الغرض، ومنه قول دجانة ابن عبد قيس التميمي:[1]

وقال الغَوَانِي قد تَضَمَّر جِلْدُهُ وكانَ قَدِيمًا ناعمَ المبتذّلِ

فلا تَأْسَ أني قد تَلافيْتُ شَيْبَتِي وهزَّ الغَوَانِي من شَمِيطِ مُرَجَّلِ

بمشرفَةِ الهادي نبذّ عِنَانِهَا يمينَ الغلامِ الملجمِ المتدلِّلِ

فوصل وصف الفرس بما تقدم من وصفه الشيب وصلا [2]؛ انتقال جميل جدا لم يضر بشعرية الأبيات، وإن اختلف الغرض.

4. **المقطع الأخير**: الخروج النهائي للشعر، الاختتام وهو«أن يختم البليغ كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم لأنها- أي الخواتم- آخر ما يبقى في الأسماع[3]، وهو عند العسكري بنفس أهمية الابتداء، أو الاستهلال، حيث يقول: «والابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعا مونقين»[4]، يحرص عليهما معا في بناء الشعر، «وإن كان العسكري يؤكد على الجانب الجمالي وتأثيره النفسي، فهو يسجل أن الاختتام هو البؤرة الدلالية التي تقوم بتكثيف مقاصد الخطاب»[5] وقد استعمل مصطلحا أوسع وأشمل، وهو المقطع الذي هو نهاية أي جزء من أجزاء الخطاب ومقاطعه، سواء كانت عبارة، أم بيتا شعريا، أم فاصلة، أم

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 453.

[2]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 454.

[3]- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات، ص:42.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 435.

[5]- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص:83.

قافية[1]؛ أي نهاية الفكرة في أي جزء من الخطاب، واكتفائها واكتمالها عند ذلك المقطع، وكأنه اختتام لكل جزء، أو نتيجة لكل جزء للوصول إلى المعنى الكلي للخطاب، «وكان شبيب بن شبة يقول: الناس موكّلون بتعظيم جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا مُوكّل بتعظيم جودة المقطع، وبمدح صاحبه، وخير الكلام ما وقف عند مقاطعه، وبيّن موقع فصوله»[2]. كما اقترح أبو هلال أن يقطع الشاعر كلامه على معنى بديع أو لفظ حسن رشيق، أو مثل سائر؛ «فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها، كما فعل ابن الزِّبَعري في آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبي ﷺ، ويستعطفه:

فَخُذْ الفضيلةَ عن ذُنوبٍ قد خلت واقبلْ تضرع مستضيفٍ تائبِ

فجعل نفسه مستضيفا، ومن حق المستضيف أن يُضاف، وإذا أضيف فمن حقه أن يُصان وذِكر تضرعّه، وتوبته مما سلف، وجعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة، فجمع هذا البيت جميع ما يحتاج إليه في طلب العفو»[3]ن وكان آخر الكلام أجوده، وألصقه بالنفوس؛ بالتالي حقق الغرض المنشود من نظم القصيدة في الأساس.

3. 1. 2- أغراض الشعر عند العسكري:

يبدأ العسكري حديثه عن أغراض الشعر بالإشارة إلى توعُصِ إحصائها، لأن المعاني في الشعر متشعبة جمّة، لا يبلغها الإحصاء، وقد اقتصر على ذكر ما هو أكثر استعمالا، وهو«المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والمراثي، والفخر»[4]، ومن هذه الأغراض ما لا يتم معناه ويكتمل فحواه إلا إذا صِيغَ شعرا، «فإن الإنسان إذا أراد مدح نفسه، فأنشأ رسالة في ذلك، أو عمل خطبة فيه، جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر احْتُمِل»[5]، ومن ذلك أيضا «أن صاحب الرياسة، والأبهة لو خطب بذكر عشيق له، و وصف وَجْدَه به، وحنينه إليه، وشُهرته في حبه، وبكاءه من أجله

[1]- ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات، ص:83.

[2]- العسكري، الصناعتين، ص: 442.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص:443.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 131.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 139.

لأَسْتُهْجِنَ منه ذلك وتنقّص به فيه، ولو قال ذلك شعرا لكان حسنا»[1] إذا للشعر أغراضه الخاصة التي لا تُؤتِي أُكلَها إلا إذا وُضِعَتْ في قوالبه.

1. **المديح**: وهو غرض يجمع أغراضا أخرى تحت مفهومه حسب العسكري، وهي الرثاء، والفخر «فالفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحِلمِ والعلم، والحَسَب، وما يجري مجرى ذلك، والمرثية مديح الميت، والفرق بينها وبين المديح أن تقول كان كذا وكذا، وتقول في المديح هو كذا، وأنت كذا»[2]، هما مشتركان إذا في تحصيل القيم.

وقد حرص العسكري على تعليم صانع الشعر الطرق والأساليب الأكثر نجاعة وتأثيرا، فوضح الفروق بين هذه الأغراض، فإن كان من الواجب توخي الشاعر في المرثية ما يتوخاه في المديح، فإنه إذا أراد أن يذكر الميت بالجود والشجاعة يقول مات الجود، وهلكت الشجاعة، ولا يقول:كان فلان جوادا، وشجاعا، فإن ذلك بارد، وغير مُسْتَحْسَن[3]، والملاحظ أن أبا هلال لم يخصص فصولا لأغراض الشعر، لكنه لا يفتأ يذكر بعض الجوانب المسْتحسنة أو المسترذلة في كل نوع، فنجده بالنسبة للمديح يذكر مثلا مما يعاب منه قول الأعشى[4]:

وَيَأْمُرُ لِلْيَحْمُومِ كُلَّ عَشِيَّةٍ بِقَتٍّ وتَعَلِيقٍ فَقَدْ كانَ[5] يَسْنَقُ

يعني باليحموم فرس الملك، يقول أنه يأمر لفرسه كل عشية بقتّ، وتعليق، وهذا مما لا يمدح به الملوك، بل و لارجل من خساس الجند[6]

و من ذلك أيضا قول كثير[7]:

وإنّ أَميرَ المؤمنينَ بِرِفْقِهِ غَزَا كَامِناتِ الوُدِّ فَنَالَهَا

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 139.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 131.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 131.

[4]- الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، الديوان، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 1987، ص: 119.

[5]- في الديوان وقد كاد.

[6]- ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 74-75.

[7]- العسكري، المصدر السابق، ص: 75.

فجعل أمير المؤمنين يتودَدُ إليه[1]، ولا يلبث العسكري يذكر البديل، وما يجب أن يكون عليه المديح، إنما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر[2]:

لهُ هِمَمٌ لا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وهِمتُه الصُّغْرَى أَجَلُّ من الدَّهْرِ

لهُ راحةٌ لو أن مِعْشَارَ جُودِهَا على البَرِّ كان البَرُّ أَنْدَى من البَحْرِ

2. **الهجاء:** هو سلب الصفات المستحسنة التي تحتضنها النفس، وتثبيت الصفات المستهجنة التي تحتضنها أيضا[3]، وما يُستحسن بالنسبة لهذا الغرض حسب العسكري، الصفات التي تلتصق بالنفس لا بالجسم والمظهر «والاختيار أن يُنْسَبَ المهجوّ إلى اللؤم والبخل والشره وما أشبه ذلك، وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه، وصغر الحجم وضؤولة الجسم»[4]؛ هذا يضعف الشعر ويوغِله في المبالغة والغُلو، إذ لا فائدة من هجاء الرجل بشكله، لأنه لا يدّ له في اختيار شكله، وإن الله عزّ وجلّ هو من صوره كذلك، وإنما خُلُقُهُ وصنيعة في طبعه هو الداعي إلى هجائه، إذا كان غير حسن، ومن جيد الهجاء قول أبي تمام[5]:

ملقِي الرجاءِ وملقِي الرَحْلِ في نَفَرٍ الجُودُ عندَهُمُ قوْلٌ بلا عَمَلِ

هذا هجاء جيد لما أصاب من سلبٍ للصفات الحميدة في النفس لهؤلاء القوم، أما قبيحه، وهو متناول الصفات الحسية مثل قول القائل:[6]

رَأَوْهُ فازْدَروه وهو خِرْقٌ ويَنْفَعُ أَهْلَهُ الرجلُ القَبِيحُ

هذا هجاء لشكل الرجل، لذلك أنقص من جودة الشعر، في تصور العسكري.

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 75.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 75.

[3]-ينظر: العسكري، نفسه، ص: 104.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 104.

[5]- أبو تمام، الديوان، ص:235 .

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 104.

3. الوصف: هو«ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوّر الموصوف لك فتراه نُصْبَ عينيك»[1] وهذا أجوده، وذلك مثل قول الشماخ في نبالة[2]:

خَلَتْ غيرَ آثار الأَرَاجيلِ ترتمي تَقَعْقَعُ في الآبَاطِ مِنْهَا وفَاضُهَا

يصف البيت هرولة الرجالة، ووفاضُها في آباطها تتقعقع، ووفاض جمع وفضة وهي الجُعبة[3] ونلاحظ أن العسكري يختار أبياتا معينة في مواضع مختلفة، ولأغراض مختلفة يذكرها، ويبين جودتها أو خطَلها، ليبين مذهبه في نقد الشعر؛ فالجيد في الوصف أيضا قول ابن النجم[4]:

جُرْدًا تعادَى كالقِدَاحِ ذُبُله نَطيَ اللحمِ ولسْنَا نُهْزلهْ

نَطْويهِ والطيّ الدَّقيق يَجْدُلُهُ طيّ التجَار العَصْبَ إذْ تُبَجِلُهْ

حَتَى إذا اللحمُ بدَا تَذَبُّلُهْ وانْضَمَّ علنْ كلِّ جَوَادٍ رَهَلُهْ

أراد بوصفه هذا، أن هذه الفرس بعد أن ضمرت ذهب رهلها واشتّد لحمها.

أما خطَل الوصف، فيقع عند العسكري في مثل قول الشاعر[5]:

قَصَرَ الصَّبُوحُ لها فَشَرَّجَ لَحْمَهَا بالنَّيِّ فهيَ تَثُوخُ فِيهَا الإِصْبَعُ

تَأْبَى بِدِرَّتِها إذا ما اسْتُكْرِهَتْ إلا الحميــمَ فإنهُ يَتَبَضَّـعُ

قال الأصمعي: هذه الفرس لا تساوي درهمين، لأنه جعلها كثيرة اللحم، رخوةً تدخل فيها الأصابع وإنما يوصف بهذا شاة يضحى بها، وجعلها حرونا، إذا حركت قامت، إلا العرق فإنه يسيل، وهذا معنى الحميم فإنه يتبضع[6].

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 128.

[2]- العسكري، المصدر نفسه ، ص: 128.

[3]- العسكري، المصدر نفسه ص: 128-129.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 78-79.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 78.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، الهامش، ص: 78.

وإن أبا هلال في منهجه التأليفي كما ذُكِرَ سابقا لم يخصِّصَ فصولا لشرح الأغراض، لكنه لا يفتأ يستحضر شواهد تُبيّن أسس كل غرض، وما يستحب له، ليكوّن نظرية نقدية تجهز الشعراء لنظم القوافي، ومعرفة ما يجب لكل غرض.

4. **النسيب:** هو ما يكون دالاً على شدة الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، ويكون بريًّا من دلائل الخشونة، والجلادة، وأمارات الإباء والعزة، ومن أمثلة ذلك قول الشيص:[1]

وَقَفَ الهوَى بي حيثُ أنتَ فليسَ لي مُتأَخَرٌ عنهُ ولا مُتَقدَمُ

أَجِدُ الملامَةَ في هواكِ لذيذةً حبًا لذكركِ فْلُيَلُمْنِي اللَّوْمُ

أشْبَهْتِ أَعْدائِي فَصِرْتُ أُحِبُّهُمْ إذا كان حَظِّي منكِ حظِّي مِنْهُمُ

وهذا كما وصف العسكري، غاية التهالك في الحب، ونهاية الطاعة للمحبوب[2]، ومن مُستحبِّ التشبيه أيضا، أن يتضمن ذكر التشوق، والتذكر لمعاهدة الأحبة، بهبوب الرياح، ولمع البرُوق، وما يجري مجراها من ذكر الدِيار والآثار [3]، ومن الشعر الدال على شدة الحصرة والشوق قول الآخر[4].

يقرُ بِعَيْنِي أن أرَى رَمْلةَ الغَضَا إذا ما بَدَتْ يَوْمًا لِعَيْنِي قلَالُهَا

ولستُ وإنْ أحْبَبْتُ من يسكُن الغَضَا بأَوَّلِ رَاجٍ حَاجَةً لا يَنَالُهَا

وأما أجود ما قيل في الديار من مختارات العسكري قول الأزدى:[5]

فلمْ تَدَعْ الأَرْيَاحُ والقَطْرُ والبَلَى من الدارِ إلاّ ما يشفّ ويَشْغُفُ.

يستمر العسكري في ذكر شواهد متعلقات النسيب، من ذكر البروق والديار، وشدة التحصر والحنيين ...الخ ، ويذكر في مواضع مختلفة سيء النسيب الذي يخرج عن ما ذكره وضبطه كقول جناده[6].

---

[1]- ينظر:العسكري، الصناعتين، ص: 129.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 129.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 129.

[4]- ينظر:العسكري، المصدر نفسه، ص: 130.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 130.

[6]- العسكري ، الصناعتين، ص: 76.

مِنْ حُبِّهَا أَتَمَنَّى أنْ يُلاَقِينِي مِنْ نَحْوِ بَلْدَتِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا
لِكَيْ يَكُونَ فِرَاقٌ لا لِقَاءَ لَهُ وتُضْمِرَ النفسُ يَأْسًا ثم تَسْلاَهَا

فإذا تمنى المحب لحبيبته الموت ، فما عسى أن يتمنى المبغض لبغيضته.

عموم ما يدعو إليه العسكري في كل أجناس الكلام، جودة الرصف والتئامه، أو كما لخص هو حسن التأليف، وجودة التركيب، هذا ما يهم الصنعة بالأساس، ثم تأتي بعض الملاحظات التي يجب على الشاعر توخيها في مراعاة الوزن والقافية ومراعاة خصوصية أغراض الشعر،كلاً حسب ما يحتاج إليه.

3 . 2- **الخطابة** :

للخطابة شأن عظيم في الثقافة العربية، فقد أخذت مكان الأداة التي تحقق الأمن والسلام والسلاح الذي يهجو بالمطاعن والمعايِب، ويشيدُ بالمفاخرِ والمناقب، هذا ما ميزّ العرب الذين اتخذوا الخطابة سبيلا للتعبير عن تلك الخلجات في شكل خطابة مُفاخرة وخطابة مُنافرة[1].أخذت الخطابة مكانها كجنس من أجناس الكلام الرئيسية، الشعر والرسائل، يقول العسكري مفرقا بين الأجناس الثلاثة: «واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولاتقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما؛ إلا أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة، ولا يتهيأ كل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلا بكلفة، وكذلك الرسالة والخطبة، لا تجعلان شعرا إلا بمشقة»[2].

هذا فصلٌ في خصائص كل جنس، فالرسالة والخطبة متشابهتان والشعر مختلف عنهما تماما، لكن العسكري يتصور منهجا موحدا عن تأليف الكلام عامة، والذي يجمع الأجناس الثلاثة، «فإذا أردت أن تصنع كلاما فأَخطر معانيه ببالك، وتنوَّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب

[1]-ينظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 123.
[2]- العسكري، المصدر السابق، ، ص: 136.

عليك تناولها، ولا يتعبك تطلُّبُها»[1] ؛ يعني أن التأليف عنده لا يختلف حسب الجنس، فهو منهج موحد، وفي ذلك أورد هو الأخر صحيفة بشر التي أوردها الجاحظ قبله؛ والتي تؤسس لإنتاج البلاغة العربية بصفة عامة.

قد اختصر العسكري خصائص الخطبة، والخطيب في النص التالي: «رأس الخطابة الطبع، وعمودمها الدُّربة، وجناحها رواية الكلام، وحَلْيُهَا الإعراب، وبهاؤُها تخير الألفاظ»[2]، وكلها كفايات تتعلق بتكوين الخطاب عامة.

1- **الطبع والدربة:** أن يكون الخطيب متعودا متمرسا على إلقاء الخطب، فإذا تحقق هذا ابتعد الخطيب عن التكلف، فإذا كان مطبوعا، جاءت خطبته عفو الخاطر، لا يتحمل عبء شدة إعمال الذهن في تلك اللحظة، حتى يباعد التكلف، فلا يعيبه بذلك أحد، وإذا تكلف الخطيب الكلام، ولم يكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لشأنه بصيرا، عابه من هو أقل عيبا منه، وزرى عليه من هو دونه[3]، هذا التكلف يولد اضطرابا، واستغلاقا في الكلام، لكن إذا كان الخطيب حذقا متمرسا كان «رابط الجأش، ساكن النفس جدا، لأن الحيرة والدهش، يورثان الحُبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج، والإجبال»[4]، وهي أمور نفسية تنبه إليها العسكري، فالخطيب إذا كان غير متمكن واثق من قدراته الخطابية، اعترته الحيرة، و تعذّر عليه الكلام وهو يريده.

يذكر العسكري حذق بعض الخطباء الذين يحسنون الاعتذار عند الإرتاج، فيخرجون من المأزق وبنتاج عمل أدبي يذكرون به، وإن استغلق عليهم موضوع الخطبة التي كانوا بصدد إلقائها، ومن ذلك أورد العسكري ما أخبره به أبو أحمد(...) قال خطب داوود بن علي، فحمد الله عزّ وجلّ، وأثنى عليه ،وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قال: « أما بعد» امتنع عليه الكلام، ثم قال: أما بعد فقد يجد المعسر، ويعسر الموسِر، ويُفَلُّ الحديد، ويقطع الكليل، وإنما الكلام بعد الإفحام، كالإشراق بعد الإظلام، وقد يعزُب البيان، ويعتقم الصواب، وإنما اللسان مُضغة من الإنسان، يفترُ بفتوره إذا نكلَ، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل. ألا وإننا لا ننطق بطرا، ولا نسكت حصرا، بل نسكت

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 133

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 58.

[3]- ينظر العسكري ، المصدر نفسه، ص: 135.

[4]- العسكري ، المصدر نفسه، ص: 21.

معتبرين، وننطق مرشدين، ونحن بعدُ أمراء القول، فينا وشجت أعراقُه، وعلينا عطَفَت أغصانُه، ولنا تهدّلت ثمرته، فنتخير منه ما احْلَوْلى وعذب، ونطرح منه ما امْلَوْلَحَ وخبُث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب، ثم نزل.»[1] هذا خطيب غلبت عليه الدربة، والطبع، فأحسن الاعتذار عند إرتاجه، فخرج بخطبة رائعة نجا بها من الحُبسة التي وقع فيها.

2-**رواية الكلام**: وهي أيضا من أهم الكفايات التي يجب على الخطيب أن يتنبه إليها، ويمتلك ناصيتها، «ومن لم يكن راوية لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته»[2]، لأن الفعل الخطابي يستدعي استحضار تجارب أدبية سابقة قوية التأثير يعزّز بها خطابه، فيتحقق الغرض منه، وهو الإفهام، والتأثير والإقناع، وكلما كان الخطيب أكثر حفظا، واستحضارا لنصوص معينة، متناسبة وموضوع خطبته، استطاع إخراجها في أحسن وجه، وامتلك القدرة على إقناع مخاطَبيه، فحاجة كل متأدب بلغة العرب، أو ناظر في علومها ماسة وفاقته إلى الرواية شديدة[3]. والعسكري يركز على رواية الشعر لارتباط الرواية بالشعر أصلا.

3-**الإعراب**: إذا كان الإعراب في ذاته يطلع بالإبانة عن المعاني، و يوضح أغراض المتكلمين، وهذا من أول مطالب البلاغة أيضا، بالتالي فإن معرفة الإعراب شرط أساسي في التأليف عامة، وقد أسند العسكري هذه الكفاية إلى طرفي الخطاب، مُخاطِبًا، ومُخاطَبًا، فعندما يصف الخطابة ويقول: وحليها الإعراب، يقصد قدر المخاطب على نسجها وفق الإعراب في اللغة، وعندما يصرح إن المتكلم إنما يتكلم بفاخر الكلام ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه، ويقبله منه ممن عرف المعاني والألفاظ علما شافيا، لنظره في اللغة والإعراب، والمعاني من جهة الصناعة[4] ويصرح بشرط معرفة الإعراب لدى المتلقي أيضا، حتى يقف على بلاغة الخطيب، فإذا كان الخطاب موجها إليه أصلا، فهو المخوّل بالحكم عليه، وحكمه هذا يكون على أسس معينة، منها هذا الشرط.- الإعراب-

4-**التقسيم الطبقي للمخاطبين**: هذه المسألة لا تخص الخطابة وحدها، بل تخص البلاغة عامة، وهي أن تُكَلَّمَ كل طبقة بما يناسبها من كلام؛ «فكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في

[1]- العسكري ، الصناعتين ، ص: 22.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 138.

[3]- ينظر: العسكري ، المصدر نفسه، ص: 138.

[4]-ينظر:العسكري، المصدر نفسه، ص: 32.

طبقات»[1]؛ لذلك وجب على المخاطِب وهو بصدد بناء خطبته، أن يأخذ بعين الاعتبار نوعية مخاطَبه، فيكون الخطاب «على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام، أو الخواص»[2]؛ ويعني مصطلح العامة ومصطلح الخاصة معانٍ عديدة، فالعامة تعني عند البلاغي الناس، يقول الجاحظ: «وإذا سمعتموني أذكر العوام ، فإني لست أعني الفلاحين، والحشوة، والصُنّاع، والباعة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البربر والطيلسان، مثل موقان، وجيلان، ومثل الزنج، وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورون، من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند ، والروم، والباقون همج، وأشباه الهمج، وأما العوام من أهل ملتنا، ودعوتنا، ولغتنا، وأدبنا، وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منّا»[3]، أما الخاصة فهي الطبقة العليا في المجتمع، وتتألف من الأسياد، والملوك، والخلفاء، والوزراء، والكتاب، والأمراء، وقواد الجيش، والقضاة، والعلماء، ورجال الأدب[4].

هذا صرف لمفهوم الخاصة والعامة إلى الزاويتين السياسية والاجتماعية، تراعي الزاوية الأولى من حيث المعاني والألفاظ، «فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كل واحد منهما في الكلام وأحسن الذي قال لكل مقام مقال»[5]. أما الزاوية الأخرى فتهتم بمراعاة الألفاظ أكثر حيث لا تستعمل ألفاظا غريبة مبهمة، فلا يتجاوز الخطاب لما يعرفه المتلقي إلى مالا يعرفه، وهنا تذهب فائدة الكلام ومنفعة الخطاب[6]، على الخطيب إذا أن يكون ضليعا في موضوع خطبته، متمكنا منه، وعليه مراعاة جمهوره، وأحواله في استخدام ما يناسب فهمه من الألفاظ، والمعاني التي تناسب طبقته، فإن هذا من دواعي نجاح الخطبة أو فشلها.

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 138-139.

[2]-الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، ص:105.

[3]- الجاحظ، المصدر نفسه، ص: 137.

[4]- ينظر : حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 287-288-289.

[5]- العسكري، الصناعتين، ص: 27.

[6]- ينظر العسكري، المصدر نفسه ، ص 29

3 . 3- **الرسائل** :

خصص أبو هلال فصلا كاملا ضمن باب معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ: فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته، وأشار في البداية أن «الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة، وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ، وإصابة المعاني، وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة، بالأزمنة والشهور، والأهلة، وغير ذلك (...) والمعرفة بصنعة الكلام، وهي أصعبها وأشدُّها»[1].

إنه يحضِّر كاتب الرسائل بالوسائل التي يحتاجها، وهي مشتركة مع باقي الأجناس الأدبية في تخير اللفظ والمعنى، ومراعاة مقتضى الحال، مثلما هو الحال في الخطابة، فهما متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصلها تتشاكل، فلا فرق بينهما غير أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها، وقد تمت الإشارة سابقا إلى تفريق العسكري بين الأجناس، والملاحظة الأوضح قرب الرسالة والخطبة من نفس المآخذ حتى أنهما تشتركان في الاختصاص بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار، وإن كان للخطابة الحظ الأوفر في أمر الدين[2]، إضافة أيضا إلى مسالة مقتضى الحال، «فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتاباتك، مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم، وقُوّتِهم في المنطق»[3] والمراعاة هنا أكثر تعقيدا كما أشار جميل عبد المجيد، حيث أن مكونات الاتصال في الرسالة، تتسع لتشمل على الأقل مكونين معا، ذلك أن الحال المأخوذة بعين الاعتبار في بلاغة الكتابة واحدة من ثلاث[4] موضوع الرسالة وكاتبها (معا)، موضوع الرسالة والمكتوب إليه (معا)، والكاتب والمكتوب إليه وموضوع الرسالة معا.[5]

بالنسبة لموضوع الرسالة وكاتبها، يقول العسكري : «واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها، الأمر والنهي، وسبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلم لا من جهة كثيرة اللفظ، لأن

[1]-ينظر: العسكري، الصناعتين، ص: 154.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 136.

[3]-العسكري ، المصدر نفسه، ص: 154.

[4]- ينظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص :27.

[5]- ينظر: جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص: 28-29

حكم ما ينفذ السلطان في كتبه شبيهة بحكم توقيعاته، من اختصار اللفظ، وتأكيد المعنى، هذا إذا كان الأمر والنهي، واقعين في جملة واحدة، لا يقع فيها وجوه التمثيل للأعمال، فأما إذا وقعا في ذلك الجنس، فإن الحكم فيها يخالف ما ذكرناه، وسبيل الكلام فيها أن يحمَلَ على الإطالة والتكرير، دون الحذف والإيجاز، وذلك مثل ما يُكتب عن السلطان من أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدم فيها ذكر ما رآه السلطان في ذلك ودبّره، ثم يعقّب بذكر الأمر بامتثاله، ولا يقتصر على ذلك حتى يُؤَكّد ويكرر لتأكّد الحجة على المأمور، ويحذر من ذلك الإخلال والتقصير»[1].

فالرسالة تكتب وتصاغ حسب موضوعها أولا، وحسب صاحبها فهو له خصوصية في صياغته، وله أسلوبه، ومثّل العسكري صاحب الرسالة بالسلطان في النص السابق، فهو له خصوصية في رسائله، تشبه خصوصية توقيعاته، التي تتسم باختصار اللفظ، وتأكيد المعنى، وهنا ينتبه العسكري أن خصوصية السلطان ورسالته تتبع هذه الخطة، وفقا طبعا للموضوع والغرض الذي كُتبت لأجله الرسالة، فحال الاختصار في اللفظ وتركيز المعنى، يخص مواضيع الأمر والنهي، أما إذا كان الموضوع في وجوه التمثيل للأعمال فالحكم هنا يتغير، وتصبح الإطالة والتكرير مطلبا أساسيا وأكيدا وكل ذلك بداعٍ تداولي واضح يتجلى في التكامل بين موضوع الرسالة وكاتبها.

وأما موضوع الرسالة والمكتوب إليه معا، وهنا يكون شكل الرسالة، متوقف على موضوعها ووضع المكتوب إليه، أي أن شكلها يتحدد أولا بالغرض الذي كتبت لأجله، فإذا كتبت للإحماد والإذمام والثناء والتّقريظ، والذمّ والاستصغار، والعدل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن تُشْبِعَ الكلام فيه وهذا أيضا خاضع لوضعية المتلقي(المكتوب إليه)، فالمدُّ في القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة، والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع[2]، إذًا يفرض نوع المتلقي موضوع الرسالة وأسلوبها.

ثم أخيرا الكاتب، والمكتوب إليه، وموضوع الكتاب معا، يقول العسكري محددا الأطراف الثلاثة: «فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإن سبيل ما كان واقعا منها في إنهاء الأخبار وتقرير صور ما يَلُونَه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال أن يُمَدّ القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع، وتمام الشرح والاستقصاء؛ إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع، ويكون

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين ، ص:156.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 156.

ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأخذ، السريعة إلى الفهم، دون ما يقع فيه استكراهٌ وتعقيد، وربما تَعْرِضُ الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية عن الشيء دون الإفصاح؛ لما في التصريح من هتك الستر في حكايته عند عدو أطلق لسانه به، وفيه اطِّراح مهابة الرئيس؛ فيجب إجلاله عنه؛ وفي الصدق ما يسوؤه سماعه، ويقع بخلاف محبته، فيحتاج منشئ الكلام إلى استعمال لفظ في العبارة لا تنخرق منه هيبة الرئيس، ولا يعترض فيه ما يشتدُّ عليه، ولا يكون أيضا معها خيانة من طي ما لا يجب ستره، ولا يكمل لهذا إلا المبرِّز الكامل المقدّم»[1].

يحدد العسكري في النص السابق، الكاتب وهم العمال، والمكتوب إليه، وهم الأمراء، ومن فوقهم، ثم يقول فإن السبيل ما كان واقعا منها، فيحدد موضوعها، ثم يبدأ برصد الأسس التي يجب أن تكون متوفرة في هذا الموضوع المكتوب من طرف واضح ومحدد، والمرسل إليه طرف واضح ومحدد أيضا، وهو يوضح بالشرح الدقيق كيف يجب على الكاتب أن يتصرف في كل موقف، ففي حال كتب في توصيل الأخبار، ووضع التقارير عن الأعمال المنجزة، عليه أن يحلي رسالة بالإطناب، حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع على حد تعبير العسكري، كما تستدعي مواضع أخرى الإيجاز، واستعمال التعريض بدل التصريح، وفي موضوع مثل من تعرض للسلطان بالنقد أو الهجاء، فلا يصحُّ أن يعيد الكاتب نفس المعنى في كتابه بتفاصيله، بل عليه أن يستعمل الكناية والتعريض دون التصريح.

ثم يقوم العسكري بذكر خصائص كل باب من أبواب الرسائل، فباب الشكر يستحب أن يبتعد عن الإسهاب الذي يجعل الرسالة مملة وثقيلة لدى المرسل إليه، ويستمر العسكري في إعطاء الملاحظات تباعا، فيما يخص غرض الشكر، ويشير إلى استحسان عدم الإكثار من الثناء، والدعاء، الذي قد يغير الاتجاه من غرض الشكر إلى غرض الكسب من تقريظ الملوك، وإطراء السلاطين، بل ويدخل العسكري في مفاصل الرسالة التي غرضها الشكر، أن يتجنب كاتبها أو مُلقيها تكرار الدعاء في صدرها «فيقبح من خادم السلطان أن يشغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء وتكثيره عند استئناف كل لفظة.»[2]

أما ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف، وهذا ذكر للمرسل، والمرسل إليه وموضوع الرسالة فسبيله «ألا يكثر من شكاية الحال ورقتها، واستيلاء الخصاصة عليه فيها، فإن ذلك

[1]- العسكري، الصناعتين ، ص: 157.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 157.

يجمع إلى الإبرام، والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلة ظهور نعمته عليه، وهذا عند الرؤساء مكروه جدا، بل يجب أن يجعل الشِكَايَة ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة، وتوفير العائدة»[1]، وهذا مراعاة لموقع المرسَل إليه الذي لا يجب أن يُستثار غضبه، فعلى المرسِل توخي هذه المسائل، فلا يبدأ رسالته بالشكاوى مباشرة، بل عليه المزج بينها، وبين النعم التي يحظى بها من كرم السلطان، وفضله عليه، فيوصل رسالته، ويحقق الغرض منها، دون أن يغضب السلطان، لأن السلاطين لا تحبذ الشكاوى، التي قد تكون رسالة أخرى لهم تعبر عن تقصيرهم في حقوق رعيّتهم، وهكذا يكون العسكري قد هيأ كاتب رسالة الاستعطاف بما يحتاجه في أسلوبه، ليكتب رسالة مقنعة.

أما الاعتذار فسبيله أن يُتَجنّب فيه الإطناب، والإسهاب أيضا، فيستعيض الكاتب بذلك بالنكت التي تحوي حججه، فيقنع بها السلطان، وعليه أن لا يزكي نفسه تماما، بل يتلطف في الكلام، ليظهر براءته، بين حواشيه، من خلال إثبات طاعته للسلطان، بأن يعترف بخدمته، والاعتذار من تقصيره في أداء حقوقه، وفروضه، حتى يكون له فيما يعقب ذلك من العفو والتجاوز موضع منّة.[2]

العسكري عموما يدعو إلى التفريق بين طبقات المرسل إليهم، كما يصف مجموع الملاحظات التي يجب التقيد بها حسب كل غرض من أغراض الرسائل، وهو إذ يتكلم عن كل جنس من أجناس الكلام يشير إلى القانون العام الذي يجب التقيد به، وهو حسن التأليف، وجودة التركيب، لما لها من دور أساسي في صناعة الكلام عامة.

4- قضايا البلاغة عند العسكري:

4 .**1- مستويات الكلام:** تنبه العسكري إلى وجود نمطين من التشكيل اللغوي، نمط عادي، متداول بين عامة الناس، وآخر غير عادي، وهو الذي تُنتهَك فيه اللغة فيعدل بها عن المعنى المألوف، وقد كان الأسلوبيون «قد نظروا إلى اللغة في مستويين، مستواها المثالي في الأداء العادي، والثاني مستواها الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها»[3]، تحيِّين هذا الأسلوب، وفرادته يتأسس عند العسكري بدعوته إلى مراعاة حال المخاطبين أثناء صياغة النص؛ فالكلام العادي يوجه

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 158.

[2]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 158.

[3]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، دط، الهيئة العلمية لصناعة الكتاب، مصر، ص: 198.

إلى مخاطَبين معنيين، قصد افهماهم، وإقناعهم، فيختص بمخاطبة «السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به بما يعرفه إلى مالا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتُعْدَمَ منفعةُ الخطاب»[1] على حدّ تعبير العسكري، هذا مستوى من الكلام تمثَّلَهُ العسكري لا ينتفع به إلا إذا وُجِهَ إلى طبقته المناسبة، وهو مستوى عادي، وفي المقابل كما تمت الإشارة مستوى إبداعي تتحقق منفعته هو الآخر بنفس الشرط، «لذلك ينبغي أن يتكلم بفاخر الكلام ونادِره ورصينه ومُحْكَمِهِ عند من يفهمه، ويقبله منه، ممن عرف المعاني والألفاظ علما شافيا، لنظره في اللغة والإعراب والمعاني على جهة الصناعة»[2].

هذا المستوى من الكلام إذا وجه إلى العاميِّ لم يفهمه، وربما سخِر من مُنتجِه كما عبر العسكري، ودعوة العسكري للاشتغال على اللفظ والمعنى وزخرفتهما للوصول لمستوى الانزياح مشروط بالابتعاد عن التعمية والغموض، وعن مخالفة العُرْفِ، وذكر ما ليس في العادة، كقول المرار مثلا[3]:

وخَالٍ على خَدَّيْكَ يبْدُو كأنّهُ سَنَا البَدْرِ في دَعْجَاء بادٍ دُجُونُها

والمعروف أن الخيلان سود، أو سمر، والخدود الحسان إنما هي البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى، إذا هو يضع شرط صحة وسلامة المعنى لقبول الانزياح والعدول المعنوي، وكذلك عدم الخروج إلى ما لا يعقل، أو يعمّى، فالعمل الأدبي المتجه نحو الإبداع يقتضي اختيار الألفاظ والتراكيب البديعة، وتوضيح وتسهيل المعاني، حتى وإن عدلت عن المألوف، وانزاحت عن المعتاد.

وضع العسكري الكلام الإبداعي المتجاوز للعادي، في أنواع بديعية مختلفة ذكرها في مؤلفه، ولعل أبرزها الاستعارة، لما للحدّ الذي خصّها به من علاقة واضحة بمفهوم العدول والانزياح؛ حيث قال: «الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى، وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه؛ وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة؛ ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة؛ من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا»[4]، يوجه

[1]- العسكري، الصناعتين، ص :29.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 32.

[3]- العسكري ،المصدر نفسه، ص: 96.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 268.

العسكري عناية الخطاب بالاستعارة، وحاجته إليها لإتمام التواصل، وهي نمط من العدول الكلامي أولى من الحقيقة في نظره، إذا كانت مصيبة، فمقاصد الخطاب لا تتحقق في حالات إلا بتوظيف الانزياحات اللغوية «والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة، أن قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**﴾[1] أبلغ وأحسن، وأدخل مما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الأمر، وإن كان المعنيان واحدا»[2]، يعرض العسكري الحالتين، ويوضح بلاغة المجاز منهما وتوصيله للمعنى بشكل أحسن.

4 . 2– بنية الصورة البلاغية عند العسكري:

1.مصطلح الصورة

نسب مصطلح الصورة حينا إلى الفن، وحينا إلى الشعر، وحينا إلى الأدب، وقد جمع محمد العمري مجموعة من العناوين الأدبية التي تقرن الصورة بالمصطلحات السابقة[3].

ما يهما ويعنينا فعلا هنا مفهومها الذي تواضع عليه النقاد، كمصطلح يشمل المباحث البيانية، من تشبيه، واستعارة، وكناية، ومجاز، وقد وردت الصورة كمصطلح في الصناعتين في مواضع عدة منها عند حدّ العسكري للبلاغة، عندما عرفها أنها «كل ما يبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[4]، والصورة في هذا الموضع إنما تمثل شكل العبارة، والطبيعة التركيبة لمفرداتها[5]. وورد مفهوم التصوير في موضع آخر، وبشكل يوضح مفهوم المصطلح بشكل أدق في قوله: «ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف لك فتراه نُصب عينيك»[6]، ثم يأتي بشاهد شعري يوظف فيه مفهوم الصورة، وكأنه مشهد وقع أمام المتلقي، يقول: وذلك مثل قول الشماخ بن نبالة:

خَلَتْ غَيْرَ آثار الأراجيلِ تَرْتَمِي تَقَعْقَعُ في الآباطِ منها وفَاضُها

---

[1]–سورة القلم ، الآية 42.

[2]– العسكري، الصناعتين، ص: 268.

[3]–ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين والتخييل والتداول، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 2005، ص: 203–202.

[4]– العسكري، المصدر السابق، ص:10.

[5]– ينظر: فايز الذيبات، قضايا الأسلوب والبلاغة عند العسكري في كتاب الصناعتين، ص: 181.

[6]– العسكري، المصدر السابق، ص: 128.

فهذا البيت يصور لك هرولة الرجالة، ووفاضها في آباطها لتقعقع[1]، وكأنه ينقل لنا صورتهم نقلا مباشرا.

وقول يزيد بن عمرو الطائي:

أَلَا مَنْ رَأَى قَوْمِي كأنَّ رجالَهم نخيلٌ أتَاها عاضد فأَمَالَهَا

فهذا التشبيه كأنه يصوِّر لك القتلى مصروعين[2]، ومصطلح الصورة هنا يشير إلى فن الوصف أو نقل المشهد البصري عبر الكلمات، ولعل مفهوم الصورة في هذا الموضع هو القصد بالتصوير الكلي، أو نقل الصورة كما هي، وكأنه تصوير فوتوغرافي.

وفي معرِض حديثه عن فضل التشبيه، قال : «والوجه الآخر إخراج ما لم تجرِ به العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ** ﴾[3]، والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة»[4]؛ قصد اجتماع الجبل والظلمة في صورة التظليل، مصطلح الصورة هنا يمثل مشهدا متكاملا للظلّ، والصورة الجامعة بين الجبل والظلّة.

وفي موضع آخر ذكر المصطلح بقوله: «والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام، يجري على وجوه منها تشبيه الشيء بالشيء صورة مثل قوله تعالى: ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾[5] وقد قصد هنا بالصورة الهيئة الظاهرة، حيث يشترك شكل القمر والعرجون في الصورة الشكلية، وهذا هو معنى مصطلح الصورة هنا تشبيه الشيء بالشيء صورة، أي شكلا، لأنه بعد تحديد مصطلح الصورة هنا يذكر تشبيه الشيء بالشيء لونا، وحسنا، وهذا يوضح الفرق، ثم يجمع بينهما « ومنها تشبيه به لونا وصورة»[6]، كقول النابغة:[7]

تَحْلُو بِقَادِمَتَيْ حَمامةِ أَيْكَةٍ بَرْدًا أُسِفَّ لِثَاتُهُ بالإِثْمِدِ

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 128.

[2]- العسكري، المصدر نفسه ، ص: 129.

[3]- سورة:الأعراف، الآية 171.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 241.

[5]- سورة:يس، الآية 39.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 247.

[7]- النابغة، الديوان، ص:49.

كالأقحوانِ غَداةَ غِبّ سمائِه جَفَّتْ أعَالِيهِ وأَسْفَلُهُ نَدِي

«شبه الثغر بالأقحوان لونا وصورة؛ لأن ورق الأقحوان صورته كصورة الثغر سواء، وإذا كان الثغر نقيا كان في لونه سواء»[1]، يبدو أن المحتوى المفاهيمي لمصطلح الصورة هنا لا يختلف عن المفهوم للحديث للمصطلح عند النقاد، الذي يجعل الصورة مفهوما للاستعمالات التحسينية للفظة، من استعارة ، وتشبيه، وكناية...الخ، وإن كان العسكري لم يبعدها عن هذا المعنى، فقد حصرها في زاوية ضيقة في النصوص المختارة التي تم ذكرها آنفا، غير أنها لا تخرج عن مفهوم التحسين الذي قرنت به أصلا[2]، لإقران التصوير بالتحسين في باب الاستعارة يقول العسكري وكذلك قولهم هذا ميزان يصور لك التعديل حتى تعانيه، وللعيان فضل على ما سواه[3]؛ وما قصد إليه هنا اشتراك الصورة بين المستعار، والمستعار منه، وهو حصول الاستقامة، وارتفاع الحيف والميل إلى أحد الجانبين، حتى كأنك تراها بعينك، وهي صورة أبلغ من الحقيقة على حدّ تعبيره.

وأما ذكر المصطلح أيضا عند استشهاده بالآية الكريمة﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ**﴾[4]. **عُنُقِكَ**﴾[4]. حقيقته لا تكن ممسكا، والاستعارة أبلغ، لأن الغلّ مُشاهدٌ، والإمساك غير مشاهد، فصور له صورة المغلول ليستدل به على قبح الإمساك[5] إذا اعتبر العسكري الصورة شيئا أساسيا لا يستغنى عنه في البلاغة، فهي وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الرؤى أو الحقائق تعجز اللغة العادية عن إدراكها أو توصيلها، وقد تمثَّلَها النقاد، ومعهم العسكري في الأشكال البلاغية المعروفة، تشبيه، استعارة، تعريض، كناية...الخ.

---

[1]- العسكري، الصناعتين ، ص: 247.

[2]- أشار الدكتور محمد العمري إلى هذه النقطة في مبحث مفهوم الصورة، ضمن كتابه البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول،"ونكتفي بالإشارة إلى اقتران التصوير في القرآن بـ" الخلق" و" الحسن" كما في قوله:" وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء"، وقوله: "صوّركم فأحسن صوركم"، ارتباط التصوير بالخلق والحسن.."، ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 211-212.

[3]- ينظر:العسكري، المصدر السابق، ص: 271.

[4]- سورة الإسراء، الآية: 29.

[5]- العسكري ، المصدر السابق، ص: 275.

2- بنى الصور البلاغية:

1-**بنية التشبيه:** استهل أبو هلال كلامه عن التشبيه بمحاولة لتوضيح إطاره الاصطلاحي و«هوالوصف بأن أحد الموصوفين ينوبُ منابَ الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أم لم ينُبْ، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه، وذلك قولك: زيد شديد كالأسد.»[1] وقد عمد العسكري إلى حصر وجوه الشبه، أو الروابط الحقيقية بين المشبه والمشبه به، وجعلها على عدة وجوه فقال: «ويصبح تشبيه الشيء بالشيء جملة، وإن شابهه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس، ومثل البدر، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما، وإنما شبّهه بهما لمعنى يجمعهما وإياه، وهو الحسن»[2] الحسن هو وجه الشبه المشترك بين الشمس أو البدر، والوجه الحسن المشّع، ولو أشبه الشيءُ الشيءَ من جميع جهاته لكان هو هوَ وتنعدم فائدة التشبيه، وجماليتة في هذا الحال.

بعد التقديم النظري للتشبيه، ذكر العسكري آليات تشكل صور التشبيه من خلال ذكر أضربه المتنوعة، وإن كان قد انتقد بأنه حصر حالة المشبه به في الجانب الحسي و البصري[3]، فالتعمق في فهم هذه الأضرب، وشواهدها ينفي هذا الطرح تماما، فهو إذ يبدأ بأول ضرب للتشبيه، وقال: «تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون، مثل تشبيه الليلة بالليلة، والماء بالماء، والغراب بالغراب»[4]، فهذا النمط من أنماط التشبيه يركز على الجانب الحسي البصري، وهو اللون، لكن هناك أضرب أخرى تلي هذا الضرب تركز على أشياء مختلفة معنوية وحسية أيضا، كضرب سماه إخراج ما لا تقع عليه الحاسة [إلى ما تقع عليه] والمثال الذي قدمه لتوضيح الصورة المحقَّقة من هذا الضرب، هو قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً**﴾[5]، فأخرج ما يُحَسّ إلى ما لا يُحَسّ، والصورة هنا حسيّة تحمل رسالة بلاغية معنوية، فهذا الظمآن إنما أبصر السراب بعينه وحسِبَهُ ماء، وكذلك الكافر يُزَيَّنُ له عمله فيحسبه نافعا، وما هو إلا سراب، وهذا هو قصده بإخراج ما لا يحس إلى ما يحس، أما الضرب الثاني من أضرب أجود التشبيه، وهو إخراج ما لم تجر به العادة، إلى ما جرت به العادة، وثالثٌ هو إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها، ورابع هو إخراج ما لا قوة

[1]- ينظر:العسكري، الصناعتين، ص: 239.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 239.

[3]- ينظر: فايز الذنيبات، قضايا الأسلوب والبلاغة عند العسكري، ص: 185.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 240.

[5]- سورة: النور، الآية:39.

له في الصفة على ماله قوة فيها، وهي أضرب متنوعة في تخريجاتها بين الحسي والمعنوي الجامع بين المشبه والمشبه به، ما يوضح توسيع رؤية العسكري لمفهوم التشبيه، كصورة توضح وتجمل الخطاب.

2-**بنية الاستعارة:** وهي من أشهر الصور البلاغية التي أخذت حيزا هاما في الدراسات البلاغية، وقد جاءت في الصناعتين بنفس الأهمية التي حظيت بها، إذ فصّل فيها العسكري وجمع لها حشدا لا بأس به من الشواهد من القرآن الكريم، وأحاديث النبي صلى الله عليه و سلم، وكذلك أشعار العرب.

وعرفها بأنها «نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما يكون شرح المعنى وفضل الإبانة فيه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة، لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا»[1]، يحتفي العسكري ومن الوهلة الأولى بالصورة الاستعارية، ويعلي مكانتها بداية من الحد المصطلحي الذي خصّها به، ثم قراءة الشواهد التي استحضرها، إذ يقرّ أن لكل استعارة حقيقة، ولكن الاستعارة أبلغ، فيقدم الشاهد، ويذكر الحقيقة من خلف الاستعارة، ثم يشرح الاستعارة، ويردد عبارة والاستعارة أبلغ، ذلك المفهوم يدل صراحة على تصوره وجود بنيتين للمعنى، وأن الاستعارة شكل طارئ، أو تالٍ للمعنى المجرد[2]، لكنه يحسِّنِ من شكله، ويكون أبلغ منه، وبالتالي أكثر إفادة في الخطاب؛ «ففضل الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة، أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة»[3]، وبالإضافة إلى ما تفعله الاستعارة في المعنى من إدخال الجماليات عليه، تفعل أيضا في نفس المتلقي الذي يتلقى ما هو جديد ومدهش، بنفس تختلف عن تلقي العادي السائد؛ ففي قوله تعالى: ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ** ﴾[4] ومعناه سنقصد، لأن القصد لا يكون إلا مع الفراغ، ثم في الفراغ ها هنا معنى ليس في القصد، وهو التوعّد، والتهديد ألا ترى قولك: سأفرغ لك، يتضمن من الإيعاد، ما لا يتضمّنه قولك: سأقصد لك»[5].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 268.

[2]-ينظر: فايز الدنيبات، قضايا الأسلوب والبلاغة عند العسكري، ص:199.

[3]- العسكري ، المصدر السابق، ص: 269.

[4]- سورة الرحمان، الآية:31.

[5]- العسكري، الصناعتين ، ص: 269.

حاول العسكري من خلال استحضار كل هذه الشواهد ملامسة أثر الاستعارة في نفس المتلقي، ففي محاولة منه في الاستعانة بخبرة المتلقي كما يظهر في قوله الذي يكرره « ألا ترى قولك» يُظْهِرُ لنا مقياسا نفسيا، لأن الاستعارة تلامس نفس المتلقي، فتقع فيه، وتؤثر في وجدانه، وهو لا ينقاد بالصورة الاستعارية إلى المعنى المجرد مباشرة، بل يمرّ بمرحلة تنشيط ملكة التخييل، لتكون الاستعارة بهذا أكثر شعرية من الحقيقة، وقد عبر العسكري عند ذلك بعبارة، «والاستعارة أبلغ من الحقيقة»، على بساطتها؛ حيث يبسط العسكري مفهوم الاستعارة، ويقرب بين المستعار والمستعار منه «فلا بد من مشترك بين المستعار والمستعار منه»[1] حتى يسهل تمثلها عند المتلقي.

3-**بنية الكناية:** هي الأخرى صورة تمثَّلها البلاغيون كآلية للتلميح عن المعنى، وهي عند أبي هلال «أن يُكَنَى عن الشيء ويعرّض به، ولا يصرح، على حَسَب ما عملوا باللّحن والتورية عن الشيء»[2] أو هي نقل صورة معينة، لتصل إلى ذهن المتلقي دون التصريح بها مباشرة، بل بذكر ما يُعبِّرُ عنها، قال الله عزّ وجلّ: ﴿...**سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾[3] الغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع، وهذا مما يحتاج إليه في استعمال الكناية بدل التصريح لأن مثل هذه الأمور تستدعي التعريض لها دون التصريح المباشر.

لم يحتف العسكري بالصورة الكنائية مثلما فعل بالاستعارة، بل اكتفى بتقديمها، وتقديم شواهد لها، وتقديم ما عيب منها، كما أورد فصلا سماه (الأرداف والتوابع) وهو داخل ضمن مفهوم الكناية، يختلف عنها في كونه «أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ، هو رِدْفه وتابعٌ له، فيجعله عبارةً عن المعنى الذي أراده»[4]، وهو أيضا نوع من التعريض للمعنى، مثلما يحصل في الكناية، ومن هذا الفصل قول الشاعر[5]:

طويلُ نجادِ السيفِ لا متضائلٍ ولا رَهِلٌ لَبَّاتهُ وبَآدِله[6]

---

[1]- ينظر:العسكري، الصناعتين، ص: 271.

[2]- العسكري المصدر نفسه ، ص: 368.

[3]- سورة النساء : الآية:43

[4]-العسكري، الصناعتين، ص: 350.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 352.

[6]-البآدل جمع بأدلة، وهي ما بين العنق والترقوة. ينظر: العسكري، المصدر السابق، هامش الصفحة 352.

«أراد وصفه بطول القامة، فذكر طول نجاده، لأن طوله رِدْفٌ لطول القامة»[1]، قد يظهر الاختلاف الذي تصوره العسكري بين مبحثي الكناية، والأرداف والتوابع إلى كونه جعل الكناية مقصورةً من حيث التعريف على ما يكره ذكره، والمهم أن الكناية، وحتى الأرداف والتوابع ما هي إلا طريقة من طرق التعبير، تعمد إلى إظهار جانب من الصورة الحسية؛ حيث تقوم باستحضار ملحقات الصورة المراد إيصالها، وإنتاج دلالة مجردة منها، فمثلا «يقول: فلان عظيم الرماد، يريدون أنه كثير الإطعام للأضياف»[2] يخَرِّجُ العسكري هذه الصورة من خلال تسلسلات تمر في ذهن المتلقي، ليصل إلى الصورة النهائية المرجوَّة من الكناية، يقول: «كثرة الإطعام يردف كثرة الطبخ»[3] وكثرة الطبخ تستدعي إشعال النار التي تولد رمادا عظيما، بالتالي هذا كثير الرماد؛ أي واسع الكرم، وهذه كلها عمليات تخييلية تمرُّ في ذهن المتلقي حتى يصل إلى الصورة المرادة.

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 352.

[2]- العسكري، المصدر السابق، ص: 351.

[3]- العسكري، المصدر السابق، ص: 351.

الفصل الرابع

العسكري والحصر الحجاجي للأساليب البلاغية

الفصل الرابع: العسكري والحصر الحجاجي للأساليب البلاغية

1- الحصر الحجاجي لبلاغة العسكري

1. 1- **الحجاج في حدّ البلاغة عند العسكري:** يحاول هذا الجزء من البحث التعرف على مظاهر الحجاج في حدّ البلاغة، وإشارات العسكري الحجاجية في تَحْيِينِ مفهوم البلاغة كمصطلح، وكموضوع هدفه الاتصال والإقناع حين ربطها بما يقتضيه مدلول الاتصال: «هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه من نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن»[1] الملاحظ في هذا الحد مراعاة ظروف الاتصال، كما هو معروف اليوم مع الدراسات التداولية، إذ يربط العسكري البلاغة بالمعرض الحسن والصورة المقبولة، وما يحيل إليه لفظ المعرض، هو الشكل اللغوي الذي يتجلى فيه الكلام، أما لفظة «الصورة» فتدل على الفكرة المراد إيصالها ونقلها من ذهن المتكلم كما هي إلى ذهن المتلقي، فهو هنا قد ربط البلاغة بالكلام البليغ الذي يحرز المنفعة المقصودة، وهذا تجل من تجليات التداولية، وهو ما يسمى الفعل الكلامي،[2] هذه الأطروحات الاتصالية، مفادها في الأخير الوصول إلى الإقناع، وهو غرض الحجاج.

فإذا كانت البلاغة تفيد معنى الإيصال والانتهاء إلى الغاية «بلغْتُ الغاية، إذا انتهتُ إليها، وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغةً، لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع، فيفهمه»[3]؟، فما يرصده العسكري لحد البلاغة يدعو دائما إلى الإذعان، وما الوصول إلى الإذعان إلا عن طريق حجج معينة، لذلك تكاد كل الحدود التي ذكرها العسكري في الصناعتين تحوي لفظ الحجة، أو ما يسير في معناها «فجماع البلاغة، البصر بالحجة، والمعرفة بمواقع الفرصة، ومن البصر بالحجة، أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان طريق

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص10.

[2]- ينظر: سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، دورية دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية،العدد الأول، الجزائر، ماي، سنة:2008، ص55.

[3]- العسكري، المصدر السابق، ص06.

الإفصاح وعرا، وكانت الكناية أحصر نفعاً»[1]، ولعل هذا من تمام الآلة، وشدة الشكيمة في الحجاج، التي يذكرها العسكري في مقدمة كتابه[2].

ومن البصر بالحجة، ومما توضح من قصد العسكري، معرفة الحجج، ومواضع استعمالها، ومثل ذلك ما ذكره عن أبي أحمد عن أبيه عن عسل قال: «قال الهيثم بن عدي، أنبأني عطاء بن مصعب قال: كان أبو الأسود شيعةً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان جيرانه عثمانية، فرموه يوما، فقال أترمونني قالوا: بل الله يرميك، قال كذبتم، إنكم تخطئون، وإن الله لو رماني لما أخطأ»[3]؛ فقد أفحمهم ببصره هذا في حسن الرد، وهي حجة أعطاها العسكري مكانا هاما في حدّه للبلاغة.

ومن المعرفة بمواقع الفرصة أيضا، يذكر العسكري أمثلة يوضح بها مقصده من إقحام هذا المعنى في حده للبلاغة، يقول: ومنه (أي من انتهاز الفرصة) أن بعض الكتاب لقي أبا العيناء في السَحَر، فجعل يتعجب من بكوره، فقال أتشاركني في الفعل وتنفرد في التعجب، وقالت له قينة: هبْ لي خاتمك أذكرك به، قال اذكريني بالمنع.[4] وهذا أيضا من أحسن المواضع في المعرفة بمواقع الفرصة، وإفحام المخاطب.

ودائما ما يقحم أبو هلال لفظ الحجة في حده للبلاغة مثلما تمت الإشارة؛ إذ نجده يقول أيضا: «البلاغة، دنوُّ المأخذ، وقرع الحجة، وقليل من كثير»[5] يفصل العسكري في هذا بضرب أمثلة، مثل قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾[6]؛ فهاتان الآيتان حجة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها، لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 15.
[2]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 01.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 16.
[4]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 19
[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 16.
[6]- سورة يس، الآية.78-79

الابتداء، ثم قال تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ**﴾»[1]، فزادها شرحا وقوة، لأن من يخرج النار من أجزاء الماء، وهما ضدان ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه، ثم قال تعالى: ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ﴾»[2] وهي حجة أخرى قرع بها الحجج التي قبلها، وزاد المعنى قوة، وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد، لأن إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول، من خلق السموات والأرض ابتداءً.[3]

هذا التخريج المقترح من طرف العسكري، هو قرع حجة بحجة بهدف الوصول إلى الإذعان، فكل حجة مما سبق تؤكد ما قبلها.

ومما رُصد أيضا لمصطلح الحجة في الحدّ الذي خصّه العسكري للبلاغة قوله: «وقال العربي البلاغة التقرب من المعنى البعيد، والتباعد عن حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجاز في صواب، وقصد إلى الحجة، وحسن الاستعارة»[4] من خصائص أسلوب العسكري، أنه يذكر جزيئات ثم يفصل فيها، مثلما فعل في الحدّ السابق، حيث بدأ بالتفصيل في عناصر الحد حسبما قدمه، فاستهل بشرح القصد من قوله: «التقرب من المعنى البعيد» وهو أن يعمد إلى المعنى اللطيف، فيكشفه وينفي الشواغل عنه، فيفهمه السامع من غير فكر فيه، وتدبر له، مثل قول الأول في امرأة[5]:

لم ندرِ ما الدُّنيَا وما طِيبُهَا وحُسْنُهَا حتى رَأَيْنَاهَا

إنكَ لوْ أَبْصَرْتَهَا ساعةً أَجْلَلْتَهَا أنْ تَتَمَنَّاهَا

---

[1]- سورة يس، الآية:80

[2]- سورة يس، الآية81

[3]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:17-18.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص:47.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 47.

وهذه في حد ذاتها حجة، فيها يتوضح المعنى ويتوكد، ويصل إلى ذهن المتلقي بكل بساطة، فتتم العملية الحجاجية.

ثم قوله: «التباعد من حشو الكلام؛ فالحشو على ثلاثة أضرب، اثنان مذمومان وواحد محمود، فأحد المذمومين، هو إدخالك في الكلام لفظا، لو أسقطه لكان الكلام تاما، ويعطي مثالا قول الشاعر[1]:

أنْعِي فتًى لمْ تذرّ الشمسُ طالعةً يومًا من الدهر إلاّ ضرَّ أو نَفَعَا

فقوله: يوم من الدهر حشو لا يحتاج إليه في رأي العسكري، وهذه حجة مضادة لا تخدم حجاجية المعنى العام للبيت، إذ أن الشمس لا تطلع ليلا بطبيعة الحال. أما الضرب الآخر، فهو كلام طويل لا فائدة في طوله، ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه، مثل قول النابغة[2]:

تَبَيّنْتُ[3] آياتٍ لها فَعَرَفْتُهَا لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

يرى العسكري هنا أن الشاعر زاد ما لا فائدة منه، وحشا البيت، وكان يجدر به، أن يقول لسبعة أعوام، ويتم البيت بكلام آخر يكون فيه فائدة، والملاحظ أن العسكري يقول: «فعجز عن ذلك فحشا البيت بما لا وجه له»[4] وهذا رأي منه أن الشاعر لم يصل إلى درجة الإقناع المرجوّة بحشوه هذا، لذلك سيلحظ المتلقي عجزه، أما الضرب المحمود، وهو ضرب يمكن أن يكون الحشو في حجة ثانوية إضافة إلى الحجج الموجودة في الخطاب، ومنه قول كثير[5]:

لوْ أنَّ الباخلينَ وأنتَ فيهم رَأَوْكَ تعلمُوا مِنْكَ المِطالَا

قوله هنا «وأنت فيهم» حشوٌ، وإن كان العسكري يشير أنه مليح، فمن منظور الحجاج هو حجة مهمة، إذ كيف يفهم المتلقي أن المخاطَب هنا ينتمي إلى زمرة البخلاء، لو لم يقل (وأنت

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 47.

[2]-النابغة، الديوان، ص:82.

[3]-في الديوان: توهّمتُ.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص48.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 48.

فيهم)، وهذه حجة تثبت شدة بخل المخاطَب حتى أنه يفوق غيره من البخلاء، بل هو معلمهم في البخل بإضافته لحجة (تعلموا منك المطالا)، ولو عُرِّضَ البيت لسلالم أوزفالد ديكرو، لكانت هذه في أعلى مراتب السلم الحجاجي، وسيكون كالآتي:

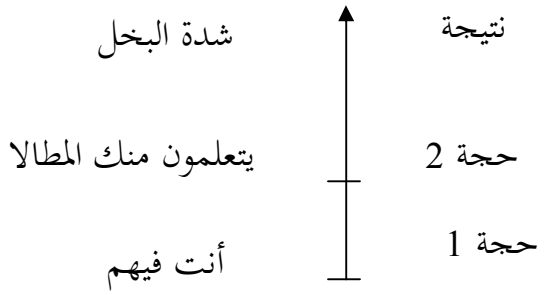

أما قرب المأخذ فهو أن تأخذ عفو الخاطر، وتتناول صفو الهاجس، ولا تكدّ فكرك، ولا تتعب نفسك، وهذه صفة المطبوع، قال بعضهم لأبي العتاهية عذب الماء وطابا، فقال أبو العتاهية: حبذا الماء شرابا[1]؛ هنا يقع الإقناع بمعرفة قدرات المتكلم، إذ يفهم أنه مطبوع عليه، ويقتنع المتلقي بدعوى إعجابه بسرعة بديهة المتكلم.

أما قوله: إيجاز في صواب، فيرجأ الحديث عنه مع الاستعارة[2] في مواضع لاحقة من البحث، وأما القصد إلى الحجة فقد تمّ الحديث عنه سابقاً.

ومن التعاريف التي أوردها العسكري للبلاغة أيضا وتحمل صفات الحجاجية قول محمد بن علي رضي الله عنه: «البلاغة قول مُفْقِه في لطف، فالمفقِهُ المفْهِمُ، واللطيف من الكلام، ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلينُ به العريكة الأبيّة المستعصية، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة، فأن تخلص نفسك من العيب، وتلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه، وتقلقه وتستدعي غضبه، وتستثير حفيظته،»[3]وعلينا أن ندرك أن كل هذه المسائل هي مما يقام به

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 50.

[2]-ينظر: الفصل الرابع من هذا البحث، ص:189.

[3]- العسكري، المصدر السابق، ص:51.

الحجة، فإن تخلص نفسك من العيب، وتلزم صاحبك الذنب؛ يعني أنك أقمت الحجة، وأقنعت المخاطَب دون تهيجه على حد تعبير العسكري.

لعل أهم ما نخرج به في مفهوم البلاغة عند العسكري أنه يجمع التقنيات والوسائل التي تجعل القول بليغا مقنعا، حتى أنه جمع حدودا خصّها غيره من العلماء للبلاغة تتسم بالسمة السابقة، وإن لم تتوفر فيها الإشارة المباشرة بلفظ حجة، أو إقناع، لكن يبقى المعنى الذي رامه للبلاغة يسير نحو هدف الإقناع تلقائيا، فعندما يركز على اختيار الألفاظ والمعاني كشرط من شروط البلاغة، فهو يؤسس لبلاغة إقناعية، تصل القلوب والعقول، لتجعلها مُذعِنة لها، ومن هذه المفاهيم الجامعة لبعض تقنيات الإقناع والتي استأنس بها العسكري مفهوم جعفر بن يحي: «البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليما من التكلف، بعيدا من سوء الصنعة، بريا من التعقيد، غنيا عن التأمل؛»[1] يفصل في هذا، فالاسم هنا هو اللفظ، ومن شروطه أن يحصر جميع المعنى ويشتمل عليه، فلا يُغْلَقُ على المتلقي فهمه، وهذا من شروط الإقناع، فكيف يحصل إقناع دون فهم وتيسير؛ هذا أيضا في معنى قوله: ويجلي عن مغزاك، أي يوضح قصدك، وإظهار القصد من أجلى أنواع الحجج، ومن الحجج أيضا قوله «ولا يستعين عليه بطول الفكرة، هذا لأن الكلام إذا انقطعت أجزاؤه، ولم تتصل فصوله ذهب رونقه(...) وإنما يروق الكلام، إذا أجرى جريان السيل، وانصبَّ انصباب القطر؛»[2] ويقصد هنا انسجام النص، وتضافر أجزائه، وانسياقها خلف بعض، أو كما عبر عنه العسكري، الكلام الجاري مجرى السيل، وكيف أنها تجعل النص أكثر قبولا، وفهما، وإقناعا طبعا.

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:42.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:43.

فالبلاغة حجة في حد ذاتها عند العسكري، ألم تكن من أهم دواعي الإعجاز القرآني، «فإن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة[1] لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلَّله من رَوْنق الطلاوة، مع سهوله كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه؛»[2] وهنا يظهر اهتمام العسكري بكل حيثيات العملية التواصلية، من ومخاطِب ومخاطَب ورسالة وهي مكونات البلاغة العامة عنده، ولقد لخص محمد العمري ذلك في الخطاطة التالية[3]:

مكونات البلاغة العامة حسب العسكري

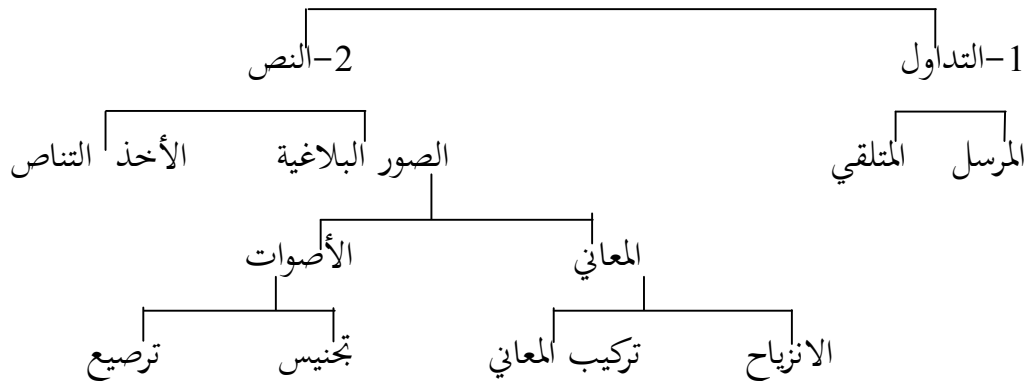

(مؤالفة، مخالفة)

وكلها تتضافر لبناء بلاغة حجاجية، فهو يعطي لكل عنصر من العناصر السابقة مكانة في بناء بلاغة حجاجية، إذ يتكلم عن شروط المتكلم، والمتلقي والنص؛ «فإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة،

[1]-الفصاحة: "فمن قولهم :أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر... وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين .". بنظر:العسكري، المصدر نفسه،ص: 7. للاستزادة حول مفهوم الفصاحة، ينظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة:1402/1982، ص:57.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص:01.

[3]-محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، ص:229.

والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز ما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب.»[1] والملاحظ أن العمري في خطاطته السابقة لم يذكر المقام، ومراعاة الحال التي يوليها العسكري مكانة هامة في بلاغته، وربما قصد العسكري بمنفعة الخطاب، الغرض من البلاغة وهو الإقناع. وقد ميزّ كما هو ملاحظ في نصه السابق بين طبقات المتلقين، فلا يجعلهم سواء، ويصنف الكلام حسب كل طبقة، وهذا من دواعي البلاغة الحجاجية، إذ لا تقع منفعة وإقناع بكلام السوقة يوجه إلى عليَّة القوم، هذا للمخاطب، فهو من سيوجّهُ أسلوبه حسب الطبقة الموجَّهِ إليها الكلام، أما المتلقي فقد تحدث عنه العسكري هو أيضا في بنائه العام للبلاغة، وهو الآخر له نصيب في إحراز منفعة وحجاجية البلاغة؛ «فربما كانت البلاغة في الاستماع الحسن،»[2] وإضافة إلى هذا (مخاطِبْ مخاطَبْ) الملاحظ كما تمت الإشارة اهتمام العسكري بالمقام، وسيكون له مبحث خاص في هذا العمل[3].

إن جُلّ الحدود التي خصَّها العسكري للبلاغة سواء من اجتهاداته هو، أو نقلا عن غيره من علماء البلاغة، تجتمع على إيلاء كل عناصر العملية التواصلية مكانتها في إحداث المنفعة، والإقناع، فجمع شروط الكلام حتى يكون مقنعا وما في ذلك من قضايا، كاللفظ والمعنى، وهي قضايا نقدية لها مكانها، وكذلك شروط المتكلم والمتلقي، ومراعاة ظروف الخطاب، وكل هذه من دواعي الدراسات التداولية، وقد ركز صاحب الصناعيين على توضيح أن البلاغة حجة في حدِّ ذاتها، فلم يفتأ يقرن مفهومها بالحجة في أكثر تعريفاته، بل وجعل «أعلى مراكب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرجه من معرض المحمود، وللمحمود حتى يُصَيِّرَهُ في صورة كالمذموم،»[4] فأي قوة حجاجية تصورها العسكري للبلاغة؟

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:29.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:29.

[3]-ينظر الفصل الرابع من هذا البحث، ص:212.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص:53.

جمع العسكري في الصناعتين كل الكفايات التي تجعل الخطاب البلاغي إقناعيا ابتداء من كفايات المتكلم، ثم الخطاب المُنْتَجْ، وصولا إلى متلقي هذا الخطاب، محيطا كل هذه الكفايات بظروف الإنتاج؛ أي الموقف والمقام.

1 . 2- الحجاج في كفايات المتكلم أو المخاطِب:

هو من أهم عناصر العملية التواصلية، إذ يرجع له الفضل في إنتاج الخطاب، فهو بتخيُّره لأسلوبه، ولمتلقيه يصنع الخطاب المقنع الذي ترومه البلاغة، وقد خصّ العسكري فصلا كاملا في كتابه: فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه، وامتثاله في مكاتباته؛ وهي أدوات جمة وآلات كثيرة أولها «معرفة العربية لتصحيح الألفاظ،»[1] وذلك ما يحقق له تخيُّر اللفظ، فلا يكون «متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا»[2] وهذا من وجوه التوسع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها، والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها، ومتخيّرها ورديئها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد من الكلام، هذه المعرفة الراسخة في ذهن المخاطب هي ما تخوِّلُ له إنتاج بلاغة مقنعة؛ وهذا هو معنى «ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه، كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن،»[3] كيف تُنْتَجُ هذه الصورة والمعرض، إذا لم يكن المنتج مجهزًا «يستمد كفاياته اللغوية من التراث اللغوي والأدبي، ومن كلام البلغاء والأنبياء، ومن لغات البوادي التي لا تعرف ظواهر اللحن، والعدول عن الأصول ما تعرفه اللغة في الحواضر،»[4] وقد وضح العسكري أن ليس كل من يتكلم العربية، ويوصل لك معانيها، فهو بليغ «فمن قال إن البلاغة إنما هي إفهام المعنى فقط، فقد جعل الفصاحة واللّكنة، والخطأ، والصواب والإغلاق، والإبانة سواء»[5]؛ فمذهبه هنا أن ليس كل من أفهمك حاجته بواسطة اللغة فهو بليغ،

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:154.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيان، ج1، ص:137.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص:10.

[4]- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص50.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص:10.

وإنما البليغ من أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة، والعبارة النيّرة،[1] هذه الألفاظ الحسنة والعبارات تكون متوفرة تلقائيا في ذهن المخاطِب، وهي من أهم الكفايات التي يجب أن تكون فيه.

إضافة إلى هذه الآليات اللغوية يجب أن تتوفر في المخاطب آليات أخرى غير لغوية، «كالمعرفة بالحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة، والشهور والأهِلة، وغير ذلك،»[2] وقد اعتبر حسن المودن هذه الكفايات كفايات ثقافية تداولية[3]؛ وهي عبارة عن مكتسبات يمتلكها مُنْتِجُ الخطاب منها: معرفة أخبار العرب، وأنسابها، وأمثالها، وآثارها، ومآثرها[4].

وأشار العسكري أنه إنما وضع كتابه (الصناعيين) لمن استوفى هذه الآلات، وبقي عليه المعرفة بصنعة الكلام، وهي أصعبها وأشدها على حد تعبيره، فكأنه يحدد صفات المنتِج المثالي، بأن يكمل معارفه بمعرفة صنعة الكلام.

واستحضر شاهدا يبين أن الآلات السابقة الذكر، وإن كانت شرطا أساسيا في صفات المنتج عنده، إلّا أنها قد لا تُسعفه عند الإقدام على الكلام، أو الكتابة، لصعوبة هذه الصنعة، وصعوبة تجاوز حُبْسَتِهَا إن هي احْتَبَسَتْ؛ «والشاهد ما روى لنا أخو أحمد عن مبْرمان عن المبرد أنه قال: لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي، إنه ليس أحد من الخافقين يختلج نفسه مسألة مشكلة إلّا لقيّني بها، وأعدّني لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس، لا يخفى عليّ مُشْتَبِهٌ من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل، ولربما اجتحتُ إلى اعتذار من فَلْتَةٍ، أو التماس حاجةٍ ، فأجعلُ المعنى الذي أقصده نصب عينيَّ، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميلٍ، فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها، وأعرض ببعض أموري فأتعبت نفسي يوما في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيته منها، وكنت أحاول الإفصاح عمَّا في

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:11.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:154.

[3]- ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 53 وما بعدها.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 102.

ضميري، فينصرف لساني إلى غيره، ولذلك قيل: زيادة المنطق عن الأدب خدعة، وزيادة الأدب عن المنطق هجنة.»[1] الشاهد هنا أن كل الآليات الإنتاجية للخطاب متوفرة في هذا المخاطِب، لكنه في تلك اللحظة لم يستطع كتابة ما أراده رغم تمكنه الكبير.

إضافة إلى كل ذلك على منتج الخطاب، أن يعرف كيف يوظف هذه الآليات أثناء إنتاج خطابه «فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك، مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم، وقوتهم في المنطق،»[2] فالواجب أن تقسم طبقات الكلام، فتُخَاطَبَ كل طبقة بما يناسبها، والشاهد كما ذكر العسكري، «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته فكتب: من محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، فادعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيا، ويحقّ القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإثم المجوس عليك،»[3] سهل النبي صلى الله عليه وسلم الألفاظ كما هو واضح، حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية[4].

وهذا يعود إلى التكوين المكتمل للنبي صلى الله عليه وسلم كمنتج لخطاب مقنع، يوجهه إلى مخاطَبِه بلغته التي يفهمها، أما عندما «أراد أن يكتب إلى قوم من العرب، فخّم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه، وعادتهم لسماع مثله، فكتب لوائل بن حجر الحضرمي، من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة[5] من أهل حضرمت، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، على التّبِعَة الشاة والتِّيمَةُ[6]

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:154.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:154.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص:155، ووردت في كتاب عز الدين بليق منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم النبيين والمرسلين، الطبعة الأولى، دار النهج، بيروت، سنة: 1398هـ، 1978م، بيروت، لبنان، ص: 766.

[4]-ينظر:العسكري، المصدر السابق، ص: 155.

[5]-الأقيال: جمع قيل: الملك أو من ملوك حميَر. العباهلة: الأقيال المقرون على ملكهم، فلم يُزالوا عنه. ينظر: العسكري، المصدر نفسه: هامش ص:155.

[6]- التيمة: الأربعون من الغنم أو أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان.ينظر: العسكري، نفسه، هامش ص:155.

لصاحبها، وفي السُّيوب الخُمْس، لا خِلاط ولا وِرَاطَ، ولا شِنَاقَ ولا شِغَار[1]، ومن أجبى فقد أربى، وكل مسكر حرام»[2]، الملاحظ هنا فخامة الألفاظ المستعملة في هذه الرسالة من النبي صلى الله عليه وسلم ، لعلمه بعلم المرسل إليه بها و قدرته على فهمها، وقد استعمل النبي عليه الصلاة والسلام، كل التقنيات المؤدية إلى الإقناع من ألفاظ فخمة، ومعان فاعلة، كيف لا وهو أفصح من تكلم، ومن جاء بالدين للناس كافة، فاستطاع امتلاك العقول والقلوب، بحسن خلقه أولا، وبحسن خطابه وبلاغته بأبي وأمي هو فصلاة وسلام الله عليه.

وإذا كان التركيز هنا على المنتِج وكفاياته، فإنه من الضروري ذكر النص، أو الرسالة، لأنها نتاج هذا المتكلم أو المخاطب، ودائما ما نجد العسكري يخرج الكلام عنهما معا لأنهما متلازمان فعندما يخاطِب في متن كتابه باستعماله صيغة المخاطَب، فهو يحدِّث المنتج المتَصَوَّر في ذهنه، وهو المنتج المثالي، الذي يصنع خطابا متكاملا حسبه فيقول: «واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي معا سبيلهما أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام، لا بجهة كثرة اللفظ، لأن حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيهٌ بحكم توقيعاته، من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى، هذا إذا كان الأمر و النهي واقعيين في جملة واحدة لا يقع فيها وجوه التمثيل للأعمال فأما إذا وقعا في ذلك الجنس فإن الحكم فيهما يخالف ما ذكرناه، وسبيل الكلام فيها أن يحمَل على الإطالة والتكرير دون الحذف والإيجاز؛ وذلك مثلُ ما يكتبُ عن السلطان في أمر الأموال و جباياتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدم فيها ذكرُ ما رآه السلطان في ذلك ودبَّره، ثم يعقب بذكر الأمر بامتثاله، ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكد، ويكرر لتأكد الحجة على المأمور به، ويحذر مع ذلك من الإخلال والتقصير.»[3]

يحاول العسكري هنا توجيه المنتج (الكاتب) بشكل خاص إلى أن يكتب كتابه وفق شروط معينة، حتى يكون مقنعا، ويؤكد أن قوة حجة الرسالة المكتوبة تكمن في كيفية النظم لا في كثرة الألفاظ، وتنوعها، وبتركيز المعنى إلّا في حالة واحدة، وهي تتطلب الإطالة والتكرير تستدعيها طبيعة

[1]-السيوب: الركاز. خلاط: اختلاط الإبل. الشناق: ما بين الفريضتين في الزكاة. الوراط في الصدقة: الجمع بين المتفرق. الشغار: أن يتزوج الرجل امرأة على أن يزوجه أخرى بغير مهر وصداق. ينظر: العسكري، نفسه، هامش ص:155.

[2]- العسكري، الصناعتين، ص: 155.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 156.

الخطاب وهي «ما يكتب عن السلطان في أمر الأموال، وجباياتها واستخراجها» فكما أن في الحالة الأولى يكون الحذف والإيجاز وسيلتين لتأكيد الحجة، ففي هذه الحالة تكون الإطالة والتكرير وسيلتين أيضا للإمعان في تأكيد الحجة، ويفصل بعد ذلك في أغراض أخرى، وما تستدعيه من طرق للكتابة وغرضه من هذا تنبيه المنتج كاتب الرسالة إلى هذه التقنيات حتى تصبح من ملكاته، ويصير كاتبا بليغا مؤثرا مقنعا.

ونلاحظ قول العسكري : «ليرتاح بذلك قلب المطيع... ويرتاع قلب المسيء...ويأخذ نفسه بالارتداع» هنا استحضار لنظرية أفعال الكلام، النظرية الشهيرة في اللسانيات التداولية، ولهذه الأفعال دور فاعل في جعل الأقوال حجاجية، إذ يطّلع منتج الخطاب إلى رؤية فاعلية خطابه رأي العين فيتجسّد خطابه في الواقع، ويترجم على شكل فعل، فإذا كان الكاتب قد وجه رسالته إلى المسيء واستعمل التقنيات البلاغية الإقناعية اللازمة، فإنه سيجعل المرسل إليه يرتدع وينتهي عن إساءته، وهذا هو غرض الحجاج، وكذلك بالنسبة للمحسن الذي ينبسط لتلقيه الرسالة، ويستمر في إحسانه.

يوجه العسكري خطابه مباشرة إلى المنتج، وكأنه يتصور صنع جيل جديد من الكُتّاب قصد تمكينهم من الشروط السابقة الذكر، لذا هو يفصّل في أدق تفاصيل الكتابة، كما نجده أثناء توجيهه خطابه، يوجهه وجهة مزدوجة، يتكلم عن كاتب منتج وعن كتابة إنتاج؛ فهو يوجه الكاتب، ويصف النص المكتوب، ولا طالما استعمل مصطلحات حجاجية في ذلك من قبيل: «غاية الشفاء، والإقناع، وحجة...» فيقول: «فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء، ومن فوقهم فإن السبيل ما كان واقعا منها إنهاء الأخبار، وتقرير صور ما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صرف الأموال أن يمد القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع»[1] وقد سبق ذكر هذا الصنف من الرسائل، وما استدعى استحضارها مرة أخرى هو آخر عبارة استعملها العسكري؛ إذ يتجاوز بها تصوره عن ضرورة المدِّ في القول من أنه مجرد فنية تستدعيها طبيعة الرسالة، إلى كونها ضرورة من ضرورات الإقناع، وكأنه يتصورها حجة في الخطاب، تقويه وتؤكد محتواه، في حين تصبح هذه الحجة تشتغل عكس الحجاج إذا

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 157.

استعملت في موضع كموضع الشكر فمن دواعيه أن يتجنب المنتج فيه الإسهاب، ومثله الدعاء والثناء.[1]

ثم إنه وكما يصنف المتلقين، يصنف المنتجين، فإذا كتب التابع للمتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النظراء، فعليه ألا يكثر الشكاية واستيلاء الخصاصة[2]، وفي حال من كانت الرسالة للاعتذار فعلى المنتج أن يتجنب الإطناب أيضا، ويستعيض عنها «بإيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة الموجدة»[3]، وسبيله هنا الاستغناء عن حجه إكثار الكلام في الاعتذار، واستبدالها بتقصير واختصار باستعمال نكت تكون حجة مختصرة تتمم المعنى المراد في غرض الاعتذار.

شدة اهتمام العسكري بالمخاطب بهذه الصورة، جعلته يهتم بالخطاب عامة، والمخاطبين أيضا، رغبة منه في وصول الخطاب الإقناعي المتكامل بتزويد كل طرف بكفايات تجعل هذا الخطاب كذلك، يقول: «هذا أدام الله عزك بعد أن تفرق بين من تكتب إليه، فإن رأيت، وبين من تكتب إليه فرأيك، وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء...»[4]، فهو هنا يحدد المتلقي، وشروطه، ثم يتكلم عن تفاصيل الكتابة والتلقي يقول: «فتفرق بين من تكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة، وبين من تكتب إليه بتركها إجلالا وإعظاما، وبين من تكتب إليه: أنا أفعل كذا، وبين من تكتب إليه: نحن نفعل كذا، «فأنا» من كلام الإخوان والأشباه، و«نحن» من كلام الملوك»[5]، فيحدد كيف يخاطب المخاطب حتى من جهة الألفاظ التي يجب استعمالها، وهذا من شدة دقة ملاحظة العسكري وتنبهه للكفايات اللغوية للمخاطِب، كقوله: «وتكتب أول الكتاب: «سلام عليك» وفي آخره: «والسلام عليك» لأن الشيء إذا ابتدأت بذكره كان نكرة، فإذا أعدته صار معرفة، كما تقول: مر بنا رجل، فإذا رجع قلت: رجع الرجل[6] وهذه من الاستعدادات اللغوية التي يتوفر المنتج عليها، كما يجب أن يقدر ما يستعمل من ألفاظ ومعاني، على حسب ما توجبه الحال

[1]-ينظر: العسكري، الصناعتين، ص : 157.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 158.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 158.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 158،159.

[5]- العسكري، المصدر نفسه ، ص: 159.

[6]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 159.

بينه وبين من يوجه إليه الخطاب ، وعلى قدر المكتوب فيه، يستمر العسكري في كل مرة في إعطاء ملامح للكفايات التي يجب أن تتوفر في منتج الخطاب عامة سواء أكان شاعرا أو كاتبا أو خطيبا، وإنما نستشف هذه الكفايات من خلال شواهد ذكرها، أو حدود حدّها أو وجهات رآها، فعندما يقول على سبيل المثال: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ»[1]، فإذا قال الطبع، إذًا فهو يقصد تكوين الخطيب بأن يكون مطبوعا على الخطابة، إضافة إلى مكونات أخرى نفسية ذكرها وهي رباطة الجأش، وسكون النفس وغيرها.[2]

وقد قام حسن المودن في مؤلفه بلاغة الخطاب الإقناعي، بجمع بعض المسائل المتعلقة بالكفايات التي يجب أن تتوفر في منتج الخطاب حتى ينتج خطابًا إقناعيا، وقد أشار إلى أن هذه الكفايات لا تكون ضرورية إلاّ إذا كان الخطاب شفويا، وذلك لا ينسحب على المنتج الذي تصوره العسكري في مؤلف الصناعتين، فمثلا كفاية الابتداء تنبه إليها العسكري، وصنفها ضمن اهتمامات جميع أنواع الأدب فنجده يقول : «أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن...»[3] يعني أنه لم يخصص الابتداء لما هو شفوي فقط وفيما يلي بعض هذه الكفايات وتتبعها في الصناعتين.

1- تدبير الابتداء والاختتام أو الخروج:

1- حسن الابتداء: أجمع النقاد العرب على أهمية الابتداء وقال بعض الكتاب : «أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان»[4]، والابتداء حسب العسكري هو: «أول ما يقع السمع من كلامك»[5]، فهو أول خطوة يفتتح بها الخطاب «لهذا يحتل تدبير الابتداء مكانة مهمة لأن السؤال الذي يشغل بال المتكلم البليغ، هو كيف يبدأ خطابه»[6]، واقترح العسكري قائمة من الأمور التي يستحسن تجنبها في الابتداء، لأنها تخفِّضُ أسباب الإقناع، فلا ينبغي أن يبدأ الشاعر بما يتطير منه، ويُستجفى من الكلام، والبكاء، ووصف إقفار الديار وهذه الثقافة على منتجِ الخطاب اكتسابها، بأن

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 58.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 21.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 431.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 431.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 435.

[6]- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 78.

يعرف ما له من ابتداءات مسموح بها لجعل الخطاب أكثر حجاجية، سنذكر من الشواهد الكثيرة التي أوردها العسكري في هذا الباب شاهدين؛ الأول يوضح سوء تصرف المنتج في الابتداء، وكيف أثر على حجاجية النص، والثاني يوضح حسن ابتداءه، وأثره على استقبال النص أيضا، أنشد البحتري أبا سعيد قصيدة أولها[1]:

لَكَ الويلُ من ليلٍ تطاولَ آخرُهْ[2] ووشك نوى حيٍّ تُزَم أباعرُه

فقال أبو سعيد: «بل الويل والحرب لك، فغيره وجعله له الويل»[3]، قد تطيّر المتلقي من افتتاح الشاعر بذكر الويل، فأهلك هذا حجاجية البيت وحتى القصيدة، لما لذلك من أثر كبير في عدم الاهتمام بما هو قادم منها إذا فسد ابتداؤها.

أما ما استحسن من ابتداءات، نجده في ابتداء امرئ القيس في معلقته[4]:

قِفَا نَبْكِ منْ ذِكْرَى حبيبٍ ومَنْزِلِ[5]

وأنه جمع بين أمور لا تجمع في نصف بيت «حيث بكى، واستبكى، ووقف واستوقف، وذكر الحبيب، والمنزل،»[6] وقد أغنى هذا البيت عمّا بعده، وهذه فاعلية الابتداءات الحسنة في حجاجية الخطاب أن «يكون الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا ما يجعله داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله عزّ وجلّ : ألم، وحم، وطس... فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية إلى الاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه، ولهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله، لأن النفوس تتشوق للثناء على الله، فهو داعية إلى الاستماع.»[7] إن هذه من التكوينات التي يجب أن تتوفر في المنتج؛ حيث يكون جاهزا لافتتاح كلامه بما يناسب نمط خطابه ونمط متلقيه، لما توضح من أهمية الابتداءات، وكما لاحظنا هنا، قد يجعل الابتداء المناسب الخطاب

[1]- البحتري، الديوان، ص:237.

[2]-في الديوان: له الويل من ليل بطاء أواخره.

[3]-العسكري، الصناعتين، ص: 432.

[4]- أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات وأخبار شعرائها، ص:52.

[5]-وتتمة البيت: بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 433.

[7]-العسكري، المصدر السابق، ص: 437.

أكثر إقناعا، في المقابل إذا لم يكن مناسبا يجعل الخطاب فاشلا، لا يأبه له المتلقي منذ الوهلة الأولى، ولن يكون له داع لإكمال الاستماع أو القراءة، فيمكن لذلك تصنيف حسن الابتداء كنمطٍ من الحجج القبلية التي تفرض حجاجية الخطاب منذ بدايته و كما أنّ لشكل بداية الخطاب مكانة في حجاجيته، لشكل انتهائه مكانة أيضا، وبنفس الأهمية.

2- حسن الخروج[1]: الخروج آخر ما يبقى في الأسماع[2]، ويشترط أن يحسن ويُوَضَحَ هو الآخر، فالكلام لا يعرف مغزاه و مقصده في أوله حتى يصير إلى آخره، الملاحظ أن العسكري أراد الوصول إلى تزويد المنتج بكفايات حسن الابتداء وحسن الخروج معا لأهميتها معا «فالابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعا مونقين.»[3] وقد خصّ العسكري في كتابه الحديث عن الخروج من النسيب إلى المديح وغيره في الفصل الفصل الثالث من الباب العاشر، وإنما قال الخروج من النسيب، لما عرف من ابتداء العرب بذكر الديار والوجد لفراق ساكنيها، وجاء حديثه مفصلا عن بعض أساليب الخروج عند العرب، معطيا بعض النماذج المستحب الخروج بواسطتها، ويمكن اعتبارها مدعمة للحجاج، باعتبارها متداولة ومشتركة بين الشعراء، منها مثلا ما ذكر من أن العرب إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: فدع ذا وسلّ الهمّ عنك بكذا، وربما تركوا المعنى الأول وقالوا: «عيس أو هوجاء»، أو إذا أرادوا الانتقال إلى المدح وذكروا الممدوح قالوا: إلى فلان[4]، وكلها قوالب جاهزة أحصاها العسكري، لتحقيق كفاية حسن الخروج وتعريف منتج الخطاب بها، والتأكيد على ضرورة معرفتها، كما أشار إلى إمكانية الخروج دون استعمال هذه القوالب، فللشاعر الحرية ، وعمّا ذكره من استعمال هذه الوسائل قوله: كما قال امرؤ القيس[5]:

فدعْ ذَا وسَلْ الهم عنك بحسرةٍ ذَمُول إذا صامَ النهار وهجَّرا

---

[1]- الخروج هنا جمع بين الخروج من غرض إلى غرض آخر في القصيدة والخروج الأخير فيها، باعتبار الانتقال إلى غرض جديد يستوجب اختتاما مميزا للغرض الذي ابتدأ به الكلام.

[2]- ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 42.

[3]-العسكري، الصناعتين، ص:435.

[4]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 452-453.

[5]- امرؤ القيس، الديوان، ص:63.

3- الفصل والوصل: من الأقوال المأثورة قديما في تعريف البلاغة أنها معرفة الفصل والوصل،[1] وقد درس عبد القاهر الجرجاني[2] –بعد الجاحظ والعسكري- هذين المصطلحين كصورة بلاغية توصل المعنى المراد من المخاطِب إلى المخاطَب، ومما كان يعنيه مصطلح الوصل؛ تتابع الكلمات والجمل تتابعا يجعل المعنى متلاحقا في إحساس الكاتب والقارئ معا.

أما الفصل فهو قطع الكلام بالصمت في الإبداع القولي، والرمز الكتابي، كعلامات الوقف في الإبداع الكتابي، وهو عند البلاغيين: دلالة على إتمام معنى، واستئناف معنى آخر، قد تتصل تلك الدلالة بالعطف أو تتجرد منه، وأما الوصل فهو دلالة على اتصال المعنى بالعطف أو بغير عطف؛[3] «فهو من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلّا الأعراب الخلّص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من فنون المعرفة في ذوق الكلام»[4].

لقد جعل العسكري معرفة الفصل والوصل حدًّا من حدود البلاغة، وكفاية تدبيرية على منتج الخطاب أن يتحرى اكتسابها، «فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام»[5] وقوله المعرفة بمواضع الفصل والوصل، هي إشارة إلى كونها ملكة على المنتج امتلاك ناصيتها، وهو يستحضر أقوالا تخاطب المنتج مباشرة، وهذا دأبه في التأليف، يقول: «قف على مقاطع الكلام، وحدوده، وإياك أن تخلط بين المرعى الهمل»[6]، فالمخاطِب المقنع عليه تفقد مقاطع الكلام، ويقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تَبيعتِه من الألفاظ[7].

إنّ امتلاك هذه الملكة من أهم الوسائل المستعان بها على خلق خطاب إقناعي، فمعرفتهما من حلية البلاغة كما عبر العسكري[8]، ودائما ما يستعمل أسلوب الأمر وهو يجَهِزُ مُنتج الخطاب

---

[1]-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 88، والعسكري، الصناعتين، ص: 81.

[2]-الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني، أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسن الفارسي، من مؤلفاته: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، توفي سنة:471. ينظر: شدرات الذهب، الجزء الخامس، ص:308.

[3]- ينظر: حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، سنة 1998، ص: 97.

[4]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة، دار المدني، القاهرة، مصر، سنة: 1413هـ/1992م، ص: 222.

[5]- العسكري، الصناعتين، ص: 438.

[6]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 438.

[7]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 438.

[8]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 438.

بهذه الكفايات البانية للخطاب الإقناعي، يورد نصا لأكثم بن صيفي يقول إنه كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: «افصلوا بين كل معنى منقضٍ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض»[1] ويوضح المواقف التي قد يقع فيها منتج الخطاب، ثم يسعفه بما يلزم من استعمال الوصل، فيقول: «إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه، فافصِلْ بينه وبين تبيعته من الألفاظ، فإنك إذا مَذَقْت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها، وملّته الأسماع...»[2]؛ الملاحظ استعمال مصطلح الوعي وقرنه بالقلب، وهو في الأصل مرتبط بالعقل، وهذا نظرٌ آخر لتداخل الفهم مع الذوق والجمال، وتضافرهما معا للوصول إلى الإقناع وتحقيق غرض الحجاج، فمن منزلة الكاتب في قوله وفعله أن يكون عالما بمقاطع الكلام ومعرفة الفصل والوصل «فإن لكل شيء جمالا، وحلية الكاتب وجماله إيقاع الفصل والوصل موقعه،»[3] ونحن إذ نذكر هذه الكفايات سواء حسن الابتداء أو المعرفة بمواضع الفصل والوصل، أو حسن الخروج، ككفايات تدبيرية على منتج النص أن يتدرب عليها، نشير في الوقت ذاته لملامح صورة وشكل الرسالة اللغوية، فمعرفة كفايات المنتج تحيل الذهن إلى تصور شكل هذه الرسالة.

حاول هذا الجزء من البحث توضيح ما يحتاجه منتج الخطاب حسب العسكري من تقنيات «فعلى مرسلي الخطابات، نقادا ومبدعين ومتكلمين، التسلح بعدة آليات حجاجية يتم تأسيس النصوص عليها بحيث تشكل بؤرا دلالية تجذب القراء.»[4] وما ذكر من تقنيات، وإن ظهرت أحيانا واصفة للنص أيضا، فلأن النص يأخذ من صاحبه، وما يجب أن يتقنه المنتج من هذه الكفايات سيترجم في إنتاجه النصي طبعا، وقد رأينا اهتمام بلاغة العسكري بها، أما باقي ما سنذكره من خصائص الرسالة اللغوية لكي تحقق غايتها الإقناعية فينبغي أن تكون لها علاقة بشكل النص خاصة، وهي أيضا كفاياتٌ لمنتجِ النص الاختيار في استحضارها أو تركها عكس الكفايات السابقة الذكر والتي هي ضرورة في إنتاج الخطاب.

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 440.

[2]- العسكري، نفسه، ص: 440.

[3]-العسكري، نفسه، ص: 441.

[4]-محمد أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 62.

سيتم فيما يلي ذكر تقنيات يستعملها منتج النص، كأسس تجعل نصه أكثر إقناعا؛ أي ما يجعل الرسالة اللغوية خطابا إقناعيا. وإن شاعت فكرة مؤداها أن التاريخ الأدبي أولى اهتماما خاصا بالباث أو المنتج فقط، ونسِب الاهتمام بالإنتاج الأدبي إلى مدارس متأخرة في القرن العشرين (الشكلانين الروس) التي وضعت عيْنَها على أدبية الأدب،[1] فإن هذه الفكرة قد تجانب الصواب لأن البلاغيين والنقاد العرب أولوا اهتماما بكل عناصر عملية الإبداع، وإن تفاوت الاهتمام من عنصر لآخر، حيث كان المنتج والمتلقي متلبسين بالنص متماهيين معه.

1 .3- حجاجية النص في بلاغة العسكري :

عمل العسكري في تعريفه للبلاغة على إبراز عنصر المبدع، وموقعه في العملية التواصلية الإبداعية التي تستهدف التأثير الوجداني والتأثير العقلي[2]، يحدث هذا التأثير حسب طبيعة الرسالة أي حسب التكنيكات البلاغية الخاصة بكل منتج، وقد تصور العسكري خيارات معينة على المنتج أن يجعلها من مكونات رسالته لتكون رسالةً تقوم على أساس حجاجي يوصل إلى الإقناع في نهاية المطاف؛ لاعتبار الحجاج هو آلية الإقناع، «فما هو إلّا كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها،»[3] فلا خطاب مهما كان نوعه بلا حجاج، إذ ما دام الخطاب موجها إلى الغير، فهو يروم الإقناع بفكرة معينة، غير أن التعريف السابق، وإن كان مؤسسا إلا أنه يقتصر على المنطوق من الخطاب، ولعل تعريف «شايم بريلمان» وزميلته أقرب إلى الصواب وأشمل، وهو الحد المشهور للحجاج عندهما، والذي يحدّد موضوع الحجاج بأنه: «درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[4]، وما قَصْدُ البلاغيين والنقاد الذين تناولوا الخطاب بالمدارسة، والتصنيف، إلا للوصول إلى النماذج الأكثر إقناعا كل حسب وجهته بجمع مثل تلك التقنيات التي أشار إليها هذا التعريف.

ونحن الآن بصدد محاولة لمعرفة تصور العسكري في نموذجه البلاغي والنقدي الذي قدمه في الصناعتين، لشكل الخطاب الإقناعي عنده، وانطلقنا في هذا على أساس جعل الأشكال البلاغية

[1]-فيصل الأحمر، نبيل دادوة، الموسوعة الأدبية، دط، دار المعرفة، الجزائر، سنة: 2009، ص: 221.

[2]- ينظر: فايز مد الله الذنيبات، قضايا الأسلوب عند العسكري في كتاب الصناعتين، ص:98

[3]-طه عبد الرحمان،اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، ص : 226

[4] - Chaime , Perelman , tyteca .traite del'argumentation , la nouvelle rhearique , P : 05.

«كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان»[1] فالنص في لفظه ومعناه ونظمه ودلالته، لا يكون نصا بلاغيا، إلّا إذا توفر على شروط تجعل المتلقي يتأثر ويقتنع ويقوم بفعلٍ جراء ذلك.

1. 3 . 1- ثنائية اللفظ والمعنى ودورهما في الإقناع

شكلت هذه الثنائية أساسا هاما في الدراسات النقدية العربية، وهي كذلك في بلاغة العسكري؛ حيث جمع بينهما في علاقة تكاملية استلزامية، وإن كان منهج تأليف الصناعتين لا يتبع أسلوبا لذكر المسائل ضمن أبوابها، فقد نجد العسكري يتحدث عن مسائل لها علاقة غير مباشرة بالباب أو الفصل الذي هو بصدد الحديث عنه ، لذلك فحديثه عن اللفظ والمعنى لم يقتصر على أبواب خاصة بهما فقط، بل نجده يقحم الكلام عن جودة الرصف كلما كان المقام مناسبا لذلك، وهو أسلوب تميز به مؤلف العسكري، ومع ذلك فقد خصص أبوابا للحديث عن اللفظ والمعنى بشكل مباشر، وهي الأبواب: الثاني والثالث والرابع.

وهو يبدأ الحديث عن الكلام فيقول: «الكلام أيدك الله بحسن بسلاسته وسهولته، ونصاعته وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه ...»[2]، وبما أننا في مقام الحديث عن حجاجية النص، فسنتبع حجاجية تكوينيه أي حجاجية لفظه ومعناه على غرار بلاغتهما.

صفات اللفظ – مدار الإقناع على مستوى الألفاظ:

1- تخير اللفظ : يكون الاختيار بما يسمح بتأدية الوظيفة التداولية فيزيد ذلك الاختيار في فعالية النص في الإبلاغ، والإقناع، «فاللفظ متى كان كريما في نفسه متخيرا في جنسه، سليما من الفضول، بريئا من التعقيد حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسنة الرواة»[3]، وقد ذكر هذا ضمن كفاءات المنتج سابقا، فلا يكون اللفظ وحشيا بدويا، ولا مبتذلا سوقيا[4]، وما لم يخالف به وجوه الاستعمال، «ألا ترى أن الناس يستعملون «التعاطي» فيكون منهم مقبولا، ولو استعملوا «العَطْوَ»، وهو أصل هذه الكلمة، وهو ثلاثي

---

[1]-ينظر صلاح فضل ، بلاغة الخطاب، وعلم النص، دط، مؤسسة المختار للنشر، مصر، سنة: 1996، ص : 80.

[2]-العسكري ، الصناعتين ، ص : 55.

[3]-الجاحظ ، البيان والتبيين، ج2 ، ص : 08 .

[4]-ينظر : العسكري، المصدر السابق، ص : 148.

والثلاثي أكثر استعمالا، لما كان مقبولا ولا حسنا مرضيا،»[1] وهذا من أنواع الحجج الجاهزة، وهي ما اتفق عليه، مما يقود إلى الإقناع.

حسن الاختيار هنا يكون سواء على مستوى نوع اللفظ، يظهر ذلك في قوله «لا وحشيا بدويا ولا مبتذلا سوقيا، يبتعد عن ألفاظ العامة الحوشية، أو على مستوى اللغة فمن الألفاظ ما إذا وقع نكرة قَبُح موضعه، وحَسُن إذا وقع معرفة، مثل قول بعضهم :

لمَّا التَقَيْنَا صاحَ بينٌ بَيْنَنَا يُدْنِي من القُرْب البعاد لِحَاقَا

فقوله: «صاح بين بيننا» متكلف جدا ولو قال: «البين» كان أقرب»[2]يرجع هذا إلى الكفايات التي على المنتج أن يتدبرها، ليعرف موضع التعريف وموضع التنكير وتعليق العسكري: «لو قال البين كان أقرب» إشارة منه إلى نقص هذه الكفاية عند هذا الشاعر، وسوء اختياره مسّ جمالية البيت، بالتالي مقبوليته والإقناع بما يدعيه فيه، ويكون الاختيار أيضا على مستوى تداول الاستعمال فاختيار ما هو مألوف له دور في فهم الخطاب ونجاعته، لأن المتلقي يستقبل ويُذْعِنُ لما يُعرف في استعمالات أمته، وبيئته أكثر مما هو غريب عن فهمه، ويستجدي جهدا للوصول إلى معناه «فالخروج عن الطريقة المشهورة، والنهج المسلوك رديء على كل حال،[3] كما يكون للغرض دور في اختيار الألفاظ، فتأتي وفقه، فلا ينبغي أن يذكر في التشبيب اسما بغيضا؛ وقد أنشد جرير لبعض الملوك من بني أمية[4]:

وتَقُولُ بِوزَعُ: قَدْ دَبَبْتَ على العصَا هَلَّا هَزِئتِ بِغَيْرِنَا يا بَوْزَعُ

قال له الملك أفسدتها ببوزَع[5].

إن اختيار ما يناسب الغرض والمقام من الألفاظ إضافة إلى تحسينه للنص يكثّف حجاجيته، ويقربه من إقناع متلقيه زلفى؛ لذلك يبذل منتج النص جهدا في اختيار ألفاظ نصه.

[1]-العسكري ، الصناعتين ، ص : 149.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص : 149.

[3]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه ، ص : 149.

[4]-جرير، الديوان، ص: 371.

[5]-العسكري ، المصدر السابق ، ص : 152.

تخيير اللفظ إذًا شرط أساسي، فالمتكلم البليغ هو الذي يفكر في الألفاظ الملائمة التي تبلغ المعاني، وكذلك تسمح بالتأثير في السامع[1]، وعقب التأثير الإقناع الفعلي، وهو من أصعب المسائل التي يحوزها المنتج، فمدار البلاغة على تخير اللفظ، وتخيره أصعب من جمعه وتأليفه[2] حتى تطهر فاعلياته الإمتاعية، والإفهامية، والإقناعية، وقد صنفت هذه القاعدة –تخيير اللفظ– ضمن الكفايات الأسلوبية؛ أي هي ضرورة في تكوين منتج النص، فيختار اللفظ الصافي الحسن البهي، النزيه، الكثير الطلاوة والماء، ولا يقنع من اللفظ حتى يكون على ما وصف سابقا[3]، إضافة إلى ذلك أيضا ضرورة تريب الألفاظ.

2– ترتيب الألفاظ: بعد حسن الاختيار على منتج النص ترتيبها ترتيبا صحيحا، فيقدم منها ما يحسن تقديمه، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أليق[4] ولهذا طبعا دور في أخذ الخطاب نحو الإقناعية، فما أفسد تركيب بعضهم عندما قال[5]:

يَضْحَكُ مِنْهَا كلُّ عُضْوٍ لها من بَهْجَةِ العَيْشِ وحُسْنِ القَوَامْ
تَرْفُلُ في الدَارِ لها وَفْرَة كَوَفْرَةِ المِلْط الخَلِيع الغُلَامْ

يرى العسكري أن الشاعر لم يصب؛ إذ قدم الصفة على الموصوف، فعصف هذا بجمالية البيت، وما لم تمل إليه القلوب لن تميل إليه الأذهان؛ «فكان ينبغي على الشاعر أن يقول: كوفرة الغلام المِلْط الخليع، أو كوفرة الغلام الخليع الملط،»[6] لأن ما قاله يُعيبه سوء الترتيب، وذلك مستهجن رديء في صنعة الكلام، ومن دواعي القبول المؤدي إلى الإقناع، حسب العسكري حسن الرصف، وهو«أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة؛»[7] فكل هذا يزيد معنى الكلام وضوحا، ويحسن موقعه، ويطيب لمستمعه، أما «سوء الرصف، وهو تقديم ما ينبغي تأخيره من الألفاظ، وصرفها عن وجوهها وتغيير صيغتها، ومخالفة

[1]–ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 167.
[2]–ينظر : العسكري، الصناعتين ، ص : 23.
[3]–ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص : 58.
[4]–ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص : 151.
[5]–العسكري، المصدر نفسه: ص:151،152.
[6]– العسكري ، المصدر نفسه ، ص : 152.
[7]–العسكري، المصدر نفسه، ص : 161.

الاستعمال في نظمها»[1]، فإنه يفسد الصورة، ويغير المعنى،كما لو حُوِّلَ رأس إلى موضع يد، أو يدٌ إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية، وإذا لم يصل منتج الخطاب إلى حسن اختيار وترتيب الألفاظ فشل في أن ينتج خطابا إقناعيا، بتقصيره بأحد أهم الشروط، ومن أشكال سوء الترتيب التي ذكرها أبو هلال المعاظلة، وهي من سوء النظم، والأصل في معناها ركوب الشيء بعضه بعضا، ويقال : تعاظلت الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى، وسمي الكلام به، إذا لم ينضد مستويا، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض، وتداخلت أجزاؤه، تشبيها بتضاعد الجراد، وقد مدح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيرا لمجانبتها، فقال: كان لا يعاظل في الكلام، فأنت لا ترى في شعر زهير شيئا من هذا الجنس[2]، ويوجد في أكثر شعر الفحول، ومنها قول النابغة:[3]

يُثِرْنَ الثَّرَى حتى يباشرْنَ بَرْدَهُ[4] إذا الشَمْسُ مجَّتْ ريقَهَا بالكَلاَكِلِ

معناه يثرن الثرى حتى يباشرن برده الكلاكل، إذا الشمس مجت ريقها، وهذا مستهجن، لأن المعنى تعمى فيه[5]، بسبب تعاضد الألفاظ وعدم تناسب مواقعها، وإذا تعمى المعنى كيف السبيل إلى الإقناع.

ومما دلّ على تصور العسكري لحجاجية الخطاب قوله صراحة في هذا الموضع: «وليس للمُحْدَثِ أن يجعل هذه الأبيات حجةً، ويبني عليها، فإنه لا يُعْذَرُ في شيء منها، لاجتماع الناس اليوم على مجانبة أمثالها، واستجادة ما يصح من الكلام ويَسْتَبْين، واسترذال ما يُشْكِلُ ويَسْتَبْهِم»[6]؛ فالأبيات السابقة لا تحمل حمولة حجاجية، بحيث يستطيع المحدث أن يستعملها كوسيلة للإقناع، والسبب معاظلة الألفاظ التي أدت إلى تعمية المعنى؛ فالكلام جاء غير منضد بشكل يجعل الفهم أسهل، بل وأنه مستهجن رثٌّ، لذلك دعا العسكري إلى اجتناب مثل هذا، فإن المتلقي إذا التمس رداءة الاختيار والترتيب والرصف نفر من الخطاب وبالتالي ستفشل العملية الاتصالية.

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ، ص : 161.

[2]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:162،163.

[3]-النابغة، الديوان، ص: 99.

[4]-في الديوان: يُثِرْنَ الحصى حتى يباشرن برده.

[5]-العسكري، المصدر السابق، ص ص : 162 – 163.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص : 165.

3- اجتناب التكرير في الكلام القصير :

يعتبر العسكري تكرير لفظ واحد في كلام قصير، من عيوب الكلام ومستهجنه[1]، فعلى منتج النص أن يتحرى كل الأساليب التي تفرض وجوده الحجاجي، وتكريره للفظ في غير مواضع التكرير البلاغي الإمتاعي المؤكد للمعنى سيكون وبالا على العملية الحجاجية، مثل قول سعيد بن حميد : «ومثل خادمك بين ما يملك فلم يجد شيئا يفي بحقك، ورأى تقريظك بما يبلُغُه اللسانُ -وإن كان مقصرا عن حقك- أبلغُ في أداء ما يجب لك، فكرر الحق في المقدار اليسير من الكلام»[2]؛ وهذا مستهجن غير مقبول، إذ كان بإمكانه استعمال تقنية الإحالة، وهي من مباحث الاقتصاد في اللغة في علم لغة النص[3]، حيث يقول: «وإن كان مقصرا عنه» ليعود الضمير على لفظة الحق دون الحاجة إلى تكراره مع إكمال المعنى وتحسينه.

صفات المعنى، مدار الإقناع على مستوى المعاني :

العسكري وكغيره من البلاغيين تصور علاقة تلازمية بين اللفظ والمعنى، ودائما ما يذكرهما معا فالألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، والألفاظ إنما ترتب حسب ترتيب المعاني في الذهن، ولكن اختيارهما يظل خاصا بمميزات تجعلهما مقبولين،[4] ، «فمن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف»[5]، وهذا من الملائمة المرغوبة في إنتاج الدلالة، وقد يظهر تحيز العسكري للفظ في مواضع، لكن دون غمطٍ للمعنى.

صفات المعاني الإمتاع والإقناع :

1- إصابة المعنى : وهو أهم شروط الكلام عند العسكري، حيث قال: «الكلام أيدك الله يحسن بسلاسته وسهولته (...) وإصابة معناه»[6]، وصاحب البلاغة يحتاج إلى إصابة المعنى كحاجته إلى

---

[1]-ينظر: العسكري، الصناعتين، ص : 153.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص : 153.

[3]-علم لغة النص .text linguistics، أو نحو النص.text grammar. فرع معرفي ظهر كاتجاه في البحث اللغوي في النصف الثاني من الستينيات، في غرب أوروبا ويهدف إلى الانتقال من تحليل الجملة إلى تحليل النص.ينظر: عزة شبل محمد ، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة:2007، ص: ز.

[4]-ينظر :سامية بن يامنة، الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين، ص : 70.

[5]-الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص : 136.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص : 55.

تحسين اللفظ، لأن المدار بَعْدُ على إصابة المعنى[1]، ويذكر العسكري وجوه المعاني فمنهما ما هو مستقيم قبيح نحو قولك: قد زيدا رأيت، يقول إنما قبح لاختلال النظام بالتقديم والتأخير، وهذا ابتعاد عن إصابة المعنى، ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب، مثل قولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر[2]، وإن كان قول حملت الجبل، من الأقوال التي يمكن أن تقبل على محمل الاستعارة، وتكون بمعنى تحملت هموما كالجبل في شدتها.

ويذكر العسكري وجوها للمعاني الخاطئة، ويشير أنه إنما ذكرها ليعرف الكاتب بها، ليجهزه بما يحتاجه من معارف إنتاجية تجعل خطابه ناجحا؛ «فمن لا يعرف مواقع الخطأ كان جديرا بالوقوع فيه»[3] وكأنّا به يتصور منتجا مُلِمًا بالمعاني جيدها ورديئها فيصيب الجيدة، ويتجنب الرديئة، ويذكر من رديئها قول الشاعر[4]:

أَلَمْ تَسْأَلِ الرّبْعَ القَدِيمَ بِعَسْعَسَا كأني أُنَادِي إِذْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

هذا من التشبيه فاسد، لأجل أنه لا يقال: كلمت حجرا فلم يجب فكأنه كان حجرا[5] ويستحضر شواهد أخرى حتى يوضح حالة عدم إصابة المعاني حتى مع وضوح وجلاء الألفاظ، بذلك يكوّن تقنية حجاجية تؤكد المعنى وتقويه، ويدّعي الشاعر بواسطته ما يحتج لرأيه، ومن ذلك قول كثير[6] وفي نفس المعنى السابق مع الإصابة هذه المرة.

فقلتُ لهاَ: يا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إذا وُطِّنت يومًا لهَا النَّفْسُ ذلّتِ

كأني أنَادِي صَخْرَةً حينَ أَعْرَضَتْ من الصُّمِّ لوْ تمشي بها العُصْمُ زَلَّتِ.

تشبيه المرأة هنا بالصخرة حين سكوتها وتغافلها إصابة في المعنى، يجعل المتلقي يذعن ويُسْتَمالُ عن طريق حسن التشبيه وإصابة المعنى كتقنيتين حجاجيتين تضافرتا لإتمام غرض الخطاب.

يستمر العسكري في عرض شواهد عن جيد المعنى ورديئه، في تأكيد منه على أهمية هذه الكفاية المميزة للخطاب، والتي تسهم في تحسينه والإقناع به، والملاحظ أنه يتصور معاني مناسبة لكل غرض

[1]-ينظر: العسكري، الصناعتين، ص : 69.

[2]-ينظر:العسكري، نفسه، ص : 70.

[3]-العسكري، نفسه، ص: 70.

[4]-امرؤ القيس، الديوان، ص:85 .

[5]-العسكري، المصدر السابق، ص : 71.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 71.

حيث يقوم أبو هلال بتوجيه منتج الخطاب إلى المعاني المناسبة في كل غرض، يقول مثلا معلقا على قوله الأخطل[1]:

وقدْ جَعَلَ الله الخِلَافَةَ منهم لأَبْلَجَ لا عَارِي الخوانِ ولا جَذْبِ

يقول العسكري معلقا: «ومثل هذا لا يمدح به الملوك»[2]، وإنما تُمدح الملوك بمثل قول الشاعر:

له هِمَمٌ لا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَّلُ مِنَ الدَّهْرِ

لهُ رَاحَةٌ لوْ أنّ مِعْشَارَ جُودِهَا عَلَى البَرِّ كانَ البَّرُ أَنْدَى منَ البَحْرِ

و غرضه من ذكر هذا الإشارة أن من إصابةِ المعنى مناسبته لمقامه.

2- السهولة والوضوح : انطلاقا من أن المعاني السهلة الفهم أكثر قبولا وإقناعا، «فأجود الكلام ما يكون جزلا سهلا، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه»[3] لكن العسكري هنا لا يعني سهولة اللفظ حد ابتذاله، فيركز ويقول سهل ممتنع إذا «ورد على الفهم الثاقب قَبِلَهْ ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه»[4]، وهذه لفتة منه إلى استحسان السهل للإفهام والإقناع، بتوجيه الخطاب إلى العقول النيرة لا إلى العقول الساذجة، لذلك فإن سهولة المعاني لا تعني أبدا ابتذالها وقبولها كيفما اتفق.

في دعوة العسكري لتسهيل المعاني رغبة في الوصول إلى الإقناع بأسهل السبل «فالنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي[5]، البشع (...) والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف»[6]، لأن هذه المعاني لا تحتاج إلى جهد في فهمها، وهي أقرب للإقناع من المعاني المعاني الصعبة العنيدة الوعرة، فكيف يذعن المتلقي لمعنى مرادا لم يفهمه من الأساس ومما ذكرنا سابقا المعاظلة وأثرها في تعمية المعنى، وما هذا إلا تأكيدًا على علاقة التكامل بين اللفظ والمعنى، فقد يودي سوء اختيار الألفاظ وتعمية المعنى بمفهومية الخطاب، وذلك ما تفعله المعاظلة، حيث توصل إلى معنى

[1]-الأخطل، الديوان، شرح وتصنيف: مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية،لبنان، سنة:1994م، ص:27.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص : 75

[3]-العسكري ، المصدر نفسه، ص : 67.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص : 57.

[5]-الجاسي : الصلب الغليظ.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 57.

غامض، وبالتالي تتعطل وظيفتا الإفهام والإفحام معا، ولعل ما يجعل المعنى واضحا حسب شروط العسكري هو حسن التأليف أما رداءة الرصف والتركيب فشعبة من التعمية[1]، ومطلب الوصول إلى نص بديع بليغ ممتع مقنع أن يخرج الكلام من غير تكلف وكدّ وشدة تفكير؛ فيكون سهلا سلسا ومنه قول الحطيئة:[2]

هُمُ القومُ الذينَ إذَا أَلَمَّت[3] منَ الأيَامِ مَظْلَمَةٌ أَضَاءُوا

المعاني سهلة مألوفة، والألفاظ متخيرة فصيحة، وتحقق من خلالها غرض البيت وهو مدح هؤلاء القوم، فحسن الرصف والتركيب، وإصابة المعنى جعلت من البيت سهل القبول، متناول الفهم، ما جعل وصوله إلى ذهن المتلقي ممكنا، وهذه من الأدوات الحجاجية التي أشار إليها بريلمان، إذ عندما تكلم عن التقنيات التي تجعل المتلقي يذعن فتح مجالا واسعا لكل التقنيات المتاحة في البلاغة وقد أخذت دراسات حديثة على عاتقها استخراج هذه التقنيات من نصوص قديمة في التراث العربي.[4]

والعسكري في تصوره للجودة والرونق، ووضعهما في صحة المعنى، وصوابه وتخيير اللفظ يشير إلى تقنية حجاجية، تجعل من الشواهد التي ذكرها في هذا السياق شعرا متفردا فيه ما ليس في غيره، وهو إضافة إلى هذا يضيف تقنية خاصة بالمتلقي نفسه، فيقول ومن الكلام الصحيح المعنى واللفظ القليل الحلاوة العديم الطلاوة قول الشاعر[5]:

أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى الدِّين قدْ قنعوا ولا أراهُم رَضُوا في العيش بالدُّونِ
فاستَغْنِ بالله عنْ دُنيا الملوكِ كما اسْـ تغْنَى المُلُوكُ بدنيَاهم عن الدينِ

[1]- العسكري، الصناعتين، ص : 161.

[2]-الحطيئة، الديوان، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: محمد مفيد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 1993، ص:34.

[3]-في الديوان: هم القوم الذين إذا اعترتهم.

[4]-منها مجموعة بحوث خصصت لهذا الغرض، كمؤلف التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف الدكتور أحمد قادم والدكتور سعيد العوادي، ومؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته للدكتور حافظ إسماعيل علوي.

[5]- العسكري، المصدر السابق: ص:172.

هذا البيت رغم وضوحه وسهولة فهمه إلا أنه يميل إلى النثر أكثر منه إلى الشعر، والمتلقي هنا هو من يميز، فهو يفهم المعنى، لكنه لن يقتنع به لقلة مائه وافتقاده للرونق، فإذا لم يبذل المنتج جهدا في تقديم أحسن ما لديه، لن يحظى بإقناع متلقي خطابه.

بين اللفظ والمعنى: العسكري ومن البلاغيين والنقاد من حاول التنسيق بين فعالية اللفظ والمعنى في إنتاج الخطاب الإقناعي، ونجده في أكثر من موضع يقرن بينهما، للوصول إلى بلاغة مكتملة فيقول: «البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك في صورة مقبولة ومعرض حسن»[1]، لكن الملاحظ تحيّزه للفظ دون المعنى «وإنما جعلنا حسن المعرض، وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة، ومعرضه خلقا لم يسم بليغا، وإن كان مفهوم المعنى ومكشوف المغزى»[2]؛ فالتعويل إذا على اللفظ وحسن اختياره ورصفه، «ألا ترى إلى معنى الكاتب الذي كتب إلى بعض معامليه: قد تأخر الأمر فيما وعدت حمله ضحوة النهار، والقوم غير مقيمين، وليس لهم صبري، وهم في الخروج آنفا(...) فمعناه مفهوم ومغزاه معلوم وليس كلامه بليغ.»[3] ومعنى ذلك أنه ليس كل ما يفهم من الكلام هو بلاغة، وإنما ما يفهم بألفاظ حسنة وعبارة نيّرة.

فقد جعل العسكري مدار البلاغة على تحسين اللفظ، وإن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه[4]، يعني أن مدار الحسن والرونق، ومدار الإمتاع والإقناع على اللفظ أولا، فالنفس تميل إلى الحسن والرونق والبديع، وتذعن للمتأنق من القول «وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني»[5]، فالعسكري يذهب مذهبَ الجاحظ قبله «المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي المدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن،

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 10.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص : 10

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص : 10

[4]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص : 58.

[5]-العسكري ، المصدر نفسه، ص :58.

وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، كثرة الماء، وصحة الطبع، وجودة السبك والنسج والتصوير»[1]، لذلك على منتج الخطاب أن يبذل جهدا في تخيّر اللفظ، ليدل على براعته وحذقه، أما تحصيل المعاني فهي من السهولة بما كان، ويستدل على ذلك بأن الكلام إذا كان لفظه حلوا وسلسا سهلا، ومعناه وسطا، دخل في جملة الجيد، وجرى مع الرائع النادر،كقول الشاعر[2]:

ولما قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كلّ حَاجَةٍ ومَسَّحَ بالأَرْكَانِ مَنْ هو مَاسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهَارِي رِحَالُنَا ولم يَنْظُر الغَادِي الذي هوَ رَائِحُ
أخَذْنَا بأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بينَا وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطِحُ

يقول العسكري «ليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى، وهي رائقة محببة وإنما هي: ولما قضينا الحج ومسحنا بالأركان، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل، ولم ينتظر بعضنا بعضا، جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبل في بطون الأودية.»[3] متطلبات الإقناع هنا برزت في الألفاظ التي اختارها الشاعر فجاءت في حلية بهية تجذب المتلقي، رغم أن معناها بسيط لا تكلُّف فيه، وهذا تأكيد على دور اللفظ في الإقناع، انطلاقا من الوظيفة الإخبارية ثم الإفهامية وصولا إلى الإقناعية.

قام العسكري بتصنيف نمط الخطاب الذي تكون معانيه واضحة، وألفاظه قبيحة بالبارد، وأشار إلى أن في شعر أبي العتاهية الكثير من هذا، ومنه قوله[4]:

مَاتَ واللهِ سعيدُ بنُ وَهْبِ رحمَ اللهُ سعيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عينِي يا أبَا عثمانَ أَوْجَعَتَ قلْبِي

وهذا بارد رثّ، رغم صواب المعنى، إنما جاءت برودته من برودة ألفاظه، فهو مذموم مردود وما هو إلا كلام عادي، وإنما إدعاء الشاعر هنا افتقد إلى حجج تؤكد ذلك؛ فهو يدعي حزنه، وذلك غيرُ ظاهر، ولو أنه استعمل ألفاظ فخمة وإن ظل المعنى نفسه سيجعل المتلقي يذعن لإدعائه لأن الحلّة البلاغية تسرق الأسماع، وتذعن لها النفوس.

[1]-الجاحظ ، الحيوان، تحقيق، عبد السلام هارون، دط، دار الجيل، بيروت، سنة 1998، ج1 ، صص : 131-132.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص: 59.
[3]-العسكري، المصدر نفسه ، ص : 59.
[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص:60.

ومذهب العسكري هذا، لا يعني أنه يغمط المعنى حقه، بل إنه يدعو إلى تسهيله حتى تتم العملية التواصلية بنجاح، ويتم غرض الإقناع يقول: «وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكَدّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزّة غليظة، وجاسِيةً غريبةً، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سَلِسًا عذبا وسهلا حلوا، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا، وأعزُّ مطلبا، وهو أحسن موقعا، وأعذبُ مستمعًا»[1]، حتى أنه يقدم الموقع في النفس على العذوبة في السمع، ولعل هذا يبعد نوعا ما ينسب للبلاغة العربية بأنها بلاغة زخرف فقط، والوقع في النفس يؤدي إلى إقناع تلك النفس عن طريق الإمالة.

إذا كان أبو هلال يدعو إلى السهولة فهو يشترط مع ذلك الامتناع «فأجود الكلام السهل الممتع؛»[2] أي أن متلقيه يسهل عليه فهمه، وإن رام إنتاج مثله تعذر عليه، وليس استعمال الغريب هو المعوَّل عليه، بل أن يقال ما يعرفه الصغير والكبير ولا يحتاج إلى تفسير[3]، مدار الكلام إذًا على الاعتدال في اختيار الألفاظ، وإصابة المعاني «فلا خير فيما أجيد لفظه، وسخف معناه»[4]، وهذا هو مطلب الخطاب الناجح، شرف اللفظ مع وضوح المعنى.

وكتوضيح للدور الحجاجي لانتقائية اللفظ والمعنى، نذكر المحاكمة المشهورة في النقد العربي القديم، وهي محاكمة أم جندب، وما أُخِذَ على امرئ القيس في قوله[5]:

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وللسّاقِ دِرَّةٌ وللزَّجْرِ منهُ وَقْعُ أَخْرَجَ مُهَذِبِ

فلو وصف أخس حمارٍ وأضعفه ما زاد على ذلك.

أما قول علقة:

فَأَدْرَكَهُنَّ ثَانِيًا منْ عِنَانِهِ يَمُرُ كمَرِّ الرائِحِ المتَحَلِّبِ[6]

---

[1]- العسكري ، الصناعتين، ص : 60.

[2]-العسكري ، المصدر نفسه، ص : 61.

[3]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص : 61.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص : 60.

[5]- امرؤ القيس، الديوان، ص:35.

[6]-في الديوان : فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

ولو تمثلنا حجج هذه الأبيات حسب سلم أوزفالد ديكور لكانت كالآتي:

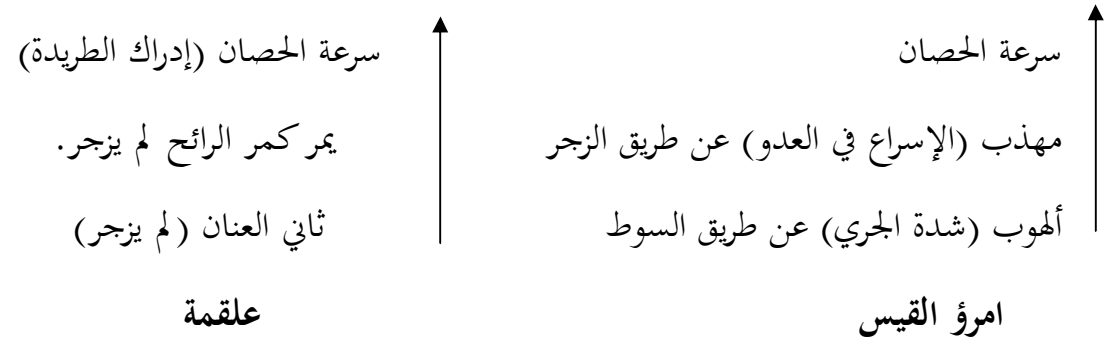

هذه المعادلة الحجاجية التي استندت إليها أم جندب في حكمها، وقد وصف العسكري بيت امرئ القيس بأنه لا يناسب وصف حتى أخسّ حمار، أما علقمة فقال عنه: «فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه، ولم يضربه بسوط و لم يمره بساق، ولم يزجره بصوت»[1] لذلك قدم إدعاء علقمة، وأخّر إدعاء امرئ القيس.

1 . 3 .2- خصائص الخطاب وأغراضه الحجاجية (حجاجية التقنيات الخطابية):

كتاب الصناعتين، وكما أشار صاحبه، قد جمع فنون ما يحتاج إليه صناع الكلام، فبث بين دفتيه التقنيات التي يعتمدها منتج الخطاب لإيصال المعنى أولا، وجعله مقبولا ثانيا، ومن ثمة الإقناع به، وسنحاول تتبع هذه التقنيات وأدوارها الحجاجية بالترتيب حسب ورودها في الكتاب.

1- الإيجاز والإطناب :

الإيجاز: الإيجاز هو من وجز الكلام وجازةً، ووجزًا، وأوجز قلَّ في بلاغة، وكلام وجز خفيف، والوجز الوحي، وكلام وجيز أي خفيف مقتصر»[2]، وهو من أهم الركائز التي اعتمد عليها علماء البلاغة في التكوين الكلّي لخصائص الخطاب البلاغي، وهو عندهم «أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط»[3]؛ أي هو مقدار الحاجة للوصول إلى الحقيقة في البلاغة، أما ما زاد عن الحاجة

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 74.

[2]-ابن منظور، لسان العرب، ص : 4771.

[3]-الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، وضح حواشيه: إبراهيم شمس، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة:1424هـ، 2003، ص: 139.

فهو من باب الهذر والخطَل[1]، وقد اعتبره العسكري من المعايير الأساسية لتصنيف المخاطبين، فبواسطته يتحقق الإفهام المرَامُ من الخطاب، والمتلقي ينبهر من الخطاب الموجز الحامل للمعنى الكبير، ويستوعبه أكثر من الخطاب الطويل؛ فالإيجاز إفهام، والإطالة استبهام، فإن كان الإيجاز كافيًا، أصبح الإكثار عيّا، فخير الكلام قليل يدل على كثير، أما العيُّ فمعنى مقتضب يمثله لفظ طويل[2]، وقد وصل الحد عند العسكري لأن قال: «قيل لبعضهم ما البلاغة ؟ فقال: الإيجاز فقيل : وما لإيجاز؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد»[3].

هكذا هي أهمية الإيجاز في الإحاطة بمفهوم البلاغة، فكيف يؤدي هذا الأخير وظائف حجاجية ؟

فإن كان من دواعيه الإفهام، وتقريب البعيد، والوقوع في الصدور والقلوب، والولوج في الأذهان، والعلوق في الأفواه، فالبلاغة أنجع به من البيان بالإطناب[4] ومعنى النجاعة هنا يأخذ أبعاد كثيرة، منها ما ذكر سابقا (تقريب المعنى البعيد و...) و منها بعد آخر هو الإقناع، وهو نفسه من دواعي الأبعاد السابقة.

إن أكثر ما ذكر العسكري من شواهد عن الإيجاز في البلاغة من القرآن الكريم، لتجلي هذه التقنية فيه أكثر من أي نص آخر، وهل يوجد نص أكثر بلاغة وفصاحة من كتاب الله عز وجل، ومن شروط الفصاحة والبلاغة «الإيجاز والاختصار، وحذف فضول الكلام، حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة»[5]، وقد اشتهر العرب بمقولة خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، أو كما قال ابن رشيق القيرواني «إجاعة اللفظ وإشباع المعنى»[6]؛ الإيجاز إذا يسمح بالاشتغال بدال الخطاب، فيكون التقتير

[1]-العسكري، الصناعتين، ص :173.

[2]-ينظر: ابن عبد ربه ، العقد الفريد، تحقيق : أحمد أمين ، وإبراهيم الأبياري، د ط ، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، سنة: 1956 ، ص : 273.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص : 173.

[4]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص:175.

[5]-ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 194.

[6]-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، سنة:1981م، ج1، ص : 242.

الكمي بدل الإسراف «بتحويل الجهد المصروف من مستوى الكمّ إلى مستوى الكيف والنوع»[1]، الكلام هنا عن الإيجاز عند استعمال الكلام استعمالا مجازيا، يختزل الكثافة اللفظية، وهو عدول كمي بالنقصان وهو ما أشار إليه عبد الله صولة[2]، ليؤدي الإيجاز هنا وظائفه كاملة، إفهامية وشعرية وتداولية، فالغرض منه إضافة إلى تحسين الكلام، الوصول بذهن المتلقي إلى الإفهام والإقناع، لكن إذا وصل الإيجاز حد التعمية وقصور المعنى، فسيكون ناقضا للوظائف التواصلية، لأن البليغ كما عبر السكاكي«من أخذ بخطام كلامه وأناخه في مبرك المعنى، ثم جعل الاختصار له عقالا والإيجاز له مجالا، فلم يندّ عن الأذهان، ولم يشذّ عن الآذان»[3].

وهذا هو موقع الإيجاز يوصل المعنى بأفخر العبارات، ليضطر المتلقي إلى إذعان أكيد لمثل هذا النوع من الخطاب.

و الإيجاز كما ذكر العسكري نوعان : القصر، والحذف .

أ. **القصر** : تقليل الألفاظ وتكثير المعاني، وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[4] يستحضر العسكري مقولة عربية تحمل نفس معنى الآية وهي: «القتل أنفى للقتل» ويشير إلى فضل كلام الله عن هذا الكلام، فهو أقل حروفا، وأشد حلاوة ووقعا في النفس، لاستعماله عزّ وجلّ الإيجاز، فوصّل معنى بهذه الكثافة بأقل لفظ.

وقد ذكر العسكري من هذا الكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي**﴾[5] تتضمن مع الإيجاز والفصاحة دلائلًا للقدرة، أي أنها حجة مُفحِمة لمتلقيها لقلة ألفاظها وتركيز معانيها، ومن الإفحام أيضا قوله تعالى : ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[6] ﴿ **الْعَالَمِينَ**﴾[6] كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء، «وروى أن ابن عمر رحمه الله قرأها فقال: من بقي له شيء فليطلبه»[7]، المعنى أن هذه الآية قد جاءت على ذكر كل شيء، ولا

---

[1]–حسن الموذن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 88.

[2]–ينظر: عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن، ص: 187.

[3]–أبو يعقوب يوسف، السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 256.

[4]–سورة البقرة، الآية 179

[5]–سورة هود، الآية 44 .

[6]–سورة الأعراف، الآية: 54

[7]– العسكري الصناعيين، ص : 176.

يملك أحد بعدها أن يطلب دليلا، وهذا من دلائل إعجاز القرآن الكريم، وبتعبيرٍ حجاجي هي أعلى حجة على السلم الحجاجي لا يوجد أقوى منها.

وقد أستشهد صاحب الصناعتين من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أيضا بقوله: «إياكم وخضراء الدمن»، وقوله صلى الله عليه وسلم : «حبك الشيء يعمي ويصم» الحجة إذا في استعمال قليل اللفظ في كثير المعاني، وهو عينه ما قصد إليه ابن رشيق بقوله: «إجاعة اللفظ، وإشباع المعنى»[1] ومعاني ذلك الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك، فحلّها وابنها بناءً آخر فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ[2]، وهذه عينها حجة الإيجاز.

ب. الحذف: أما نوع الحذف من الإيجاز فهو على وجوه ذكرها العسكري، وفصل في شواهدها منها : أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه، وتجعل الفعل له، كقوله تعالى: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾[3] أي أهلها، ويدخل هذا في باب المجاز أيضا ومنها أن يقع الفعل على شيئين، وهو لأحدهما، ويضمر للأخر فعله، وهو قوله تعالى: ﴿ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ** ﴾[4]، معناه أدعوا شركاءكم. ومنها أن يأتي الكلام على أنه جوابا، فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا** ﴾.[5] أراد لك أن هذا القرآن[6]

ومنها القسم بلا جواب، كقوله تعالى: ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا** ﴾[7] ؛ ومعناه ق والقرآن والمجيد لتبعثنّ، والشاهد ما جاء بعده من ذكر البعث في قوله تعالى: ﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا**﴾[8]، ينبهنا تعليق العسكري على الشواهد، وشرح مواضع الحذف لقيمة تدخل المتلقي في تفعيل

---

[1]-ابن الرشيق القيرواني، العمدة، ج1، ص 242.

[2]- ينظر:العسكري، الصناعتين، ص: 178.

[3]-سورة يوسف، الآية: 81

[4]-سورة يونس ، الآية: 71

[5]-سورة الرعد، الآية31

[6]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 181 . 182.

[7]-سورة ق ، الآية: 1-2.

[8]-سورة الواقعة ، الآية: 47.

تفعيل هذه التقنية، فهو يكتشف المعنى المراد من خلال استيعابه لما حذف، ولسبب الحذف، وإذا ما وصل المتلقي إلى معرفة الحذف وفهم مراميه الإيجازية، كان له حجة في الخطاب، تجعله يميل إليه ويقتنع به.

الإطناب: «قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بإشباع، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني»[1]، ولعل المدار في الحكم على هذه المسألة العودة إلى المقام، فهو وحده المحدد، فإذا استدعى المقام إشباعا في اللفظ والمعنى وجب ذلك حتى يكون الخطاب بينا، ونلاحظ أن العسكري عند حديثه عن الإطناب ذكر مناسبة هذه الخاصية لكل أنواع المتلقين «فهو مشترك فيه الخاصة والعامة، والغني والفطن، والريض والمرتاض»[2] فقد فقد يسبق تدبير الخطاب بالإيجاز تدبيره بالإطناب إذا استدعى المقام ذلك، فلكل مقام مقال، «والإطناب يكون ضروريا في بعض المقامات، لأن المعيار تواصلي تداولي قبل أن يكون شعريا جماليا، وكفايات تدبير الخطاب تقتضي أن يعرف البليغ متى يستعمل الإيجاز، ومتى يستعمل الإطناب.»[3] التواصل إذا وضروراته هو المحدد لنوعية الخطاب، وعلى منتج الخطاب وضع هذا نصب نصب عينيه.

«والحاجة إلى الإيجاز في موضعه، كالحاجة إلى الإطناب في مكانه (....) ومتى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيّا، ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا»[4]، وأتى العسكري بمثال المقام الذي يستدعي الخطاب فيه الإطناب حتى يفيّ أغراضه ويقبل فيه رغم كثرة لفظه قال: «ولاشك في أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاةً، تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب، ألا ترى أن كتاب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة: الحمد لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه، وجعل الحمد متصلا بنعمته، وقضى ألّا ينقطع المزيد من فضله، حتى ينقطع الشكر من خلقه، ثم أنّا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين، نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 190.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 190.

[3]-حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 91 .

[4]-العسكري، المصدر السابق، ص: 190.

يسوؤنا، ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم، فلم يزل ذلك دأبنا؛ ينصرنا الله ويخذلهم، ويمحّصنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتابُ بنا وبهم أجله؛ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين»[1] هذا المقام يستدعى الإطالة لعظم الحادثة وجلالها وهي فتح للمسلمين، ألا تحتاج إلى بسط وإطناب في الألفاظ، وكانت الحاجة للإطناب مشروعة ففصل المهلب في تفاصيل معينة تخص الحرب، ثم بشر بالنصر، فوصل إلى الإمتاع والإفهام والإقناع في نص عباراته جمّة.

أما في مقام أخر هو مقام العزل والتوبيخ مثل «ما روي أن الوليد بن يزيد كتب إلى والي العراقيين حين عتب عليه: «إني أراك تقدم في الطاعة رِجلا، وتؤخر أخرى، فاعتمدْ أيهما شئت والسلام»[2]، وهذا مقام للتحذير، وهو فعل كلامي هنا فعل الوعيد والتحذير، جاء الكلام موجزا يحمل معان مركزة وإنما المدار على المقام، ولو أطال الرجل هنا، لملت الأسماع، وابتذلت المعاني، وغاب غرض الخطاب، ووقع صاحب الكتاب في العيّ، وقد فرق العسكري اصطلاحيا بين العيّ والإطناب بتمثل مصطلح آخر هو التطويل يقول: «الإطناب بلاغة، والتطويل عيّ»[3]، بل إن الإطناب إذا كان في مقامه كان إيجازا، كمقام الوعظ والمدح، والصلح بين العشائر ما يجعله «يؤدي وظيفة تنميقية، ووظيفة إقناعية، فمن جهة يعرض المعنى في صورتين مختلفتين، ومن جهة ثانية يجعل المعنى يتمكن في النفس فضل تمكن»[4]، بفضل التلوين الحاصل لإيصال المعنى، في الأخير يصل العسكري إلى صياغة كفاية خطابية إقناعية هي «شوب الإيجاز بالإطناب»[5]حسب مقامات الخطاب، وبواسطة هذه الصياغة يصل المخاطب إلى تغير وجهة نظر مخاطبه، وجعله يقتنع بوجهته المبسوطة في خطابه.

2- **حسن الأخذ:** يقترب مفهوم الأخذ عند العسكري من مفهوم التناص الذي هو«تعالق نصوص»[6]، أو هو«ترحال للنصوص، وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتفاقم وتتنامى

[1]-العسكري، الصناعتين، ص : 190-191.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 191.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 191.

[4]-عبد الفتاح كيليطو ،الأدب والغرابة، دراسات بنوية في الأدب العربي، الطبعة الثانية، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، سنة: 1983، ص: 82.

[5]-العسكري، المصدر السابق، ص: 195.

[6]-دي بوجراند، النص، الخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، د ت ، ص: 104.

ملفوظات عديدة مقتطفة من نصوص أخرى»[1]، وهذا قريب جدا من مفهوم الأخذ الذي هو تناول المعاني ممن تقدَّم والصبّ على قوالب من سبق، ويشترط تغيير هذه المعاني حال أخذها، بكسوتها بألفاظ جديدة تزيد جودتها[2]، من المؤكد أن هذه التقنية تلعب دورا أساسيا في نجاعة الخطاب، إذ تعمِل ذهن المتلقي باستحضار نصوص سابقة في نص جديد، مما يزيد من دواعي فهمه، وقبوله، وإنما يلجأ منتج الخطاب إلى هذا ليزيد قوة خطابه، فيتأثر ويذعن متلقيه، ولو لم يكن القول المأخوذ عنه حجة، لما استأهل أن يؤخذ عنه، وأقصى ما يفعله المنتج هو استحضار هذه الحجة وزجّها في الخطاب بكسوة جديدة أحيانا وأحيانا كما هي لتكون حجة مضعفة في خطابه الناشئ الجديد.

أورد أبو هلال أضربا عديدة للأخذ: ما يأخذ معناه من نظم فيرد في نثر أو العكس، أو أن ينقل من غرض إلى غرض آخر، ومن أحسن ما ذكر «ممن أخذ المعنى فزاد على السابق إليه زيادة حسنة أبو نواس في قوله:[3]

يَبْكِي فيُذْرِي الدّرُ مِنْ نَرْجِسٍ ويَلْطمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ

أخذه من قول الأسود بن يعفر:

يسْعَى بها ذُو تومَتَيْن[4] كأنّما قَنَأَتْ أَنَامِلُه مِنَ الفِرْصَادِ

ثم أخذ بعض المتأخرين عن أبي نواس فزاد عليه زيادة عجيبة فقال :

وأَسْبلَتْ لُؤْلُؤًا منْ نَرْجِسٍ فَسَقَتْ وَرْدًا وعَضَّتْ عَلَى العُنَابِ بالبَرَدِ

فجاء بما لا يقدر أحد أن يزيد عليه، وكأنه وصل إلى منتهى القول في هذا المعنى، باستثماره كل التقنيات الجمالية في صياغته، حيث كسا نفس المعنى ألفاظا أليق، هذا ما زاد من حجاجية النص بالصياغة الحديثة.

[1]-جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، المغرب، سنة: 1991، ص: 21.

[2]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:196. .

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 201.

[4]-التومتان: مثنى تومة، وهي الحبة من الدر.

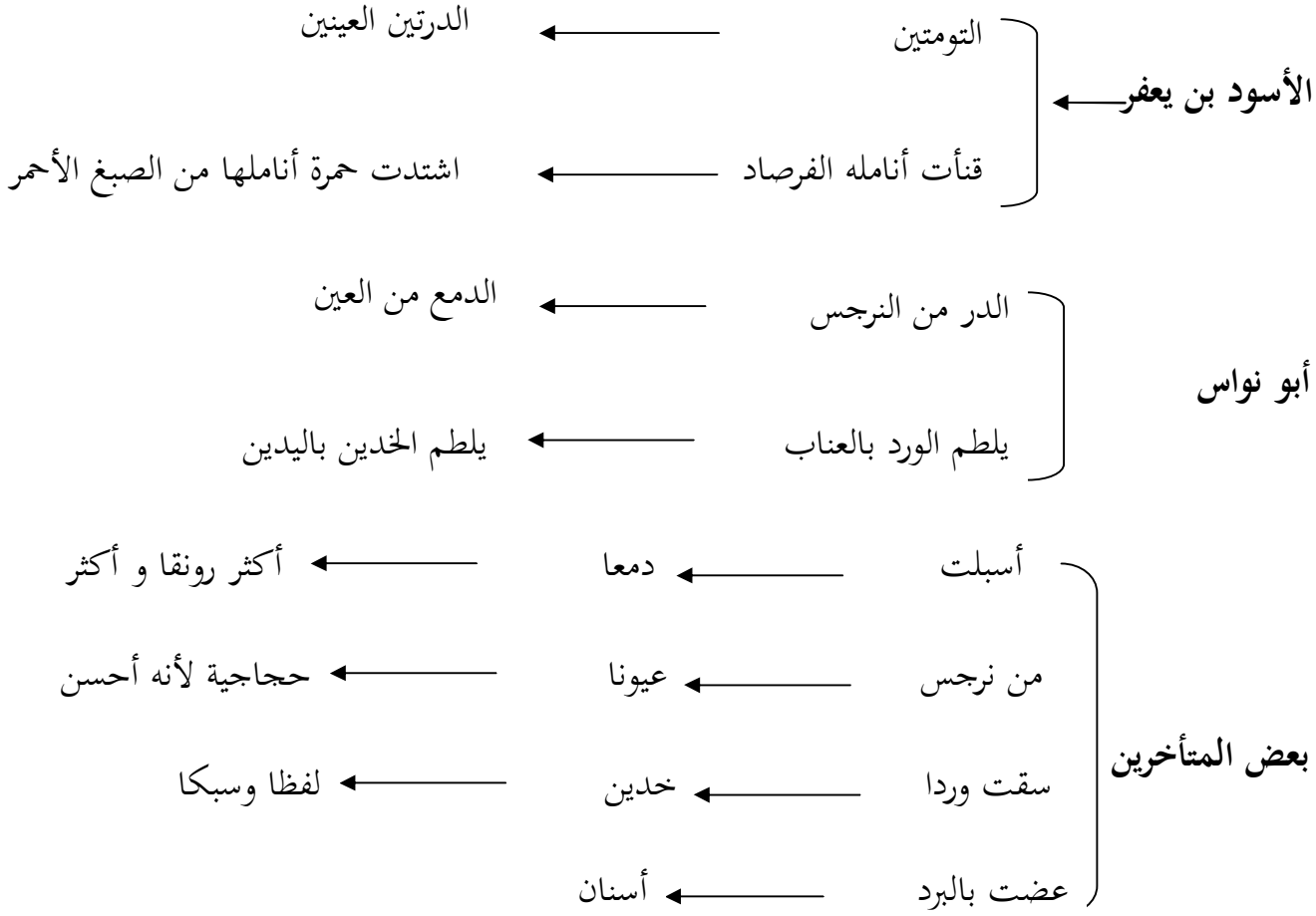

أحسن الأخذ إذًا ما يزيد من قوة النصوص، باعتبار ما يؤخذ من النصوص القديمة حججا تقوي النصوص الجديدة، والأخذ في الشعر خاصية مميزة «ومظهر حجاجي خطير، قوامه الركون من النصوص المتخامة كمخازن للحجج، إليها يركن الشاعر لإعطاء مملفوظة مشروعيته، أو لنقل هي من قبيل الأوتاد في النص الشعري، تشهد له بالحجية والنجاعة.»[1]

أما قبح الأخذ وهو «أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظه كله، أو أكثره أو تخرجه في معرض مستهجن، والمعنى إنما يحسن بالكسوة»[2]، والمتلقي يتعرف على هذا المعنى، أي يحتمل أن يكون المعنى بلفظه قد مرّ عليه سابقا، فلن ينفعل له، لأنه قد يكون انفعل في أول مرة مرّ عليه هذا الخطاب،

[1]-عز الدين الناجح، تداولية الضمني، الحجاج بين تحليل الملفوظ، وتحليل الخطاب، ص: 194.
[2]-العسكري ، الصناعتين ، ص: 229.

وهذا قد ينزل نسب الإقناع ويشتغل عكسيا؛ حيث يستهجن المتلقي النقل الحرفي، وخاصة إذا نسبه المخاطب إلى نفسه من ذلك قول طرفة بن العبد:[1]

وُقُوفًا بها صحْبِي عليّ مَطِيَّهُم يَقُولُونَ: لا تَهْلِك أسًى وَتَجَلَّدِ

وهو قول امرئ القيس:[2]

وُقُوفًا بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُم يَقُولُونَ لا تَهْلَكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فما غيَّر طرفة غير القافية[3]، أما الضرب الثاني وهو أن يأخذ المعنى فيفسد أو يعوص، ويخرج في معرض قبيح، وكسوة مسترذلة[4]، والقيمة الحجاجية للخطاب تتراجع هنا عكس ما يحدث في حسن الأخذ، ويمكن وضع حالة الأخذ في درجات، فيحدث أن يؤخذ من معنى واحد، وتعاد صياغته لتتفاوت الصياغات الجديدة، ومثل ذلك أخذُ أبي نواس من قول النابغة للنعمان بن المنذر: «أيفاخرك ابن جفنة، واللات لأَمْسُكَ خيرٌ من يومه، ولَقَذالُكَ أَحسن من وجهه، ولَيَسَارُكَ أسمحُ من يمينه، ولعبيدك أكثر من قومه، ولنفسك أكبر من جنده، وليومك أشرف من دهره، ولوعدك أنجز من رِفْدِه، ولهَزْلُكَ أَصْوَبُ مِنْ جدّه، ولكرسيك أرفع من سريره...»[5].

فقال أبو نواس[6] آخذا عن هذا :

بأبِي أنتَ منْ مَلِيحٍ بَدِيعٍ بَذّ حُسْنَ الوُجُوهِ حُسْنُ قَفَاكَا

وأخذ أبو كريمة عن هذا كما ذكر العسكري فأفسد المعنى وأجرحه في معرض قبيح وكسوة مسترذلة وهو قوله:

قَفَاهُ وَجْهٌ ، ثم وجهُ الذي قَفَاه وَجْهٌ يَشْبِهُ البَدْرَا

[1]-طرفة بن العبد، الديوان، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، لطفي السقال، دط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، لبنان، دت، ص:23.

[2]-أحمد بن الأمين الشنقيطي،شرح المعلقات العشر، ص:26.

[3]-العسكري، الصناعتين، ص: 229.

[4]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:231.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 231.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص:231. البيت كما أشار العسكري غير موجود في ديوان أبي نواس.

علق العسكري على هذه الحالة من الأخذ فقال: «والنابغة أحذق الجماعة، لأنه ذكر القذال وهؤلاء قالوا القفا، ولا يحسن أن يخاطب الرجل فيقال له قفاك حاله كذا وكذا»[1]؛ أي هؤلاء أخذوا المعنى من النابغة، وما حافظوا على قيمته الجمالية والحجاجية، وبيّن العسكري حجة هذا، بأنهم قالوا القفا، فخرجوا عن المستعمل المتداول، وهو أن لا يوصف الرجل فيقال له قفاك كذا أو كذا، بينما استعمل النابغة القذال، وهذا أحسن فكانت حجةً دعمت خطابه، بينما أساء من أخذ المعنى عنه في توظيفه؛ فمس ذلك حجاجية الخطاب لديهم، وأثبت العسكري بأسلوبه هذا تفرده على من سبقه، بأن يأتي بقول المبتدئ، وقول التالي ويبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول، وهذا ما أشار إليه في نهاية الباب السادس من كتابه.

3- التشبيه والاستعارة :

التشبيه: «دلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»[2]، وهو عند العسكري «الوصف بأحد الموصوفين ينوب مناب الآخر، بأداة التشبيه ناب منابه أو لم ينبْ»[3]، ذكر العسكري عدة أوجه للتشبيه، غير أننا سنذكر أجوده فقط، بغرض توضيح أن هذه الجودة عنده إنما هي قوة أكثر فيما يحتج به مستعمله،كأداة حجاجية ناجعة في إقناع المتلقين فللتشبيه كنوع من العدول القولي سحر خاص وأثر ظاهر عند تلقيه، أول تلك الأوجه حسب العسكري هي: «إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه؛ وهو في قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾[4] فأخرج ما لا يحس إلى ما يحس، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة، وعظم الفاقة، لو قال يحسبه الرأي ماءا لم يقع موقع قوله: «الظمآن» لأن الظمآن أشد فاقة إليه، وأعظم حرصا عليه»[5]، استخدم الله عز وجل هذا التشبيه حجة للإقناع بأن أعمال هؤلاء الكفار متوهمة، لا أساس أساس لها ولا وجود، مثل السراب، إنّ تصور المتلقي لهذه الصورة يجعله ينبهر بها، ويسلم بفكرتها،

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 232.

[2]-القزويني، الإيضاح، ص: 164.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص: 239.

[4]-سورة النور ، الآية39.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص:240.

وقد ذكر أبو هلال العديد من هذه التشبيهات في القرآن الكريم، وذكر تخريجاتها، وشروحها مدلِّلا على أهميتها في التأكيد الدلالي، والنهوض الفعلي بعد الفهم والإقناع.

ثاني أوجه أجود التشبيهات : «إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة»[1]، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**﴾[2] «هذا بيان ما جرت به العادة إلى ما لم تجربه، والمعنى الذي يجمع الأمرين، الزينة والبهجة،ثم الهلاك، وفيه العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تذكر»[3].

إن النفس تنجذب وتندهش بالجديد الخارج عن العادة، وفي هذا النمط من التشبيه إضافة إلى الحليّة والزينة اللفظية تصور ذهني بديع عجيب يأخذ المتلقي إلى عالم آخر، حيث يربط بين شيئين متباعدين ليخرج بهما إلى أقوى أنواع الحجج التي تبهره وتجعله يذعن لما تلقى، والواضح أن العسكري مستوعب لهذا جيدا، حيث نجده في شرحه يفصل في المعنى الذي يجمع بين المشبه والمشبه به، ثم النتيجة المحصلة من هذا التشبيه، وهو حجة تُسْتَوْعَبُ بالعقل وبالنفس، لما فيه من طرافة وإبداع.

أما ثالث أوجه التشبيه وهو: «إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها»[4]، و منه قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا**﴾[5]، وقد مثل الله عزّ وجلّ الذين اتخذوا من دونه أولياء بالعنكبوت، وإنما استعمل تبارك وتعالى هذا التشبيه كوسيلة حجاجية تمكن من توصيل المعنى إلى السامع، وأن يقتنع جازما أنه من يتخذ غير الله وليًا فقد خسر، وفي تخريج العسكري لهذا التشبيه إشارة أيضا إلى نظرية أفعال الكلام، بالخروج بالفعل الكلامي – التحذير- حيث قال: «والفائدة التحذير من حمل النفس على التغرير بالعمل على غير أُس»[6]

ثم رابع الأوجه هنا:إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ** ﴾[7]، وهو تشبيه عجيب جمع فيه بين السفن الجارية المرفوعات الشرع،

---

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 241.

[2]-سورة يونس، الآية 24 .

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص: 241.

[4]-العسكري، المصدر السابق، ص: 241.

[5]-سورة العنكبوت، الآية41 .

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 242.

[7]-سورة الرحمن، الآية 24.

الشرع، والجبال الشاهقة، والجامع بينهما العِظَمْ، وهو حجة على قدرة الله عزّ وجلّ في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء[1].

ولعل ما جعل التشبيه أداة حجاجية بامتياز غرابته، فالنفوس كما تمت الإشارة تميل إلى التعجيب ومن عجيب التشبيه، ما ذكر العسكري من قول امرئ القيس:[2]

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وسَاقَا نَعَامَةٍ وإِرْخَاءُ سِرحَانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

الفرس لا يكون له أيطلا الظبي، ولا ساقا النعامة، ولا غيرهما مما ذكر الشاعر، وهذا من بديع التشبيه لأنه شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد[3]، هذه الحمولة الحجاجية التي يحملها التشبيه، لها شروط وأوجه كما بيّن العسكري، وإذا خرجت عن تلك الشروط أصبح التشبيه يشتغل عكسا، فلا يحسِّن، ولا يجعل الخطاب أكثر إقناعا، بل يؤخر فهمه وقبوله، وبالتالي يعطل اشتغاله كحجة في الخطاب، فهو«يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه»[4] على حد تعبير العسكري.

وعندما يصف ضعف حجية بعض التشبيه يعلق على شواهده بعبارات من قبيل: (فهو معيب والتشبيه الرديء، ومن بعيد التشبيه، ومن خطأ التشبيه، ولا يكاد يرى تشبيها أبرد من هذا، ومن التشبيه المتنافر)[5]، ويشير إلى أسباب رفض هذه الأنماط، وإذا رفضت من طرف المتلقي، فكيف السبيل إلى الإقناع بها، هكذا تتلخص وظيفة التشبيه الإمتاعية والإقناعية فهو«يزيد المعنى وضوحا، ويكسبه تأكيدا، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه»[6]؛ لهذا استحق التشبيه أن يصنف كمهارة وتقنية، وبراعة فنية للإقناع.

الاستعارة : وهي «نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره»[7]، يبدأ العسكري حدَّه للاستعارة بشرح تركيبتها، ثم توضيح الغرض منها، بأن يكون شرح المعنى والإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف

---

[1]-ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:242.

[2]-أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، ص: 31.

[3]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 249.

[4]-العسكري، المصدر السابق، ص: 257.

[5]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 259.258.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 243.

[7]-العسكري، المصدر السابق، ص: 268.

موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا[1]، الاستعارة المصيبة في تصور العسكري سميت المفيدة في تصور الجرجاني بعده، والمختارة عند ابن رشيق القيرواني بعدهما.

الغرض منها الاستمالة، وإنما زيادة الفائدة التي يذكرها أبو هلال حجة في حدّ ذاتها، تجعل الاستعارة أولى في الخطاب من الحقيقة؛ فهي«تعلوا استعمال ألفاظ الحقيقة، وذلك لأنه لا يفضل المرسل استعمالها إلا لثقته بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا، وهذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي أيضا»[2]، «ألا ترى أنك تقول لمن تحتاج إلى الجد في أمره: شمر عن ساقك فيه واشدد حيازيمك له؛ فيكون هذا القول منك أوْكَدُ في نفسه من قولك جدّ في أمرك»[3]، وهذا تغيير للمقاييس التي يعتمدها المرسل إليه في تقويم الواقع، والسلوك ويقوم بالتعرف على هذه المقاييس من خلال فهمه لمقصد المرسل، وهنا تكمن حجاجية الاستعارة، فقولك: شمر عن ساقك، لا علاقة له لفظيا بمعنى الجدّ، ولكن فهم المعنى المراد يربط الجد بالتشمير عن الساق، بهذا يُعَمّلُ ذهن المتلقي، ويبهره هذا المجاز، ويجعله يذعن، هكذا تصنف الاستعارة ضمن أهم الوسائل التي يعتمد عليها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية[4].

فهي أكثر الوسائل قهرا وقسرا، ونلاحظ أن العسكري يخرج كل شاهد من الشواهد فيذكر المعنى الحقيقي، والمعنى الاستعاري، ويبيّنُ فضْلَ الأخير على الأول فيشرح الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه؛ ففي قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ** ﴾[5]، «والعقيم التي لا تجيء بولد، والولد أعظم النعم، وأحسن الخيرات، فلما كان ذلك ذلك اليوم لم يأت بمنفعة حين جاء، ولم يبق خيرا حين مر سمي عقيما، ويمكن أن يقال: إنما سمي عقيما لأنه لم يبق أحدا من القوم، كما أن العقيم لا يخلف نسلا، وسمي الريح عقيما لأنها لم تأت

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 268.

[2]-ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ص: 494 – 495.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص: 268.

[4]- ينظر: أبو بكر العزاوي، نحو مقاربة حجاجية، مجلة المناظرة، العدد الرابع، السنة الثانية، المغرب، شوال 1411، مايو 1991، ص: 81.

[5]-سورة الذاريات، الآية 42.

بمطر ينتفع به ويبقى له أثر من نبات وغيره؛ كما أن العقيم من النساء لا تأتي بولد يرجى»[1]؛ هنا رغبة إلزام شيء بشيء آخر قصد الإقناع، إلزام العقيم وسوء حاله بحال الريح التي لا تأتي بمطر، وما استعمال الاستعارة إلا لتأكيد هذا المعنى وإثباته، فما الاستعارة إلا استدلال مادام أنها تلزم شيئا بشيء، فيتوصل بذلك إلى الإثبات، أو يعاند شيئا فيتوصل بذلك إلى النفي[2]، يمكن تخريج المثال السابق كالتالي:

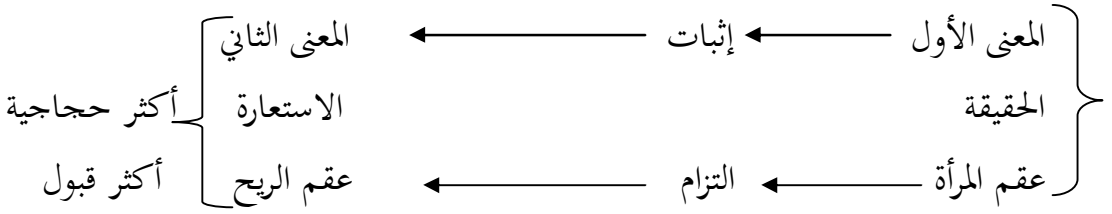

الاستعارة السابقة جاءت بدعوى تسليط العذاب، والريح التي لا نفع فيها، وأُثبِتَ المعنى المراد بشكل بلاغي رائع، كما أنها أدت وظيفة استدلالية حجاجية، وهذا ما اهتمت به البلاغة الجديدة التي لا تفسر تقنيات الخطاب لاعتبارها نمطا أدبيا في التعبير فقط، بل باعتبار فاعليتها في الإقناع؛ أي كتقنية ذات وظائف حجاجية، لذلك لم يكتف العسكري بتوضيح الأثر الجمالي للاستعارات التي استشهد بها، بل كان يشرح العلائق بين عناصرها، ويوضِّح فضل الاستعارة على الحقيقة في توكيد المعنى، وجعلها أكثر قبولا وإقناعا من الحقيقة.

تتمةً لرصد التقنيات البلاغية ذات الوظائف الحجاجية عند العسكري على مستوى المعاني ومن البديع بشكل خاص والذي خصص له بابا كاملا كما سبق الذكر، هذه محاولة لجمع كل تلك الفصول، ومحاولة الظفر بمراميها الحجاجية من خلال استقراء شواهدها المشهورة، على أن يتم التطرق لباقي الفصول البديعية الخاصة بالتناسب الصوتي في مبحث لاحق من هذا البحث.

4- البديع على مستوى المعاني :

1- **المطابقة** : «هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت»[3]

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 272 – 273.

[2]-ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 505.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص: 308.

ومنها قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾[1]، فلم يقرب أحد من لفظ القرآن في اختصاره، وصفائه، ورونقه، وبهائه، وطلاوته، ومائه وكذلك جميع ما في القرآن من الطباق»[2]، وهل يستعمل الله عزّ وجلّ غير الأساليب الحجاجية الناجعة في الإقناع، وكلامه عزّ وجلّ أَعْجَزَ فصحاء العرب، وقد انتشر هذا النوع البديعي في أغراض مختلفة، ومن ذلك قول عدي بن الرعلاء في الشعر[3]:

لَيْسَ منْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ إنما الميْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

«فاستوفى المعنى في قوله ليس من مات فاستراح بميت، وكمّل في قوله إنما الميت ميت الأحياء»[4]؛ يعني ما اكتمل المعنى إلا باستخدام الطباق، وهذا تأكيد على دوره الحجاجي، إذ عدّه العسكري رافدا من روافد الحجاج في الخطاب بجعله أحد سبل استيفاء المعنى، وتمكينه في النفس.

2- **المقابلة:** «إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة،»[5] ومنها قوله تعالى: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾[6]؛ فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم، وأكدّ العسكري أنها حجة في الكلام قال: «وقيل للرشيد أن عبد الملك بن صالح يُعِدُّ كلامه، فأنكر ذلك الرشيد، وقال: إذا دخل فقولوا له: ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن، ففعلوا، فقال: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بواحدة، ثواب الشاكر، وأجر الصابر، فعرفوا أن بلاغته طبع»[7]؛ استعمال عبد الملك للمقابلة هنا كان حجة أفحمت من اتهمه، وأقنعت الحاضرين ببلاغته وبراعته.

---

[1]-سورة الحديد، الآية 06.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 309.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 310.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 315.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 337.

[6]-سورة النمل، الآية 52.

[7]-العسكري، المصدر السابق، ص: 338.

3- **صحة التقسيم**: «وهو أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه»[1]. ومنه قول الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾[2]، هذه القسمة منطقية جلية، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث، وهذه حكمة تتوفر عند صاحب الخطاب المقنع، والخلل في التقسيم يُنَفِّرُ ويبعد مقبولية الخطاب، فنجد العسكري يحكم على سوء القسمة في الخطاب أنها تجعله خطابا مردودا غير مقبول، وأورد شواهد عدة عن عيوب القسمة.[3]

4-**صحة التفسير**: هي أيضا تقنية بديعية تحسن الخطاب على مستوى المعاني، «وهي أن يورد معاني، فيحتاج إلى شرح أحوالها، فإذا شرحت تأتي في الشرح بتلك المعاني من غير عدول عنها أو زيادة تزاد فيها»[4]، وهذا ليس إلا تأكيدا للمعنى الأول، ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[5]، «فجعل السكون السكون لليل، وابتغاء الفضل للنهار»[6]، على التوالي، وهذا غاية الحسن ونهاية التمام على حد تعبير العسكري؛ فجاء عزّ وجلّ بلفظ بديع ومعنى أبدع، وفسر قوله بأقل العبارات الحاملة لأوسع المعاني وهي تقنية ترفد العملية الحجاجية.

5-**الإشارة**: يستمر العسكري في رصد تقنيات الخطاب الذي تسهم في حجاجيته على مستوى المعاني متكلما عن الإشارة في الفصل السابع من باب البديع وهي «أن يكون اللفظ القليل مشارا به إلى معان كثيرة، بإيماءٍ إليها، ولمحة تدل عليها»[7]، ومن ذلك قوله الله عز وجل: ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**﴾[8].

---

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 341.

[2]-سورة الرعد، الآية 12.

[3]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، صص : 342-343-344.

[4]-العسكري ، المصدر السابق، ص: 445.

[5]-سورة القصص ، الآية 73

[6]-العسكري ، المصدر السابق ، ص: 346.

[7]-العسكري ، المصدر السابق ،ص: 348.

[8]-سورة النجم، الآية 16

هنا إشارة إلى معان كثيرة يطول شرحها، وإنما حصرت بإشارة إليها في عبارات مقتضبة، وهنا يظهر دور إمكانيات المتلقي وفطنته في استيعاب المعاني الكثيفة، حتى يتم وصول الرسالة إليه كاملة فيستوعبها ويقنع بها، أي إنّ هذه التقنية تشتغل وفقا لمدى فهم المتلقي.

6-**الأرداف والتوابع**: وهو«أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه الخاص به ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده»[1]، وهذا أيضا استفزاز لذهن المتلقي، حتى يشتغل ويجد الرابط بين معنى اللفظين، وهنا تكمن جمالية هذه التقنية، وتؤكد وظيفتها في تأكيد المعنى وتحسينه، ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** ﴾[2]، «وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة الأرداف والتوابع، وذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف رِدْفًا للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف»[3]؛ على على المتلقي إذا إعمال ذهنه، واستحضار هذه الأرداف، ليفهم المعنى، ذلك ما يوقد ذائقة المتلقي، ويجعل الخطاب ناجحا ناجعا.

صنف محمد العمري هذه الأنواع البديعية على مستوى المعاني ضمن صور الانزياح، فمنها ما يقوم على أساس المجاورة، ومنها ما يقوم على علاقة المشابهة، ونوع آخر يقوم على المبالغة والغلو[4] وإن كنا في هذا المقام لا نتبع هذا التصنيف وإنما كان الشغل على ما يهم المعاني بصفة عامة دون تصنيف ومن ثمة يأتي لاحقا الاشتغال بالتناسب الصوتي أيضا.

7-**الكناية والمماثلة**: تكاد هاتان التقنيتان أن تصبا في فهم واحد، فالمماثلة «أن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر، إلا أنه ينبئ إذا أورده على المعنى الذي أراد،كقولهم: «فلان نقي الثوب يريدون أنه لا عيب فيه، وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلا»[5]. أما الكناية «يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرح على حسب ما عملوا

---

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:350.

[2]-سورة الرحمن، الآية 56.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص: 350.

[4]-ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، ص ص: 295-296.

[5]-العسكري ، المصدر السابق ، ص: 353.

باللحن والتورية عن الشيء»[1]، ومنها قوله تعالى: ﴿**وفرش مرفوعة**﴾[2]،كناية عن النساء[3]، تسير هذه التقنيات وفق ما ذُكِرَ آنفا من توكيد للمعنى وإشغال ذهن المتلقي؛ فمجرد أخذ مساحة للتأمل في المعنى المراد اكتشافه يجعل النفوس والأذهان تميل نحوه.

8- **الغلو والمبالغة:** تجتمع تقنية الغلو والمبالغة أيضا في رفع المعنى إلى مداه؛ فالغلو «تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها»[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾[5] أما المبالغة «أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته»[6]، ومنه قول امرئ القيس:[7]

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

لما أراد المبالغة في وصف محبة المرأة له قال: إني ألهيتها عن رضيعها لمعرفته بشغفها وشفقتها عليه في حال إرضاعها إياه[8]، وهذه حجة استخدمها الشاعر للدلالة على حُضْوَتِهِ عند هذه المرأة، بانشغالها حتى عن رضيعها في حضوره، ومعروف تعلق المرأة بولدها الرضيع.

9- **التذييل والإيغال:** من الفصول التي أوردها العسكري ضمن باب البديع، وتشترك في التحسين اللفظي والمعنوي وتأكيد المعنى خاصة فصل التذييل، فإن له «موقعا جليلا ومكانا شريفا خطيرا، لأن المعنى يزداد به انشراحا، والمقصد اتضاحا»[9]، وهو يشتغل على جهتي التناسب، وجودة المعنى لأنه «إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه»[10]، وغرضه كما وضع العسكري حجاجي واضح، فإضافة إلى تحسين الخطاب يؤكد ويوضح المعنى، ومثاله قول الحطيئة:[11]

---

[1]-العسكري، المصدر السابق، ص: 368.

[2]-سورة الواقعة، الآية 34.

[3]-العسكري ، الصناعتين، ص:368.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص:357.

[5]-سورة الأحزاب، الآية 10.

[6]-العسكري ، المصدر السابق ، ص:365.

[7]-أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، ص:27

[8]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 365.

[9]-العسكري، المصدر السابق، ص: 373.

[10]-العسكري، المصدر السابق، ص: 173.

[11]- الحطيئة، الديوان، ص:45.

قَوْمٌ هم الأَنْفُ والأَذْنَابُ غَيْرَهُمُ ومَنْ يَقِسْ بِأَنْفِ النَاقَةِ الذَنَبَا[1]

فاستوفى المعنى في النصف الأول، وذيّل بالثاني، ومن نفس هذا النوع المؤكد للمعنى الإيغال، «وهو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه؛ ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا، وشرحا، وتوكيدا وحسنا»[2] والملاحظ أن العسكري لا يقدم زخرف القول في تعليقاته، بل نجده يركز على الفهم وتأكيد المعنى قبل شكل وحسن الخطاب، ومن الإيغال قول امرئ القيس :[3]

إذَا ما جرَى شَأْوَيْنِ وابْتَلَّ عِطفه تَقُولُ هزِيزُ الريحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ

إن المعنى قد تم بقوله «هزيز الريح» وزاد تمامه بقوله: «مرت بأثأب» لأنه أخبر به عن شدة حفيف الفرس، وللريح في أغصان الأثاب حفيف شديد[4]، ما فعله الشاعر بإيغاله تأكيد المعنى الجلي الجلي أصلا وزاد من حجاجيته، فتكرير المعنى لزيادة تأكيده من غير غلوٍ وإسراف أو إطناب، من التقنيات الخطابية الإقناعية الأساسية التي تعمل إلى جانب تقنيات أخرى لإنتاج خطاب إقناعي بامتياز.

10-**التتميم والتكميل**: وهو «أن توفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظ يكون فيه توكيده إلا تذكره»[5]، وهو يصبُّ في مصبِّ ما سبق ذكره من إيغال و تذييل في التأكيد على المعنى، وهو من أقوى الصور الحجاجية، أن تجمع كل التقنيات التي تجعل المتلقي يذعن لكلامك، ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾[6]، فقوله تعالى: «وهو مؤمن» أتم المعنى، ومن النثر قول أعرابية لرجل: «كبت الله كل عدوٍّ لك إلا نفسك؛ فبقولها: نفسك، تم الدعاء لأن نفس

[1]- في الديوان: ومن يسوّي.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 380.

[3]-امرؤ القيس، الديوان،ص:34.

[4]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 381.

[5]-العسكري، المصدر السابق، ص: 389.

[6]-سورة النحل، الآية 97.

الإنسان تجري مجرى العدو له، يعني أنها تورطه، وتدعوه إلى ما يوبقه»[1] مدار هذه التقنية على تأكيد المعنى، وتحسينه، و قد ذكر العسكري بيتا للخنساء[2] وهو ما تقول فيه:

وإنّ صخرًا لتُأْتَمُّ الهُدَاةُ به[3] كأنّه عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَارُ

قولها «في رأسه نار» تتميم عجيب، قالوا لم يستوف أحد المعنى استيفاءها[4]، ثم يوضح حجاجية البيت أكثر بأنه مأخوذ من قول الأعشى[5]:

وتُدْفَنُ الصَالِحَاتُ وإنْ يسئ يَكُنْ ما أَسَاءَ النَارَ في رَأْسِ كَبْكَبَا

غير أن الخنساء بتتميمها للمعنى واستعمال أحسن الألفاظ، فاقت بتحويلها قول الأعشى فأقنعت المتابعين، وجعلتهم يقدموا بيتها على بيته.

11- **الالتفات:** هو أيضا من مؤكدات المعنى، وهو على ضربين «واحد أن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به»[6]، ومنه قول جرير[7]:

طَرِبَ الحمامُ بِذِي الأراكِ فَشَاقَنِي[8] لاَزِلْتَ في غَلَلٍ وأَيْكٍ نَاضِرِ[9]

كأنه مقبل على شعره يواصله، وإذ به يلفت إلى الحمام فيدعو له، أما ضربه الآخر «أن يكون الشاعر آخذا في معنى وكأنه يعترضه شك، أو ظنّ أنَّ رادًا يردّ قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه، يؤكده أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه»[10]، هذا كله في خدمة ما دعا إليه أبو هلال من تسهيل المعاني، وجعلها متناولة الفهم، فمثل هذه الأساليب تُعْمِلُ الأذهان، وتزيد تأكيد الخطاب، إضافة إلى زخرفتها الجمالية.

---

[1]-العسكري، المصدر السابق، ص: 389.

[2]-الخنساء، شرح الديوان، تقديم وشرح: فايز محمد، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة: 2005، ص:230.

[3]-في الديوان: أغرّ أبلج تأتم الهداة به.

[4]-العسكري، الصناعتين، ص: 391.

[5]-الأعشى، الديوان، ص: 21.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 392.

[7]-جرير، الديوان، ص: 333.

[8]-في الديوان:فهاجني.

[9]-البشام ، شجر ذو ساق، وأفنان وورق، ولا ثمر له، ينظر: العسكري، المصدر السابق، هامش ص: 392 .

[10]-العسكري، المصدر السابق، ص:392.

12- **تجاهل العارف ومزج الشكّ باليقين، والاستثناء، والاستشهاد:** أما تجاهل العارف، ومزج الشك باليقين، فهو تلاعب معنوي؛ «إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يُشَكُّ في صحته فيه ليزيد بذلك تأكيدا»[1]، ما لاحظناه أن جلّ شواهد هذا الفصل تحوي استفهاما، وكنا قد تطرقنا سابقا إلى مبحث المساءلة والحجاج عند ميشال مايير[2]، ومن شواهده قول ذي الرمة:[3]

أَيَا ظَبْيةَ الوَعْسَاءِ بينَ جَلَاجِلٍ وبين النّقا أأنتِ أمْ أُمُّ سَالِمِ

هو هنا يدرك موصوفته، لكنه يستفهم إن كانت هي أم سالم على سبيل الشك المصطنع، أما الاستثناء و»هو ضرب تأتي معنى تريد توكيده، والزيادة فيه، فتستثني بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها، والتوكيد الذي توخيته في استثنائك»[4]، «وضرب آخر هو استقصاء المعنى، والتحرز من دخول النقصان فيه»[5]، مثل قول الشاعر[6] في وصف الخيل:

منها الدّجوجيّ ومنها الأَرْمَكُ[7] كالليلِ إلَّا أَنّهَا تُحَرَّكُ

شبهها بالليل في شدة سواده، إلا أنها تحرّك والليل لا يُحرّك، وهذا استثناء لمعنى يخصّ الخيل أكده الشاعر باستعمال «إلا أنها تحرك»، عمل هذا المعنى على تأكيد المعنى العام، فهي لا تأخذ كل صفات الليل بل صفة واحدة.

التقنية الثالثة هنا هي تقنية تعد من أهم الأساليب الحجاجية، إذ إن تشكيل بنيتها حجاجي في الأساس بتصريح من العسكري نفسه؛ «وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين (...) ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول،

[1]- العسكري، المصدر السابق، ص: 396.

[2]-ينظر: الفصل الأول من هذا البحث، ص:40.

[3]-العسكري، الصناعتين، ص:397.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص:408.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 408.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 409.

[7]-الدجوجي: الشديد السواد، الأرمك اللون الذي يخالط غبرته سواد. ينظر: المصدر السابق، هامش ص: 409.

والحجة على صحته»[1]، وهذا هو القصد من الإشارة سابقا لجعل العسكري هذه التقنية تشتغل حجاجيا، وهي قائمة على علاقة مشابهة فهي ليست إلّا «تشبيها تمثيليا ضمنيا؛ حيث تتبع الفكرة بمثل أو حكمة للمصادقة عليها، لما بين الطرفين من علاقة مشابهة»[2]، لأنه ذكر ذلك في آخر الفصل وقال: « وتدخل أكثر هذه الأمثلة في التشبه أيضا»[3]، إذًا الاستشهاد بحوادث شهيرة، أو أمثلة معروفة من أوضح صور الحجاج، وقد تمت الإشارة سابقا إلى أهمية الشاهد والمثال في بناء الخطاب الحجاجي وقد أكد العسكري على هذا، أي أن اختيار الأمثال السائرة، والتشبيهات المليحة في إنتاج الخطاب من أنجح الحجج للإقناع «فالأمثال أحب إلى النفوس لحاجتها إليها عند المحاضرة والمجالسة»[4]، وهل من غرض يرجى للمحاضر غير إقناع جمهوره، وأحسن ما قيل في الشعر في هذا الفصل قول الشاعر:[5]

عصاكَ الأقَارِبُ في أَمْرِهِمْ فَزَايلْ بأمركَ أو خَالطِ

ولَا تَسْقُطَنَّ سقوطَ النَوَا ةِ من كفِ مُرْتَضخٍ لاقطِ

استعمل تشبيها مليحا، ومثلا حسنا «وهكذا يفعل الكتاب الحذاق»[6].

13-**الاستطراد:** من مؤكدات المعنى أيضا وهو: «أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينا يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سببا إليه، كقول الله عز وجل: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾[7] فبينما يدل الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: «إن الذي أحياها لمحي الموتى» فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدم من ذكر الغيث والنبات دليلا عليه، ولم يكن في تقدير السامع لأول الكلام، إلا أنه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر، دون الدلالة على

[1]-العسكري، المصدر السابق ، ص: 416.

[2]-محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادتها، ص: 296.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص: 419.

[4]-العسكري، الصناعتين، ص: 444

[5]-ينظر العسكري، المصدر نفسه، ص: 444

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 444.

[7]-سورة فصلت، الآية 39.

الإعادة، فاستوفى المعنيين جميعا»[1]، وهذه قدرة عجيبة لتوكيد المعنى، وقد أخرج العسكري ذلك موضحا أن أول الآية يظهر معنى معين (قدرة الله عز وجل في إنزال الغيث) ثم يستطرد عز وجل بمعنى ثان يتعلق ب(قدرته على إحياء الموتى) وقد جعل المعنى الأول سببا للمعنى الثاني، وهذا حجة على قدرة الله عز وجل يذعِنُ لها المتلقي لحسن صياغتها، ولتوصيلها للمعنى بشكلٍ يجعل متلقيه مستسلما له.

14- **الاعتراض والرجوع والسلب والإيجاب**: وهي من المتشابهات في فصول باب البديع، وهي تقنيات تحسينية تزيد الخطاب جمالا، وتعمل كرافد حجاجي، أمّا الاعتراض وهو«اعتراض كلام في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه»[2].كقول النابغة الجعدي[3]:

أَلَا زعمتْ بنو سعد بأَنِي	أَلَا كذبُوا–كبير السن فَانِي

فالشاعر لم يتم زعم بني سعد في الشطر الأول، بل اعترض بكلام آخر، وهو وصفهم بالكذب ثم استأنف الكلام، وأتم المعنى الأول بقوله: «كبير السن فاني»، فأتم المعنى الذي أراده أولا.

وأما الرجوع فهو«أن يذكر شيئا ثم يرجع عنه كقول القائل:ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك»[4]، وهو حركة ذهنية على مستوى المعاني تطرح فكرة ثم تعود عنها، ومثله السلب والإيجاب وهو«أن تبني الكلام على نفي شيء من جهة، وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به من جهة والنهي عنه من جهة»[5]، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ **فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾[6]

ومن خلال الشواهد التي استعملها العسكري يظهر أن هذا الفصل يرتبط أيضا مع فصل الجناس، إذ نلاحظ تكرار الألفاظ عند النفي، وهذا يشتغل على تحسين الخطاب في المعنى، وعلى مستوى الصوت، وذلك عتاد البلاغة في الإقناع .

---

[1]-العسكري، المصدر السابق، ص: 398.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 394.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص:394.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 395.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 405.

[6]- سورة المائدة، الآية 44.

15-**المضاعفة**: وهي«أن يتضمن الكلام معنيين، معنى مصرح به، ومعنى كالمشار إليه»[1]، ومنه قول الأخطل[2]:

قَوْمٌ إذَا اسْتَنْبَحَ الأَضْيَافُ كَلْبَهُمْ قَـالُـوا لأُمِّهُمْ بُولِي علَى النَّـارِ

معنى أخبر به عن بخلهم، ومعنى أشار به مهانتهم، وكلاهما يعمل لهجاء هؤلاء القوم.

16-**التلطف**: يظهر من حدِّ تقنية التلطف إنها حجاجية بامتياز «أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه، والمعنى الهجين حتى تحسنه»[3]، وهذا يقترب من معنى الحجاج، في أن تغيّر بخطابك وجهة نظر المتلقي، وقد ذكر العسكري أن هذا الفصل حجاجي، عندما أورد مثالا من النثر مستشهدا به، وهو«أن يحي بن خالد البرمكي قال لعبد الله بن صالح: أنت حقود، فقال: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان. فقال يحي: ما رأيت أحدا احتج للحقد حتى حسّنه غيرك»[4]. قام عبد الله باستقدام ألفاظ حميدة واستعمل ذكائه في التنسيق بينها حتى غيّر وجهة المتلقي، فعندما قال بقاء الخير وإن قرنها بالشر فالخير أسبق، فلطّف من مفهوم الحقد وجعل متلقيه يذعن لفكرته.

17-**المذهب الكلامي**: هو الفصل الثامن والعشرين ضمن فصول باب البديع، وذكر العسكري أن ابن المعتز جعله خامس أبواب البديع، «وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه، وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية، تصح نسبتها إلى علم الكلام»[5]، وهو شبيه بالتلطف نوعا ما غير غير أنه يختلف عنه كون حججه محددة-نوعية- و قد نسب إلى التكلف، ومن أمثلته قول أعرابي لرجل: «إني لم أضر وجهي عن الطلب إليك، قصر نفسك عن ردي، فضعني من كرمك، بحيث وضعت نفسي من رجائك»[6]، فألزمه الحجة بهذا.

---

[1]-العسكري، المصدر السابق، ص: 423.

[2]-الأخطل، الديوان، ص:166.

[3]-العسكري، الصناعتين، ص: 427.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 427.

[5]-تقي الدين الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام سعيتو، الطبعة الأولى، دار مكتبة الهلال، بيروت ، ج/1، سنة:1987، ص: 364.

[6]-العسكري ، المصدر السابق ، ص: 410.

18-**فصل المؤتلف والمختلف:** «وهو أن يجمع في كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة»[1]،كقول الله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ** ﴾[2]زخرفة من الألفاظ المختلفة، شكلت تنوعا جميلا مقصودا طبعا، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أنها آيات أراد من خلالها إثبات سوء العقاب الذي حاق بهؤلاء القوم.

هذا آخر الفصول ضمن باب البديع والتي تشتغل على مستوى المعاني كما سبقت الإشارة، وهي عبارة عن صور، وإمكانيات ميزت البلاغة العربية، ولها دور حجاجي إلى جانب زخرفتها وتحسينها للخطاب، وقد أثبت العسكري من خلال شروحاته لبعض شواهدها كيف تشتغل لتأكيد المعنى، والإقناع به، فأثبت أن الحجاج من أهم الوظائف المناطة بهذه الأنواع البديعية، وإن تكلم العسكري عن أنواع البديع على مستوى المعاني، فإنه ذكر أيضا البديع على مستوى الأوزان والمناسبات الصوتية.

5- البديع على مستوى الصوت والإيقاع:

من الواضح توجه البلاغين العرب للاهتمام بالصوت والإيقاع، ولعل العسكري من أوائل البلاغين الذين اهتموا بهذا الجانب، إذ يسجل حديثه الدائم عن التوازن باعتباره قيمة أدبية كبيرة الأهمية، وحديثة عن الفصاحة وصفات اللفظ[3]، وقد جمع هذه التقنيات في باب البديع إلا السجع فقد خصّه بباب منفرد وهو الباب الثامن من كتابه[4]، تتضافر هذه المحسنات الصوتية لتحسين الخطاب، وقد كان سائدا أن دورها يقتصر على الوظيفة الشكلية فقط، «وهذا الرأي ليس صوابا، إذ إنَّ لها دورا حجاجيا لا على سبيل زخرفة الخطاب، ولكن بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد»[5] والحديث عن السجع كأول تقنية، والذي يمنحه أبو هلال أهمية عالية «فلا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغٍ كلاما يخلو من الازدواج»[6] ويؤكد أهميته في الخطاب، بأن لو كان الكلام يحسن بدون ازدواج لتخلى الله سبحانه وتعالى عن استعماله في كتابه

[1]-العسكري، المصدر السابق، ص: 401.

[2]-سورة الأعراف، الآية: 133.

[3]-ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، ص: 301.

[4]- العسكري، الصناعتين، ص:260.

[5]-عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ص: 497-498.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 260.

الكريم، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** ﴾[1]، قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى[2]، والإشارة كانت من العسكري في هذا الموضع، أن للتسجيع دورًا في تمكين المعنى وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة، وهذا كله من مميزات الخطاب القرآني، الذي تظهر فيه هذه التقنية بكثافة.

ومثله الخطاب النبوي فهو يعج بهذا الصنف البديعي، وهنا أشار أبو هلال أن النبي صلى الله عليه وسلم، ربما يغير الكلمة عن وجهتها للموازنة بين الألفاظ، وإتباع الكلمة أخواتها،كقوله صلى الله عليه وسلم: «أعيذُه من الهامة، والسامّة، وكل عين لامّة، وإنما أراد مُلّمَة»[3]، قصدا لتوازن وصحة التسجيع، والنبي عليه أزكى الصلاة والتسليم هو من هو في البلاغة، وقد أوتي مجامع الكلم، أعلمُ بأي المواضع يجب التسجيع، وأيّها يدعي تركه، فإن كان السجع رافدا من روافد الخطاب الحجاجي، فإن التكلف فيه يكون وبالا عليه، حيث أنه يعوق الوظيفة الإبلاغية للخطاب، كما أنه منافٍ لغرض الإقناع، لهذا ذهب العسكري إلى ضرورة الاعتدال في استعمال السجع، حسب ما يقتضيه المقام، فقد اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم «في موضع تجنب السجع، وهو معرّض له، وكلامه كان يطالبه فقال: وما يدريك أنه شهيد، لعله يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا ينفعه، ولو قال: بما لا يغنيه لكان سجعا، والحكيم العليم بالكلام يتكلم قدر المقامات، ولعل قوله: «ينفعه»كان أليق بالمقام فعدل إليه»[4].

إذا يكون السجع رافدا حجاجيا إذا كان غير متكلف، واستعمل في مقامه المناسب وهو مستعمل في نظم الكلام كما في نثره، نظرا لإعجاب العرب به، وإدراكهم لوظائفه الإمتاعية والإقناعية، وسمى أهل الصنعة هذا النوع من الشعر بالمرصع، وقد خصّه العسكري بفصل في باب البديع، وعرفه «بأن يكون حشو البيت مسجوعا، وأصله من قولهم رصّعت العقد إذا فصّلته»[5] ومثاله ومثاله قول امرئ القيس:[6]

---

[1]- سورة العاديات، الآية 1-4.

[2]-ينظر: العسكري، المصدر السابق ، ص: 260.

[3]-العسكري، الصناعتين، ص: 261.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 262.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 375.

[6]-امرؤ القيس، الديوان، ص:37.

وأوتاده ماذِيّة وعِمَادهُ رُدَيْنِيةٌ فيهَا أسنّة قَعضبِ

هذه التقنية إذا توافقت مع موضع القصيدة كانت حسنة في موقعها، وإن كثر استعمالها وتوالى دلّ على التكلف على حد تعبير العسكري.

وغير بعيد عن هذه المؤالفة الصوتية والإيقاعية يقع جنس بديعي شبيه وهو التجنيس وهو«أن يورد المتكلم كلمتين، تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها»[1]، ومنه ما تجانس الكلمة فيه الأخرى لفظا واشتقاق معنى كقول الشاعر:[2]

يومًا خلجْت على الخليجِ نفوسَهم عَصْبا وأنت لمثلـها مُسْتَامُ

معنى خلجت هنا جذبت، والخليج بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهما لفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى، وهذا أقوى أنواع التجنيس إذ يستعمل المعنى وحليّة اللفظ ليكون حجة قوية لمدعى المخاطِب، أما نوعه الآخر الذي يجانس في تأليف الحروف دون المعنى فيشغل على مستوى الصوت فقط.

و منه قول الشاعر:[3] فأرفقْ بِه إن لَوْمَ العاشقِ اللّومُ

ودائما ما يدعو العسكري إلى الاعتدال في القول، فإن هذا الجنس على حسنه إذا طاله تكلف صار ضد قبول الكلام، وبالتالي ضد الإقناع به، لأن رغبة الشاعر في نسج نص متناسب الأجزاء، مراعيا الشكل والإيقاع دون المعنى ينعكس سلبا على جودة الخطاب،كقول أبي تمام[4]:

قَرّتْ بقُرّآنِ عينُ الدينِ وانشترت بالأشرينِ عيونُ الشّرك فاصطُلِما[5]

هذا من غثاثة اللفظ وسوء التجنيس[6] فهو حُكْمٌ على البيت بعدم المقبولية لسوء تجنيسه، والتجنيس موضوع أصلا للتحسين الموصل إلى الإقناع، فإذا اشتغل عكس ذلك كيف يكون مصير الخطاب.

---

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 321.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 321.

[3]-صدر البيت: يا صاح إن أخاك الصب مهموم. ينظر: العسكري، المصدر السابق، هامش ، ص: 321.

[4]-أبو تمام، الديوان، ص:284.

[5]-شترت العين: استرخت وانشقت. واصطلم: استؤصل. ينظر: أبو تمام، الديوان، هامش،ص:284.

[6]-ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 335.

ومما يؤكد مكانة التجنيس في جعل الخطاب حجة، قول العسكري معلقا على أبيات لم يصبْ صاحبها في توظيف التجنيس، يقول بعد ذكره للأبيات[1]، «وهذا مُستهجَن لا يجوز لمتأخر أن يجعله حجة في إتيان مثله، لأن هذا شاذ معيب،(...) وإنما الاقتداء في الصواب لا في الخطأ»[2]، لهذا كان تركيز العسكري على هذه المحسنات وجعلها تسهم في بناء الخطاب جماليا وحجاجيا، بما يناسب المعنى والسياق، وهذا سبب جمعه للآليات التي تختص بتأليف الأصوات[3].

ومنها أيضا التعطف وهو«أن تذكر اللفظ ثم تكرره، والمعنى مختلف»[4] يذكر شواهد كثيرة من من الشعر والقرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾[5]، ومن بديع اللفظ المجاورة، وهي«تردد لفظتين في البيت، ووقوع كل واحدة منها بجنب الأخرى أو قريبا منها، ومن غير أن تكون إحداهما لغوًا لا يحتاج إليها»[6]، من ذلك قول أبي تمام:[7]

ومَا ضيْقُ أَقْطَارِ البلادِ أضافنِي إليكَ ولكِن مذهبي فيكَ مَذْهَبِي

هذه التقنيات التي تحقق التناسب والتوازي في الشعر تؤدي وظيفة جمالية خاصة في النظم وتعطي جرسا يجلب المتلقي إضافة توخي شروط المعنى إلى المعنى، فهذه التقنيات لا تُؤتي أكلها إذا لم تكن معانيها صحيحة مقبولة.

هذا التضافر بين الشكل، والجوهر هو ما يوصل إلى الإقناع فالنفس تميل إلى المعنى الحسن في القوالب المتوازية، ومن تلك التقنيات أيضا التشطير والتطريز؛ والتشطير «هو أن يتوازن المصراعان، والجزءان وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه، واستغنائه عن صاحبه»[8]، ومثاله قول

---

[1]-الأبيات هي لأبو الغمر يصف السحاب: نسجته الجنوبُ وهي صناعٌ فترقّى كأنه حبشي
وقرى كل قرية كان يقرؤ ها قرى لا يجف منه قَرِيّ
ينظر: العسكري، المصدر السابق، ص: 335.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 335.

[3]-ينظر: محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، ص:93.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 420.

[5]-سورة الروم ، الآية 55.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 413

[7]-أبو تمام، الديوان، ص:32.

[8]-العسكري، المصدر السابق، ص: 411.

بعضهم: «من عتب على الزمان طالت معتبتُه، ومن رضي على الزمان طابت معيشته»[1]، جاء الجزآن هنا متوازايا الألفاظ، أما التطريز فهو تقنية بديعية خطيرة «هو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون التطريز فيها كالطّراز في الثوب»[2] ومن أجود ما قيل في هذا قول الشاعر[3] وهي أجمل صور التطريز:

أعوام وَصْلٍ كادَ[4] يُنْسَى طُولُهَا ذكرَ النوى فكأنها أيامُ

ثم انبرتْ أيامُ هجرٍ أردفتْ نجوَى أسًى فكأنها أعوامُ

ثمّ انقضتْ تلكَ السنونُ وأهلُهَا فكأنّهُم وكأنَّها أحْلاَمُ

وقع التطريز في: طولها،كأنها، أهلها. وأيام، وأعوام، وأحلام، أضفت على الأبيات جاذبية بلاغية على مستوى الإيقاع، وعلى مستوى المعاني أيضا.

ومن جميل هذه الفصول العكس حين «تعكس الكلام، فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول، وبعضهم يسميه التبديل»[5]، وهو شكل بديعي جميل في البلاغة على مستوى الشكل الشكل والمعنى، ودائما ما كان التركيز على هذه المسألة، وقد ركز عليها العسكري بشكل خاص، فالبلاغة العربية ليست كما يقال عنها بلاغة تحسين وزخرف لفظي فقط، لذلك نجد العسكري في شواهد هذا النوع يركز عليهما معا لفظا ومعنى يقول: «وقيل للحسن بن سهل، وكان يكثر العطاء: ليس في السّرف خير، فقال: ليس في الخير سرف، فعكس اللفظ واستوفى المعنى»[6]، فأفحم مكلمه، فلا يجد كلاما يرد به عليه بعد هذا، ومثله أيضا تقنية تستدعي توخي اللفظ والمعنى تقنية رد الأعجاز على الصدور، فأول ما ينبغي أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظا تقتصي جوابا فالمرضيُّ أن تأتي بتلك الألفاظ بالجواب، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها، كقول الله تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ**

[1]-العسكري، المصدر السابق، ص: 411.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 425.

[3]-أبو تمام، الديوان، ص:263 .

[4]-في الديوان: كان.

[5]-العسكري ، المصدر السابق ، ص: 371.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص ص: 371-372.

﴿سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[1] ففيها يتوخى المنتج استعمال الألفاظ وتكريرها بنفس معناها حتى يجمل الخطاب ويؤكد المعنى، وفي هذا أيما استمالة للمتلقين.

فالاهتمام بوجوه تحسين الكلام بعد مطابقة ووضوح الدلالة هو مذهب العسكري في تصوره للخطاب الإقناعي الناجع والناجح جماليا وإبلاغيا؛ فخير الشعر عنده «ما تسابق صدوره وأعجازه ومعانيه وألفاظه، فتراه سلسا في النظام جاريا على اللسان، لا يتنافى ولا يتنافر(...) ألفاظه متطابقة وقوافيه متوافقة ومعانيه متعادلة،كل شيء منه موضوع في موضعه»[2]؛ وهو بكلامه هذا يتكلم عن خطاب متكامل يضع كل شيء في موضعه، فهو يقول إذا حُلَّ هذا الشعر وأصبح نثرا لم يفقد من حسنه شيئا، وهذا يؤكد أنه يتكلم عن الخطاب بصفة عامة، وقد تكلم الرجل في مواضع مختلفة عن الخطبة والرسالة، وهما جنسان نثريان، اشترط فيهما أيضا شروطا مشتركة مع النظم فيما يخص اعتبار الألفاظ والمعاني مثلا.

فالعسكري إذا يحتفي بالأشكال البديعية سواء على مستوى الألفاظ أو المعاني لا يقصد إلى التركيز على دورها الجمالي الزخرفي فقط، بل يركز على الدور الإقناعي من خلال حديثه عن آليات اشتغال هذه الأشكال لإبلاغ الأثر مبلغه الأبعد، وهذا هو الدور الحجاجي للبديع وأشكاله[3]، فلو كان الزخرف الشكلي هو المطلب لما انتقد العسكري الكثير من مواضع الزخرفة، لأسباب قد تكون تكلفا، أو خروجا عن العرف أو المنطق، أو تعمية في المعنى، رغم حسن تأليفها، نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر ذكره من معيب الترصيع قول المتنبي:[4]

عَجِبَ الوُشَاةُ منَ اللّحاةِ وقولِهم دَعْ ما نَرَاكَ ضَعُفْتَ عَنْ إخْفَائِهِ

قال: هذا رديء لتعميته معناه[5]؛ فالمعوّلُ إذا ليس على شكلٍ وزخرفٍ، أو معنى واضحٍ جليٍّ بل عليهما معا، باستعمال التقنيات التي جمعها العسكري وقدمها دروسا ملخصة لمريدي الكلام وصنوفه.

---

[1]-سورة الشورى، الآية 40 .

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 382.

[3]- ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ص : 497-498.

[4]-المتنبي، الديوان، ص:13.

[5]-العسكري، المصدر السابق، ص: 379.

1 . 4- المخاطَب، فاعلية المتلقي في الإقناع:

عنيت البلاغة العربية بعنصر المتلقي، عنايتها بباقي عناصر الخطاب ونحن هنا بصدد الحديث عن دور هذا العنصر في إنتاج الخطاب الإقناعي في الصناعتين، باعتباره إحدى حلقات تاريخ النقد والبلاغة، وهو حافل بالحديث عن عنصر المتلقي، وعملية التلقي بشكل عام، فالخطاب فيه يشكل هدفًا صياغيًا ودلاليًا، والمتلقي مُسْتَهْدَفٌ، يتمثل دوره في السماع والتأثر المباشر[1] والقراءة، والعسكري وإنْ أكثر الكلام عن الخطاب الشفهي خاصة في ميدان الشعر، فإنه تكلم أيضا عن الخطاب الكتابي، وخصّه في الرسائل، ولهذا الجنس متلقية الخاص بطبيعة الحال.

الواقع أن المخاطَب أو المتلقي موجود حتى قبل إنتاج الخطاب، فهو مشخّصٌ في ذهن المخاطِب «فالخطاب يقتضي أن يكون المتكلم، قد كوّن فكرة مفترضة وصورة متخيّلة عن مخاطَبِه قبل أن يواجهه بخطابه واقعيا وفعليا»[2]، ولعل هذه أهم الكفايات المكملة لتكوين المخاطِب؛ أن يعرف متلقيه فهو الهدف من الخطاب، وفيه يكمن نجاح مشروع الإقناع.

وقد أشار الجاحظ قبل العسكري إلى هذه الكفاية، وهي«أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلمات على أقدار المعاني، ويقدم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[3].

ولعله المعنى نفسه الذي ذكره شايم بريلمان في مفهوم لقاء الأذهان، وهو أنَّ توجيه الخطاب إلى السامع يقتضي وجود لغة مشتركة، وتقنية تسمح بالتواصل[4]، وهو المعنى ذاته عند العسكري والذي أخذه أساسا من عند بشر بن المعتمر وصحيفته المشهورة يقول: «واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال؛ فإن كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب»[5]، وهذا بتجسيد فعلي لهذه الرؤية وهي تصور شكل ونوع المتلقي في ذهن المنتج

---

[1]- ينظر: فايز الذبيبات، قضايا الأسلوب في بلاغة العسكري، ص: 126.

[2]- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 285.

[3]- الجاحظ، البيان والتبين ، ج/1 ،ص: 138-139 ، والعسكري، الصناعتين، ص: 135.

[4] -voir. Berelman, l. olberechts-tyteca, traité de l'argumentation, p 19.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 135.

حتى قبل إنتاج الخطاب، حتى تقع المنفعة؛ أي فهم الخطاب والتأثر به «وزحزحة المتلقي عن موقعه»[1]؛ من ثمة يتم مشروع إقناع هذا المتلقي بنجاح، فالخطاب «يصب على قدره أو مقامه ما دام هو المراد إقناعه»[2]، وقد تصور العسكري مُخاطَبًا خاصا في ذهنه، له يوجه الخطاب، وبه تنجح العملية التواصلية ووضع له شروطا.

1- حسن الاستماع : وهي أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في المتلقي، فإنها الطريق إلى وصول مقتضى الخطاب إلى متلقيه، ونجد العسكري مركزا على هذه النقطة بأن أورد كلاما لابن المقفع وهو: «ربما كانت البلاغة في الاستماع، فإن المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدي إليه الخطاب، والاستماع الحسن عونٌ للبليغ على إفهام المعنى»[3]، والإفهام من أغراض الرسالة اللغوية المهمة عند العسكري، وهي موصلة إلى مراحل أخرى، هي: الإقناع، والتأثير؛ فموضوع الكلام إذا على الإفهام أصلا[4]، وهل يصل متلقي الكلام إلى موضوعه إذا لم يحسن الاستماع إليه أصلا، وقد تنبهت سامية بن يامنة في مؤلفها: «الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين» إلى دقة مصطلح الاستماع الذي استعمله العسكري؛ فهو لم يقل السمع؛ والسمع قوة في الأذن تتحرك بها الأصوات، والاستماع أسمعه أي أصغى إليه، وأصغى بمعنى أحسن الاستماع[5]، وربما كان القصد أن السمع متعلق باستقبال الأصوات وفقط، أي وظيفة الأذن بالتقاط الأصوات كيفما اتفق، بينما الاستماع فهو وظيفة ذهنية يفهم السامع من خلالها ويستوعب ما تلقته أذناه، والفهم محور أي عملية تواصلية، فهو فعال دوما، ووحده القادر على إدراك تيمة الخطاب[6]، هو إذًا أول خطوة للإقناع، ولا يتوقف حسن الاستماع والفهم على المتلقي وحده، بل عليه وعلى نوعية الخطاب أيضا

[1]-محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 12.

[2]- جميل عبد المجيد، البلاغة و الاتصال، ص: 116.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص: 16.

[4]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 29.

[5]-ينظر: سامية بن يامنة، الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين، ص: 133-134.

[6]-ينظر: تودروف، باختين، المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، دط، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، سنة: 1996، ص:65.

«فالسمع يتشوَّف للصواب الرائع وينزوي على الجهير الهائل(...) والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغي إلى الصواب»[1].

يعني أنّ العملية بالأساس متوقفة على الخطاب أيضا ونوعه، وهو الخطاب الذي يفرض أن يحسن الاستماع إليه، وهو خطاب إقناعي لا محالة.

2- حال المتلقي:

1- الحالة الثقافية: هنا على منتج الخطاب أن يتحرى أي نوع من المتلقين سيوجه خطابه، ويراعي في ذلك حالته الثقافية فيجب أن يأخذ بعين الاعتبار الكفايات الذهنية لمخاطبه، لتتم غاية الإقناع «والإقناع يقتضي أولا وأساسا أن يكون المتكلم قادرا على إفهام مخاطبه، ويكون هذا الأخير قادرا على فهم الخطاب، وتفهمه»[2]، وقد ذكر العسكري أنواعا للمتلقين في معرض حديثه عن تقنية التذييل؛ حيث ذكر أن هذه التقنية تستعمل في المواطن الجامعة أي المواطن التي تحضر فيها كل تلك الأنواع، وهذا دليل على تصوره وجود تقنيات أخرى لها متلقين خاصين، حيث قال: «فأما التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه، وهو ضد الإشارة والتعريض؛ وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللّقن، وصح للكليل البليد»[3]، إنها الأنواع التي تمت الإشارة إليها،كل حسب ثقافته، وبإيراده هذا النص أشار إلى تصنيف طبقات المتلقين حسب أذهانهم، وعلى المنتج مراعاة ذلك، فيستعمل التقنيات الحجاجية وفق أذهان طبقته المختارة، كما أنه يستطيع استعمال تقنية من قبيل التذييل مثلا لكل أنوع المتلقين، ولا يستعمل الإشارة والتعريض، فيستغلق الفهم على بعض الفئات من أصحاب الفهم البطيء «فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرصانة مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيْفِ التأليف، وبَعُدَ عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه(...)

[1]- العسكري، المصدر السابق، ص: 57.

[2]-حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 299.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص: 373.

ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب، والرويَّة الفاسدة»[1].كما يجب على منتج الخطاب أن ينوع تقنيات خطابه حتى يزداد نشاط المتلقي وتتوفر رغبته[2]، فإذا وُجِهَ الخطاب إلى مخاطَب مثقف على حسب المقاييس الثقافية لذلك الخطاب، وجب التنويع واستغلال كل التقنيات البلاغية الإقناعية لاستمالته.

ومما دلّل به العسكري على ضرورة مراعاة ثقافة المتلقي قوله: «وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا، فمما خاطب به أهل مكة قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[3](...)وقلّ ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلّا مطولة مشروحة، ومكرّرة في مواضع معادة، لبُعْدِ فهمهم كان، وتأخر معرفتهم»[4]، هكذا يظهر اشتغال العسكري بالكفاءة لدى المتلقي حتى يتم الإقناع، فهو يحددها في موضع معين بالنظر في اللغة والإعراب والمعاني من جهة الصناعة ومن غابت عنه هذه «إذا سمع لم يفقه، وإذا سئل لم يَنْقَه، وإذا تكلم عند من هذه صفته ذهبت فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه»[5]، وإنما هو «مثل من كلّم إنسانا بما لا يفهمه، وبما يحتاج إلى تفسير له،كمثل من كلم عربيا بالفارسية، لأن الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل، فإذا كلمه بما لا يعرفه، فسواء عليه بالعربية أو بغيرها»[6]، هكذا فقط يتشكل الخطاب الإقناعي حسب العسكري، بمراعاة عقل المتلقي وبذل كل ما يوجب فهمه بمقاييس عقله هذا.

2- الحال القدرية (مكانة المتلقي):

[1]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 57.

[2]-أشار العسكري إلى هذه الفكرة في فصل الإطناب، ص: 193.

[3]-سورة الحج، الآية73 .

[4]-العسكري، الصناعتين، ص: 193.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 32.

[6]-ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 105.

أولى أبو هلال هذه المسألة أهمية بالغة، وهي مراعاة طبقات المخاطبين وأقدارهم، وكذلك من قبلُ فعل الجاحظ فقال: «وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات»[1]؛ بمعنى أن منتج الخطاب، وقبل صنعه خطابه يأخذ بعين الاعتبار التصنيف الطبقي لمتلقيه «فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام»[2] فلكل فئة أسلوبا خاصا يؤلف القول به، العامي مثلا «إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرى عليك»[3]، فقيمة الخطاب تتجلى في تجسيد الهوية الطبقية للمخاطب، فلا الإفهام ولا الإقناع يمكن أن يتحققا إذا واجه المتكلم طبقة من المتلقين بخطاب يخص طبقة أخرى[4]، يستجلب هذا فشلا فشلا في استمالة وإقناع المتلقي. لأن الخطاب الإقناعي يستوجب من المنتج إنزال ألفاظه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، ولا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس خسيس الكلام[5]، وما الحجاج إلا نشاط ثقافي بين الإنتاج والتلقي[6].

والعسكري يركز عليهما معا، ونهاية مطاف الخطاب حسبه -إذا توفرت فيه كل الشروط السابقة بين منتج ومتلقي وشكل خطاب- وصولٌ إلى فهم المتلقي؛«فكان بالقبول حقيقا وبالتحفظ خليقا»[7]، والمتلقي المختار أساسا من المنتج «يفترض فيه أنه قادر على التعرف على الخطاب الذي يسمعه وقادر على تأويله»[8] للوصول إلى مقصده، بفضل ما يعرض عليه من شكل للخطاب ومناسبته لقدره ومكانه، هذا نفسه اشتغال أيضا بمقام الخطاب، فما مراعاة حال المتلقي ومكانته إلا حالا من أحوال مراعاة المقام عامة، وهو من شروط إنتاج الخطاب الإقناعي على غرار الشروط السابقة الذكر.

1. 5- المقام :

---

[1]-الجاحظ البيان والتبيين ، ج/1 ، ص: 144.

[2]-العسكري، المصدر السابق، ص: 28.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص: 32.

[4]- ينظر: ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، د ط، عالم المعرفة، بيروت ، دت، ص: 178.

[5]-ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 291.

[6]-ينظر: عبد السلام عشير، عندما تتواصل نغير، ص: 12.

[7]-العسكري، المصدر السابق، ص: 55.

[8]-حمو النقاري، منطق الكلام، ص: 461.

المقام لغة: موضع القدم، والموضع الموضع الذي تقيم فيه، والمستقر، والإقامة وموضع القيام[1]، وهو اصطلاحا من أهم المبادئ العامة لإنتاج الخطاب الناجح الملم بمستوى الخطاب، ومحتواه، ومضمون المتلقي[2]، أو هو العلاقة بين الخطاب وسياقه، «وقد يتسع أكثر، فيعني علاقة النص بالإنسان، والمجتمع والتاريخ»[3]، وقد اهتم النقد العربي بهذه المسألة، وعدها مناسبة القول، وملابساته، و دعا إلى إلى ضرورة مراعاة هذا المقام، والوقوف على خصائصه حتى قبل إنتاج الخطاب، أكدت صحيفة بشر بن المعتمر على هذا «واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال»[4]، عبارة «ما «ما يجب» هنا، تحمل الكثير من المعاني، منها الأساليب التي على منتج الخطاب توخيها، فهو يتوخى اختيار ألفاظه، ومعانيه، وتراكيبه، مطابقا بين مقصد القول وصورته، «ومعرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني، ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها»[5]حسب الأغراض والمقاصد.

ذلك ما ركز عليه العسكري، يقول: «فإن كنت متكلما، أو احتجت إلى عمل خطبه لبعض ما تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد»[6]، فإن كانت مراعاة المقام حسب طبقات طبقات المتلقين «والواجب تقسيم طبقات الكلام على طبقات الناس»[7]، فإن مراعاة مقام الغرض المنتج له الخطاب أيضا له دور أساسي، وهذا ما لم يمر على العسكري؛ حيث أشار في مواضع مختلفة إلى ما يلائم مقامات معينة من تقنيات الخطاب، فنجده مثلا يؤكد على ضرورة استعمال الإطناب والإيجاز حسب المقام؛ «فلكل واحد منهما موضع(...)فمن أزال التدبير في ذلك على جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»[8]، والخطأ عصف

[1]-ابن منظور، لسان العرب مادة: قوم ، ج/3 ، ص: 3781.

[2]-ينظر: صالح أبو أصبع خليل، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، د ط، دار مجد لاوي، عمان، سنة 2000، ص: 115.

[3]- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 313.

[4]- العسكري، الصناعتين، ص: 135.

[5]- السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 432.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 135.

[7]- العسكري، المصدر السابق، ص: 29.

[8]-العسكري، المصدر السابق، ص : 190.

بالعملية الإقناعية برمتها، بل وأنه يحدد بشكل أدق مقامات استعمال الإيجاز أو الإطناب عند حديثه عن أنواع الرسائل المستدعية لكل واحد منهما، فمقام الوعظ مثلا يستدعي الإطناب[1]، إنه مقتضى الحال الذي أحاطت به البلاغة العربية، وقد أشار صلاح فضل إلى ربط التداولية بهذا المفهوم عندما عرف التداولية «بالعلم الذي يعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، مما يطلق عليه سياق النص»[2]، ثم قال: «ويأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال، والتي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال»[3]، هنا تطفح أهمية مراعاة هذا المقتضى في إنتاج خطاب إقناعي والتي تحدد طاقة النص الحجاجية، فالتداولية كعلم يهتم بكل العناصر العملية التواصلية، يبقى غرضها الأساسي الوصول إلى الخطاب الإقناعي، باستغلال كل هذه الحيثيات، وذلك نفسه موجب مقتضى الحال ومراعاة المقامات، وإن الحجاج لينهض على دراسة الإنتاج القولي في عمقه، وذلك بمعرفة مقامات التواصل في شروطها وتقبل الكلام الإقناعي في آلياته (فهم،تأويل،إقناع،رد فعل).

إذا ليس لمقتضى الحال ومراعاة المقامات وجهته البلاغية فقط، بل هو ذو وجهة حجاجية أيضا، فهو أمر لا يستغني عنه منتج الخطاب، إذا رام الإقناع، والاستحواذ على انتباه متلقيه[4]، بل إن للحجاج طابع فكري مقامي واجتماعي «إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية، وتوجهات ظرفية»[5]، وعلى منتج الخطاب إدراك كل هذا، فيرتب حججه وأقسام خطابه مراعيا للمقام، وهذا عينه ما دعا إليه العسكري «فالحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات»[6] وهو الذي يستطيع إنتاج خطاب يأخذ فيه بعين الاعتبار حالة متلقيه، وطبقته، والمقام الذي سينتج فيه الخطاب حتى تكون هناك نجاعة حجاجية، ويقوم الخطاب بوظائفه الإقناعية.

---

[1]- العسكري، المصدر السابق، ص : 192.

[2]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 26.

[3]-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 26.

[4]-ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر، ص: 90.

[5]-رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص: 74.

[6]-العسكري، الصناعتين، ص: 262.

وما بقي بعد هذا إلا النظر في النص باعتباره بنية لغوية تهدف إلى افتكاك مقبولية متلقيها، بغض النظر عن الشكل الذي تتبلور فيه شعرًا أو نثرًا، وهذا ما سيكون محل البحث في الفصل التالي.

الفصل الخامس

الصناعة الأدبية وبُعدها الحجاجي في تصور العسكري

1- حجاجية الصناعة الأدبية عند العسكري

1 . 1- الحجاج في الشعر:

كان البحث في فصل سابق منه قد تعرض لمفهوم الشعر ومضامينه في الصناعتين، وإنّ ما يختص به هذا الفصل هو الحديث عن حجاجية الشعر، وذلك من خلال الاعتماد على أساسين أولا: مفهوم الشعر عند العسكري، وثانيا من خلال الشواهد الشعرية المبثوثة في الصناعتين والموزَّعة على مختلف الأبواب والفصول ضمنه.

الواقع أن العسكري وكما تمت الإشارة يعمم في رصد البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك، فيتكلم عن صناعة الكلام عامة، لكننا سنرصد كلامه عن الشعر ونلحظ الملامح الحجاجية التي تحرَّاها، سواءً في حدوده أو شواهده، وإذا انطلقنا من مسلمة أن الحجاج موجود في كل خطاب مهما كان نوعه، والشعر منتمٍ إلى هذا الخطاب، فيكون عندئذٍ كغيره من الخطابات الأخرى، أي ليس لعبا بالألفاظ فقط، ولا يهدف إلى نقل تجربة فردية ذاتية فحسب، لأنه يهدف أيضا بالأساس إلى الحثِّ والتحريض والإقناع، وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي، ومعتقداته وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه[1]، وهذا عينه ما ذهب إليه العسكري حيث قال «فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرصانة، مع السلاسة، والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيفِ التأليف، وبَعُدَ عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه(...) والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف»[2] فإذا لم يحصل من هذا القبول والاستيعاب والأنس والسكينة، لم يغير الكلام شيئا في المتلقي، وبالتالي تذهب فائدة الخطاب الشعري، فمثلا في قول أبي العتاهية [3]:

ماتَ واللهِ سعيدُ بنُ وَهْبِ رَحِمَ اللهُ سعيدَ بنَ وهبِ

يا أبا عثمانَ أبكيتَ عينِي يا أبا عثمانَ أوجعتَ قلبِي

---

[1]-ينظر: أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، ص:39.

[2] - العسكري الصناعتين، ص:57.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص:60. البيت غير موجود في ديوان أبي العتاهية.

دعوى الشاعر هنا أنه متوجه بخطاب شعري غرضه الرثاء، وهو لم يتخير من اللفظ، والمعنى ما يحتجُّ به عند المتلقي، ويقنعه بشدة الحزن على المرثي، حتى يتأثر المتلقي، ويحزن هو الآخر، وهذا هو فعل الحجاج، وما وَصْفُ العسكري لشعر أبي العتاهية بالبارد، إلّا وصفٌ معادل لكونه غير شعري وبالتالي غير حجاجي، «فالحجاج مجموع التقنيات التي تعطي مشروعية لمعتقدات وسلوكات، وهو يروم أن يؤثر في معتقدات من يستهدف وسلوكاتهم، أو يغيرها، أو يدعمها»[1]وهذه التقنيات تبرز في الخطاب الشعري حسب العسكري في أن «يكون الشعر كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلائم نسجه، ولم يسْخُفْ، وحسن لفظه ولم يَهْجُن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام، فيكون جِلْفًا بغيضا، ولا السوقيُّ من الألفاظ فيكون مهلهلاً دُونًا»[2] ولا يلبث يذكر شاهدًا يستبعد القوانين السابقة يقول: فالبغيض كقول أبي تمام:[3]

جعلَ[4] القنَا الدرجاتِ للكذَجَاتِ ذا تِ الغيْلِ والحَرَجَات والأَدْخالِ

قد كان حزنُ الخَطْبِ في أَحْزَانِهِ فدعاهُ داعِي الحَيْنِ للأسهالِ

لم ترق ألفاظ ومعاني الشعر السابق للذائقة النقدية عند العسكري، ويجب التوضيح في هذا الصدد، أن البحث إنما تصور المذهب النقدي للعسكري، وما رآه في الحكم على الشواهد الشعرية الواردة عنده، كتقنيات تزيد من حجاجية الشعر، فهو في الأبيات السابقة يعلق قائلا: «فالبغيض كقول أبي تمام» البغيض هنا حكم نقدي، يعصف بحجاجية الشعر، وينفي عنه كل ما يرشحه أن يصنّف كقول حجاجي، وحكمٌ آخر مشابه له على خطاب أبي العتاهية إجمالا حيث يقول: «والبارد في شعر أبي العتاهية كثير»[5]، إن تصنيف هذه الأحكام النقدية كأحكام جانية على حجاجية الشعر إنما اتكأ على الخصائص المميزة للنص الحجاجي، قد أجمع عليها دارسو الحجاج، والتي تتمثل في الانسجام والتناغم؛ انسجام بين أقسامه الكبرى، وكذلك بين تفاصيله، ودقائقه، فلا تنافر، ولا

[1]-كريستيان، بلانتان، الحجاج، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، سنة 2010، ص:44.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص:60.

[3]- أبو تمام، الديوان، ص: 246

[4]- في الديوان جعلوا.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص:60.

تناقض، فيكون النص «متوازن الألفاظ، والمعاني، ولا زيادة فيه ولا نقصان»[1]؛ لأن كل تناقض أو تنافر يقوّض الحجاج، ويُجْهِزُ على كل محاولة إقناع أو حملٍ على الإذعان[2]، وخضع هذا الفهم لمعيارية صارمة في نقد العسكري، إذ نجده يحكم بمبادئ توخاها من فهمه للبلاغة السليمة المفيدة في الخطاب، لذلك يشير في مقدمة الكتاب «بأن اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أن شعره قطعة من علمه،»[3] ويذكر سوء اختيار الأصمعي، في قول المرقش:

هَلْ بالدّيارِ أن تُجيبَ صَمَمْ لوْ أنّ حيًّا ناطِقًا كَلَّمْ

يقول: «ولا أعرف عن أي وجه صرف اختياره إليها، وما هي بمستقيمة الوزن، ولا مُونِقة الروي، ولا سلسلة اللفظ، ولا جيدة السبك، ولا متلائمة النسج»[4] هذه التقنيات التي ذكرها غائبة عن بيت المرقش السابق، ومما لا شك فيه أن ذلك يمسّ بحجاجيته حسب العسكري، بما أنه لم يتقبله، ويَعْجَبُ من اختيار الأصمعي له، بالتالي فهو ليس حجة يستأنس بها في الشعر.

وما جعلنا نظن أن العسكري تبنى معيارية صارمة في الحكم على الشعر قوله أيضًا «وكان المفضَلُ يختار من الشعر ما يقلُّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار، لأن الغريب لم يكثر في كلامٍ إلَّا أفسده، وفيه دلالةُ الاستكراه والتكلُّف»[5] هو هنا يدعو إلى تجنب الغريب، والخروج عما بنيّ عليه الكلام، وهذا معيار حجاجي، رأى من الواجب على صانع الشعر توخيه.

ثم نجد حكمه أيضا على شعر –صنّفه علماء العربية ضمن أحسن وأفصح الشعر–، بأنه شعر فِجّ، غليظ، ووَخِم ثقيل، ويذكر مستشهدًا لذي الرمة[6]:

رَمَتْنِي مَيُّ بالهوى رَمْيَ مُمْضَعٍ مِنَ الوحشِ لَوْطٍ لم تعفُّه الأوانِس

بعينينِ نجلاوينِ لم يجرِ فيهمَا ضمانٌ وجيدٍ حُلّي الدُّرِّ شَامِس

---

[1]– العسكري، الصناعتين ، ص:48.

[2]–سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص:07.

[3]– العسكري، المصدر السابق ، ص:03.

[4]– العسكري، المصدر السابق، ص:03.

[5]– العسكري، المصدر السابق، ص:03.

[6]– العسكري، المصدر السابق، ص:03.

وكأنه يأتي بأحكام جديدة، تثور على أحكام من سبقه، لأنه يعتقد أنه قد أتى بمعايير لصانع الكلام، والشاعر خاصةً، تجعله ينتج كلامًا وشعرًا مقبولاً، وفي هذا المقام حجاجياً.

إذا سيتم تتبع بعض ما حكم عليه العسكري من شواهد الشعر، باعتبارها خطابًا حجاجيا بين مُرْسِلٍ ومتلقي، وفق اختيارات معينة تحقق هذه السمة للخطاب وهو نفسه يؤسس لهذا بقوله «وللخطأ صور مختلفة نبّهتُ على أشياء منها في هذا الفصل، وبيّنت وجوهها، وشرحت أبوابها لتقف عليها فتتجنَّبَها، كما عرفتك مواقع الصواب فتعتمدها(...) ومن لا يعرف الخطأ كان جديرًا بالوقوع فيه»[1] وقد جمع كثيرًا من النماذج، وعلق عليها، وهي عنده معايير لجودة الشعر، ومدى مقبوليته وبالتالي الاقتناع به، يقول في هذا السياق مشيرا إلى خطأ في بيتٍ لامرئ القيس[2]:

أَلَمْ تسألِ الرَبْعَ القديمَ بِعَسْعَسَا كأني أُنادِي إذْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

«هذا التشبيه فاسد، لأجل أنه لا يقال: كلمت حجرًا فلم يجب، فكأنه كان حجرًا، والذي جاء به امرؤ القيس مقلوب»[3] في رأيه هذا التشبيه لا يؤدي وظيفته البلاغية، وكأنه يشبه الحجر بالحجر في كونه أخرسًا، وهذا التشبيه من الكلام البديهي المعتاد عند العرب، إذ يقال كأنني أكلم حجرًا، وما غرض التشبيه غير التعجيب والإتيان بما هو مدهش، هذا ما غاب عن تشبيه امرئ القيس في مذهب العسكري، وهذا نموذج مرفوض في الحجاج.

وأورد العسكري بعد هذا من جيد هذا الباب، وهو قول كثير في امرأة[4]

فقلتُ لَهَا: يا عَزُّ كُلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذلَتِ

كَأَنَّني أنادي صَخْرَةً حينَ أَعْرَضَتْ مِنَ الصُّمِّ لَوْ تَمْشي بها العُصْمُ زلَّتِ

راق هذا التشبيه للعسكري، ورأى أنه أجود من تشبيه امرئ القيس، فتشبيه المرأة عند السكوت، والتغافل بالصخرة، أكثر مقبوليةً من تشبيه الصخرة بالصخرة، وأكثر حجاجية لأنه يحبب إلى النفس عن طريق القبول الحسن، والطلاوة ويقرب إليها عن طريق الرونق والحلاوة، وقد يكون الشيء متقنا

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:70.

[2]- امرؤ القيس، الديوان، ص:85.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص:71.

[4]-العسكري، السابق، ص:71.

محكما، ولا يكون حلوًا مقبولا، وكل هذه الأمور ترفدُ العملية الحجاجية للشعر، وقد جعلها العسكري شرطا في صناعة الشعر كما رأينا، فلا يلبث يصنف الشعر على هذه الشاكلة، ويأتي بالمعنى، وما صيغ فيه من شعر، جيده، ورديئه، ليبين معايير الجودة فيه، والتي تقرن بحجاجيته.

إذًا أهمية الشعر بما يتوفر عليه من وسائل بلاغية، فيميل الشاعر إلى استعمالِها لتلوينها بجماليات تتمكن من قيادة المتلقي إلى فكرته، ومن ثمة توجيه سلوكه نحو هذه الفكرة، فالحجاج لا غنى له عن الجمال البلاغي[1] الذي يحوّل الخطاب الشعري إلى فعل، وقد أشار العسكري إلى هذا من خلال شاهد ذكره، وإن كان ذكره في موضع وصف المعنى بالاضطراب، إلَّا أننا نلاحظ أن هذا الاضطراب في المعنى هو نفسه الذي أدى إلى القيام بالفعل الناتج أصلا عن الخطاب، في إشارة إلى أفعال الكلام، وهو ما ذكره عن «ما أخبره به أبو أحمد عن مبرمان، عن أبي جعفر بن القيسي قال: لما قتلت بنو تغلب عمير بن الحباب السلمي، أنشد الأخطل عبد الملك والجحَّاف السلمي عنده:

أَلَا سَائِلِ الجَحَّاف هلْ هو ثائرٌ بِقَتْلَي أصيبَتْ من سُلَيْمٍ وعامِر

فخرج الجحَّافُ مُغْضَبًا حتى أغار على البشر –وهو ماء لبني تغلب– فقتل منهم ثلاثة وعشرين رجلا وقال:

أبَا مَالِكٍ هلْ لُمْتَنِي مذُ حَضَضْتَنِي على القتلِ أو هلْ لامَنِي لَكَ لَائِمِ

متى تَدْعُنِي أُخْرَى أُجبكَ بِمثلهَا وأنتَ امرؤٌ بالحقِّ لَيْسَ بعالِمِ

فخرج الأخطل حتى أتى عبد الملك، وقد قال:

لَقَدْ أَوْقَعَ الجحَّافُ بالبشْرِ وَقْعَةً إلى الله منها المشْتَكَى والمعَوَّلُ

فإلَّا تُغَيِّرْها قُرَيْش بمثلهَا يكنْ عن قُرَيشٍ مُسْتَمَازٌ ومَزْحَلُ

فقال له عبد الملك: إلى أين يا ابن اللخناء، فقال إلى النار، فقال: والله لو غيرها قلت لضَرَبْتُ عنقك.

ووجه العيب فيه أنه هدَّدَ عبد الملك، وهو ملك الدنيا بِتَرْكِهِ إياه والانصراف عنه إلى غيره. وهذه حماقة مجردة، وغفلة لا يُطارُ غُرابها، ثم قال:

[1]– ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص:120.

فلا هَدَى الله قَيْسًا منْ ضَلَالَتِهَا ولا لَعًا لِبَنِي ذكوانَ إذْ عَثَرُوا

ضجُّوا في الحرْبِ إذْ عَضَّتْ غَوَارِبُهُمْ وقيْس غَيْلَانَ من أَخْلَاقِهَا الضَّجَرُ

فقال له عبد الملك، لو كان الأمر كما زعمت لما قلت: لقد أوقع الجحَّاف بالبِشْرِ وقعةً»[1] هذا يدل على القيام بالفعل جراء الشعر الحجاجي المؤثر، وكان العربي تقيمه الكلمة أو تقعده، ويشير العسكري إلى هذا بإيراده الأبيات السابقة، فلما اسْتُفِّز الجحّاف من شعر الأخطل، ودل على ذلك قوله بعد قيامه بفعل القتل: «أبا مالك لمتني مذ خضضتني»؛ الحَضُ هنا حضٌ على القيام بفعل ولولا حجاجية شعر الأخطل لما تحرك الجحَّاف، وهذا من أهمية الشعر التي تكلم عنها العسكري الكامنة في قوته الحجاجية، حيث قال «ومما يفضل به عن غيره، أنه ليس يؤثر في الأعراض والأنساب، تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام، فكم من شريف وَضَعَ، وخامِل دنيء رَفَع»[2] إضافة إلى ذكره أنه «لا أحد يفوز من مؤلفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة(...) ولا يهتز ملك، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتز له» [3]، ذلك راجع لقوته في التأثير والإقناع، لأنه خطاب حجاجي في تكوينه.

المظاهر الحجاجية في تصور البناء الشعري عند العسكري

1- تقنية النموذج: الحجاج بالأنموذج، ضرب من الحجج المؤسِسَة لبنية الواقع؛ فهي حجج لا تتأسس على الواقع، بل هي التي تؤسس هذا الواقع وتبنيه، أو على الأقل تكمله، هي إذا بناء الواقع بواسطة حالات خاصة[4]، هذا يظهر في الشعر العربي القديم بعرامة؛ إذ تُؤخذ عينات من استعمال لفظ أو معنى، أو أسلوب خاص بشاعر ويعمّمُ ذلك ويصبح أنموذجا، وقد تنبه العسكري لمثل هذه الحالات، وذكر الكثير منها، حتى أنه ذكر تصنيف نماذج الشعراء وفق كل غرض، أي يذكر هذا الشاعر، بذكر الغرض الذي عُرِفَ بالبراعة فيه، وعبّر عن ذلك بالقوى التي يمتلكها كل شاعر، قال «ولاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه، ما قيل: كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا رَكِبَ، والنابغة

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:87-88.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 137.

[3]- العسكري المصدر نفسه، ص:137.

[4]- ينظر: سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص: 61-62.

إذا رهب، وزهير إذا رَغِبَ، والأعشى إذا طَرِبَ»[1] وكأنه يتمثل أشعار هؤلاء في كل حالة ذكرها وقرنها بأحدهم نموذجًا شعريا، ما إن استخدم أو استعمل أسلوبه في تلك الحالة، رفد العملية الحجاجية في بنية الشعر، بل وأكثر من ذلك يتصور خطابا شعريا حجاجيا بامتياز، وهو خطاب يجمع كل النماذج السابقة، متمكنًا في جميع حالاتها، وبهذا فضلوا جريرًا على الفرزدق، وقالوا له في الشعر ضروب لا يعرفها الفرزدق، ولما ماتت امرأته النوَّار فناحَ عليها [2] بشعر جرير [3]:

لولَا الحياءُ لَزَارَنِي استعبارُ ولَزُرْتُ قبركِ والحبيبُ يُزَارُ

ولولا اقتناع الفرزدق بقوة حجة البيت، وهو بيت يطفح بحجاجيته في معنى الرثاء والنوح، والفرزدق شاعر كبير، لكان أولى به أن ينظم شعرا يحتجُّ به لحزنه، لكنه استعان بشعر غريمه، لما لهُ من طاقة حجاجية طافحة يُحتَذَى بها.

تؤخذ النماذج أيضا في بعض القوالب التي توضع، وتصبح أسسا في الوصف مثلا أو الهجاء، أو النسيب، ففي صفات الفرس وحدها نماذج عدّة استحسن بعضها ووجد لها مكانًا كتقنيات حجاجية عند العسكري، ومنها ما اسْتُبْعِدَ واسْتُهْجِنَ، ففي مثال الوصف مثلا ينطلق العسكري من أبيات لغيلان الربعي [4]:

حَتَّى إِذَا مَا آضَ عَبْلًا جُرْشُعًا قد تمَّ كالفَالج لا بلْ أضْلَعَا

هِجْنَا بِه نَطويه حتى استَوْكَعَا قَدْ اعْتَصَرْنَ البُدْنَ منهُ أجْمَعَا

ثم اتَّقانَا بالّذي لن يُدْفَعَا وآضَ أعْلَى اللَّحْمِ مِنْهُ صَوْمَعًا

«فوصفه بعظم الجسد وصلابة اللحم، وما وصف أحد الفرس بترك الانبعاث إذا حرك، وإنما توصف بالسرعة في جميع حالاتها إذا حركت، وإن لم تحرك، فتشبه بالكوكب والبرق، والحريق، والريح، والغيث، والسيل، وانفجار الماء في الحوض، والدلو ينقطع رشاؤها، ويَدُ السابح، وغليان المِنجل، والقُمْقُم، وبأنواع الطير، كالبازي، والسَّوذنيق، والأجدل، والقطامى، والعقاب، والقطا، والحمام،

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:23.

[2]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:24.

[3]- جرير، الديوان، ص:217.

[4]-العسكري، المصدر السابق، ص:79.

والجراد، وأنواع الوحش، كالوعل والظبي، والذئب، والتَّتْفُلْ، ويشبه بالخذروف، ولمعان الثوب، وبالسهم، وبالريح والحسي»[1].

حَشَدَ العسكري هذه المجموعة من النماذج الحجاجية التي يستعين بها واصف الخيل وسرعته ويفصل في ذلك بشرح الحالات.

وقد استعمل أبو نواس أحد تلك النماذج عندما قال[2]:

فِانْصَاعَ كَالكَوَاكِبِ في انحداره لَفْتَ المشير موهِنًا بنارِهِ

وقال خلف الأحمر[3]: كَالكوكبِ الدُّري مُنْصَلِتًا شَدَا يفوتُ الطَّرفَ أَسْرَعُهُ

وكأنما جَهِــدَتْ أليتهُ أن لا تمسَّ الأرض أَرْبَعُه

وقال الآخر: خُذْهَا تبوعًا لِمَنْ ولى مسومةً كأنها كوكبٌ في إِثْرِ عفريت

كل أولئك الشعراء استعانوا بنموذج الكوكب لِمَا لَهُ من ريعٍ حجاجي في الإقناع بوصف الفرس، ويمكن تصنيف هذا النوع من الأنموذج، تحت الصنف الحقيقي، الذي يتم استدعاؤه لغرض الحجاج والاستدلال[4]، ذلك مقارنة بالصنف الآخر، وهو الصنف غير الحقيقي الذي كثيرا ما يبنيه الشاعر، ويصنِّعه في نصه أي يقدّه قدًّا باللغة[5] فيصوغه نموذجا مقنعًا، وحتى يصيِّرهُ إلى ذلك يكون جديراً بالاستعمال كتقنية حجاجية يعوَّل عليها.

«وقد تنازع الناس في هذا المعنى»[6]؛ هذا التعبير يطلقه العسكري على المعنى الذي يصبح نموذجا حجاجيا، من ذلك ما ذكر فقال «أخبرنا أبو بكر بن دريد الرياشي قال: قيل لأعرابي، كيف حالك؟ فقال: ما حال من يَفْنَى ببقائه ويسقم بسلامته، ويؤتى من مَأْمَنِه؛»[7] هذا المعنى هو النموذج

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:80.

[2]- أبو نواس، الديوان.ص:54

[3]- العسكري، المصدر السابق، ص:82.

[4]- ينظر: سامية الدريدي، دراسات في الحجج ، ص:62.

[5]- ينظر: سامية الدريدي، المرجع نفسه، ص: 62.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 38.

[7]- العسكري، السابق، ص: 38

النموذج الذي سيكون رافدا حجاجيا مستعملا في الكثير من الخطابات الشعرية، وقد وضّح العسكري أن أول من استعمل هذا النموذج هو النمر بن تولب في الجاهلية.[1]

يوَدُّ الفتى طول السلامةِ والغِنى وكيف يرى طولَ السلامة تَفْعَلُ

يردّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحةٍ يَنوءُ إذا رامَ القيام ويُحمَلُ

وممن أخذ هذا النموذج، حميد بن ثور في قوله[2]

أرَى بصري قد رَابَنِي بعدَ صِحَّةٍ وحسْبُكَ دَاءً أن تصِحَّ وتَسْلَمَا

وقال آخر:[3] كَانت قَناتي لا تلينُ لغامزٍ فَأَلَانَهَا الإِصْبَاحُ والإمْساءُ

ودعوتُ ربي بالسلامةِ جاهدًا ليُصحَنِي فإذا السلامةُ داءُ

وقال ابن الرومي:[4]

لَعَمْرُك ما الدنيا بِدَارِ إقَامَةٍ إذا زَالَ عَن نَفْسِ[5] البصيرِ غِطاؤُهَا

وكيفَ بقاءُ العَيشِ فيها وإنما يُنَالُ بأسبابِ الفناءِ بقاؤُهَا

وقال أبو هلال [6] في النموذج ذاته:

ما خيرُ عَيشٍ صَفُوه يُكَدِّرُهُ لابدَّ أن يشْكُوهُ من يَشْكُرُهْ

والمرءُ ينسَى والمنايَا تَذْكُرُهُ يُمِيتُهُ بَقَاؤُهُ فيُقْبِرُهْ

وكَسْرُهُ منه الذي لا يجْبُرُهُ يَطْوِيهِ من مَدَاهُ ما لا ينشُرُهْ

في كل مَجْرَى نَفَسٍ يُكَرِّرُه يَهْدِمُ من عُمْرِك ما لا تعمُرُهْ

---

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:38.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:38.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص:38.

[4]- ابن الرومي، الديوان، شرح وتحقيق:عبد الأمير علي مهنا، الطبعة الأولى، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، البليدة الجزائر، سنة: 2009، ج1، ص:117.

[5]- في الديوان: عين.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص:39.

هكذا قد أُخِذَ هذا النموذج وهو: قصر الأمل في الدنيا، وتوقع الزوالِ للنعم، وتحته الكثير من الدلالات غير هذا، وأصبح يستعمل كقالب حجاجي جاهز يحتَجُ به، وما الأنموذج إلَّا «المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده»[1] وقد لاحظنا كيف تداوله الشعراء.

2- **جمع الحجج:** وتتمثل في حشد أكبر عدد من الحجج المقنعة في الخطاب الشعري حسب الغرض ليتحقق مغزى الحجاج، وهو البحث عن كل سبل التأثير عبر الخطاب بشكل فعَّال في الأشخاص[2] عن طريق استمالتهم بطرق معينة، لأن الحجة «عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر»[3]، يدعمه، ويشير العسكري إلى هذا المعنى في أغراض الشعر، بِتَمَثُّلِ واسماتٍ دلالية تميز الأغراض الشعرية لتقوم بوظائف حجاجية عبر استراتيجيات هي اختيار حججٍ، وإقصاء أخرى، وترتيبٍ مناسب لهذه الحجج.

أولا: اختيار الحجج «اختيار الكلام»[4]: يتم بانتقاء الشاعر للحجج، بما يناسب الفكرة التي يروم استمالة المتلقي بها، بداية من اختيار الألفاظ، لذا نبّه العسكري في مواضع عدة لمسألة الاختيار الخاصة بالألفاظ، وذكر شروطها منها في قوله «ولا تنقح الألفاظ كل التنقيح، وتنقيح اللفظ أن يبنى منه بناء لا يكثر في الاستعمال (...) ويدخل في تنقيح اللفظ استعمال وحشيه، وترك سلسله وسهله، وقد أخذ الرواة على زهير[5] قوله:

نَقيّ تقيّ لَمْ يَكْثرُ غَنيمة بنهكَةِ ذي القُرْبَى ولا بِحَقْلَّدِ

فاستبشعوا الحقلد، وهو الشيء الخلق، وقالوا: ليس في لفظ زهير أنكر منه»[6] هذا من سوء اختيار اللفظ، وهو يهلك عملية الحجاج، فإذا نفر المتلقي من اللفظ، فكيف يتقبل معنى الخطاب، ومن هناك كيف يتأثر ويقتنع به، لذلك على الشاعر أن يصفي ألفاظه كل التصفية، ويهذبها كل

---

[1] - أوليفي روبول، oliverrobol، مدخل إلى الخطابة، introduction a la rhéorique، نقلا عن، سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص:62.

[2] -ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص:76.

[3] -محمد عبد الباسط عيد، في حجاج النص الشعري، ص:13.

[4] -العسكري، الصناعتين، ص:12.

[5] - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 25.

[6] -العسكري، المصدر السابق، ص:30.

التهذيب؛ «فتصفيته تعرِيَتهُ من الوحشي، ونفي الشواغل عنه، وتهذيبه تبرئته من الرديِّ المرذول والسوقي المردود»[1].

بعد اختيار الألفاظ، اختيار للحجج المناسبة لكل غرض، ففي غرض الوصف يحدد العسكري أنواع الحجج التي تكون أكثر نجاعة في لفت انتباه المتلقي، باستيعاب أكثر معاني الموصوف، حتى كأن المتلقي يرى صورة ذلك الموصوف، وهذا قوة في الحجاج تستميل المتلقي، كقول يزيد بن عمرو الطائي:

أَلَّا مَنْ رَأَى قَومِي كأنَّ رِجَالَهُمْ نَخِيلٌ أَتَاهَا عَاضِدٌ فأَمالَهَا

«هذا التشبيه كأنه يصور القتلى مصروعين»[2]، حصل ذلك بفعل تقنية التشبيه، الفاعلة في الحجاج لأنها أكثر قدرة على الإقناع من الكلام العادي؛ حيث شبه الرجال بالنخيل المائلة في الأرض، لتصل الصورة تامة لشكل الرجال، وكأنه يصورهم للمتلقي مصروعين.

أو بذكر ما يميز الموصوف إذا كان فرسًا، أو رجلًا، أو امرأة بصفات ونعوت كثيفة ومركزة، لتفعل في المتلقي فعلتها التأثيرية.

كما حدد أيضا نمط الحجج في غرض التشبيب، فقال: ينبغي أن يكون التشبيب دالًا على شدة الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، وذكر التشوق، والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الريح، ولمع البروق، وما يجري مجراها من ذكر الديار، والآثار، والدلالة على الحنين، والتحسر، وشدة الأسف، كما يكون النسيب دليلا التدلُّه والتحيُّر[3] يقول أبو الشيص[4]:

وَقفَ الهَوَى بِي حيثُ أَنْتَ فليسَ لِي مُتأَخّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَـدَّمُ

أَجِدُ المِلَامَة في هَوَاكَ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكْـرِكَ فَلْيَـلُـمْنِي الـلَّـوْمُ

أَشْبَهْتِ أَعْدَائِي فَصِرْتُ أُحِبُهُمْ إذْ كان حَظِّي مِنْكِ حظِّي منهـمُ

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:31.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:129.

[3]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:129.130.131.

[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص:129.

وأَهَنْتَني فأهنتُ نَفْسي صاغِرًا ما مَنْ يهُونُ عَلَيْكِ ممَّن أَكْرَمُ

توفرت القطعة السابقة على حجج التشبيب، بحشد ألفاظ دالة على شدة الهوى والولع «وفي الهوى بي حَيثُ أنت» أي أن الهوى مبدأه ومنتهاه عند محبوبته ثم يأتي بحجة هي من أقوى الحجج «أشبهتُ أعدائي فصرتُ أحبهم» وهي حجة بالمماثلة، لها ثقلها في الاستمالة، إذا احتج الشاعر لدعوى حبه، وولعه الشديد، بأنه صار يحب أعدائه لشبه حبيبته بهم، لتكون نتيجة ما أراده الشاعر في شعره: «غاية التهالك في الحب، ونهاية الطاعة للمحبوب»[1] وهذا هو غرضه الذي استعمل كل التقنيات اللازمة ليصل إلينا كمتلقين، ونقتنع بدعواه.

ومما استعمل من الحجج السابقة، واختير كسبيل للإقناع، ذكر البروق، والتهالك في الصبوة في قول الأول [2]:

سَرَى البَرْقُ من نحوِ الحجازِ فَشَاقَنِي وكُلُّ حجازيٍّ له البرقُ شائقُ

بَدَا مثلَ نبضِ العرقِ والبعدُ دونَهُ وأكنافُ لُبنى دُونَنَا والأسَالِقُ

نهاري بأشرافِ التِّلاعِ مُوكَّل وليلي إذا ما جَنَّنِي الليل آرقُ

فوا كَبِدي مما أُلَاقِي من الهوَى إذا حنَّ إلْفٌ أو تألَّقَ بَارِقُ

ذكر البرق من دلائل الصبابة والحنين، لما عرف من استعماله في مثل هذه المواضع من ذكر الأحبة، وهي حجة هنا، وقوله «فوا كبدي مما ألاقي من الهوى»، حجة أيضا على التهالك في الصبوة، إنها شكوى تدق كحجة قوية في ذهن المتلقي، تجعله يذعن لمدعي هذا الشاعر في الحب حد الجنون.

وكقول ابن مطير[3]:

وكُنْتُ أَذُودُ العَيْنَ أنْ تَرُدَ البُكَا فَقَدْ وَرَدتْ مَا كُنْتُ عَنْهُ أَذُودُهَا

خَلِيليّ مَا في العَيْشِ عَيْبٌ لَوْ أَنَنا وَجَدَنا لأَيَامِ الحِمَى مَنْ يُعِيدُهَا

[1]- العسكري، الصناعيين، ص:129.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص:130.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص:130.

استعمال، البكاء والوقوف بالحمى من ثيمات النسيب، وهي حجج فيه تدل على التحسر والحنين المفرط، جميعها اختيارات يلجأ الشاعر إليها إذا ما رام شعرًا مقنعًا، وقد يؤدي سوء الاختيار حسب العسكري إلى العصف بالعملية الحجاجية، فلا يتم الغرض، ومن ذلك قول الأعشى[1]:

صَدّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا مَا تُكَـلِمُنَا جَهْلًا بِأُمِ خُلَيْد حَبْلَ مَنْ تَصِلُ

أَإِنْ رأت رَجُلًا أَعْـشَى أَضرَّ به رَيْبُ الزَمَّانِ وَدَهْرُ خَاتِلُ خَبِلُ

يرى العسكري أن اختيار الأعشى هنا لم يكن صائبا، فحجة كونه أعشى، لا تخدم حجاجية البيت بل ستشتغل عكسيا «وأيُ شيء أبعض عند النساء من العشا والضرِّ يتبيّنهُ في الرجل»[2]؛ فهذا يُنَفِّرُ النساء، ولا يُقربهُنَ أبدًا، وفي شعر الأعشى من هذا الكثير، ففي قوله أيضا[3]

وَأَنْكَرَتْنِي ومَا كَانَ الذي نَكَرَتْ مِنْ الحَوَادِثِ إلَّا الشَيبَ والصَلَعَا

وهل الشيب والصلع أهون الحوادث.

أما ما يوصف بأنه حسن اختيار للحجج في نفس هذا المعنى قوله أحد المتأخرين:[4]

لَقَدْ أبغضتُ نفسي في مَشِيبَتِي فكيف تُحِبُنِي الخُودُ الكِعابُ

وقال أبو هلال[5]:

فَلَا تَعْجَبَنْ أَنْ يَعِبْنَ المِشيبَ فَمَا عِبْنَّ مِنْ ذَاكَ إلَّا مَعِيبَا

إذَا كَانَ شَيْبِي بَغِيضًا إلَيَّ فَكَيْفَ يَكُونُ إلَيْهَا حَبِينًا

ومما يحسِن الاختيار في المدح أيضا، اصطفى العسكري الحجج القائمة على ما يليق بأوصاف النفس، كالعقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، وتجنب التركيز على وصف ما يليق بأوصاف الجسم،

[1]- ورد البيت في الديوان برواية: أضرّ به ريب المنون، ينظر: الأعشى، الديوان، ص:131.

[2]- العسكري، الصناعتين، ص:84.

[3]- الأعشى، الديوان، ص:104.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 84.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص:84.

كالحسن والبهاء، والزينة، والذي يكون أضعف في الخطاب من الحجج اللصيقة بالنفس، ولذلك غضب عبد الملك بن مروان من مدح ابن قيس الرقيّات حيث قال:

يأتلقُ التَاجُ فَوْقَ مَفْرِقِه عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَهَبُ

لم يقتنع عبد الملك بمدح الشاعر له، إذا استعمل حججا حسية خاصة بوصف ظاهره، وكان رده بإعطاء حجة للشاعر ومن شعره، قال: قد قلت في مصعب:

إنَمَا مصعبٌ شهابٌ مِنَ اللَّـــ ـــهِ تَجَلَتْ عن وجْهِهِ الظلماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وهذه حجة ثابتة تجعل العملية الإقناعية أكثر جلاءً، لأن هذه الصفات مستحبة عند البشر، أما حجة التاج فوق الجبين الذي هو كالذهب في النضارة، فلا تخييل فيها، فلن تؤدي وظائف حجاجية، أو كما عبر عبد الملك لا فخر فيها [1]

وقد يتم الاختيار في جمع نعوت وحجج غرض المدح، لكن هذا الاختيار قد لا يفي بالغرض بأن يختار الشاعر حججا تتعلق بالمدح، لكنها تخلو من مدح ما يتصل بالنفس، كذكر سُؤددِ الآباء، وتاريخ الأمم، وربما كان سؤدد وفضيلة الوالد نقيصة للولد وهي حجج تشتغل عكسيا هنا، من ذلك ما أورده العسكري في قول أيمن بن حزيم بن بشر بن مروان:[2]

يا ابْنَ الأكارِمِ من قريشٍ كُلّها وابنَ الخَلَائِفِ وابن كلّ قلَمِّسِ

مِنْ فَرعِ آدَمَ كَابرًا عَنْ كابرٍ حَتَى أَتَيْتَ التي أَبِيكَ العَنَبَسِ

مَروان إنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ غُرِسَت أرُومتُها أعزَّ المغْرَسِ

وبَنَيْتَ عندَ مَقامِ رَبِكَ قُبَةً خَضْرَاء كُلِّلَ تاجها بالفِسْفِسِ[3]

فَسَمَاؤُها ذَهَبٌ وَأَسفُل أرضِهَا وَرَقٌ تَلَأْلَأَ من صَميم الحِنْدِسِ

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:98.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 98-99.

[3]- الفسفس: الفضة الرطبة.

ذكر أنَّ حجة سؤدد الوالد، قد تصبح نقصا للولد، إذا لم يصل الى ما وصل إليه والده من ذلك السؤدد، وهذا مما لا يصلح للاحتجاج في المدح، فقوله «يا ابن الأكارم، يا ابن الخلائف» ليس حجة في المدح، فهذا انجاز آبائه، ولا مدح له فيه.

ومما لا يصلح كحجة أيضا، وقد تنبه إليه العسكري، ذكر بناء القبة، وليس بناء القباب مما يدل على كرم، أو سؤدد، بل يجوز أن يبني اللئيم البخيل الأبنية النفيسة، ويتوسع في النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق ورد السائل، وليس اليسار مما يمدح به مدحًا حقيقيا؛[1] فهو ليس حجة حقيقية تؤدي وظائف في الإقناع مقارنة مع ما انتقى العسكري ووضح. ألا ترى كيف يقول أشجع السلمي[2]:

يُريدُ المُلُوكُ مَدَى جعفرٍ ولا يصنعونَ كما يصنعُ

وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ في الغِنَى وَلَكِنَّ مَعْرُوفَــهُ أَوْسَعُ

يعجُّ هذا الشعر بحجج تؤكد كرم ومعروف جعفر، منها أن الملوك تَوَّد أن تسبقه، ومنها أنه أقلّ مالاً من الملوك، والنتيجة أن معروفه أوسع حتى من معروف الملوك. فهي حجة بالمقارنة قارنت هذا الرجل البسيط مع الملوك لتُظهِر كرمه.

إضافة إلى الاختيارات السابقة، على المحتج في الشعر وضعها في موضعها في ذلك ذكر العسكري «أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال: أخبرنا أبو العيناء عن الأصمعي قال: اجتمع جرير والفرزدق عند الحجاج، فقال: من مدحني منكما بشعر يوجز فيه ويحسن صفتي فهذه الخلعة له، فقال الفرزدق:[3]

فمَنْ يَأْمَنِ الحَجَّاجَ وَالطَيْرُ تَتَقِي[4] عُقُوبَتَهُ إلّا ضَعيفُ العَزَائِم

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:100.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:100.

[3]- ينظر: الفرزدق، الديوان، شرح مجيد طراد، دط، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، ص: 228.

[4]- ورد في الديوان: ومن يأمن الحجاج والجن تتقي عقوبته إلا ضعيف العزائم.

فقال جرير:[1]

فَمَنْ يَأْمَنِ الحَجَّاجَ أَمَا عِقَابُهُ فَمرٌّ وَأَمَّا عَقْـدُهُ فَوَثِيـقُ

يُسِرُّ لَكَ البَغضَاءَ كُلُّ مُنَافِقٍ كَمَا كُلُّ ذِي دَينٍ عَلَيْكَ شَفيقُ

فقال الحَجَّاجُ للفرزدق ما عملت شيئا، إن الطير تنفر من الصبي، والخشبة، ودفع الخلعة إلى جرير[2]، وكأن الحجاج قد استنقص حجة الفرزدق، وهي مهابة الطير إيّاه، والطير تخاف حتى من الضعفاء، كالصبيان، بينما حمل شعر جرير حججا أقوى رفدت معنى المهابة عند الحَجَّاجْ، وحشد حججه تباعًا مؤكدًا مكانة الحَجَّاجِ وقوته، شدّته أولا، ثم وفاءه بالعهد، ثم هيبته، فالمنافق يظهر له الودّ، ولا يصرح بالضغينة، لخشيته العقاب، والمؤمن له محب ومشفق.

لهذا أقنع هذا الخطاب الحَجَّاجَ، ولم يقنعه خطاب الفرزدق، وذلك لحسن اختيارات جرير للحجج، ووضعها في مواضعها المناسبة.

كما يؤدي سوء الاختيار إلى مس العملية الاقناعية، كسوء اختيار الأعشى في مدح الملك النعمان في قوله: [3]

وَيَأمُرُ لليَحْمُوم كلَّ عَشِيَّةٍ بِقَتِ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَانَ يَسْنِقُ[4]

«وهذا مما لا يمدح به الملوك، بل ولا رجل من خساس الجندِ»[5]، وهي حجة ضعيفة جدا، إذ كيف يمدح ملك بإطعام فرسه حتى التخمة، وهو سوء اختيار من الشاعر، مما ليس فيه مدح، أو دلالة على كرم، أو ترف، أو فضل.

أما عن الاختيار في غرض الهجاء «فأن ينسب المهجو إلى اللؤم، والبخل والشره، وما أشبه ذلك»[6] فإن أراد الشاعر أن يحتج لمذمة أحدهم فعليه اختيار أنسب الحجج، وأقواها، وقد حددها

---

[1]-جرير، الديوان، شرح: تاج الدين شلق، ص:435-436.

[2]-ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:101.

[3]-الأعشى، الديوان، ص:119.

[4]-اليحموم: فرس النعمان بن المنذر، القت: القصبة اليابسة، يسنق، يتخم، ينظر: الأعشى، الديوان، هامش، ص:119.

[5]-العسكري، المصدر السابق، ص:75.

[6]-العسكري، المصدر السابق، ص: 104.

العسكري بأنها المتعلقة بالنفس لا بالجسم والشكل؛ يتم اختيارها بسلب الصفات المستحسنة التي تحتضنها النفس، ومن الهجاء الذي تنتظم فيه هذه الحجج قول بعضهم[1]

اللُّؤْمُ أَكرَمُ من وَبَر وَوَالِدِه واللَّؤْمُ أكرَمُ من وَبَرٍ وَمَا وَلَدَا

قومٌ إذا مَا جَنَى جَانيهُمُ أَمِنُوا منْ لُؤْمِ أحسَابِهِم أن يُقْتَلُوا قَوَدَا

وقول أعشى باهلة[2]:

بنُو تَمِيمٍ قَرَارَةُ كُلَّ لُؤْمٍ كَذَاكِ لِكُلِ سَائِلَةٍ قَرَارُ

جاءت الأبيات على شكل حجج تدل على دناءة خُلُقِ المهجوين، باختيار أقوى الألفاظ والمعاني في الهجاء، ففي قوله: اللؤم أكرم من وبر ووالده، باختيار صيغة المبالغة، جعل المهجو ووالده في مرتبة أعلى من مرتبة اللؤم نفسه، وأبلغ من ذلك نسبته اللؤم إلى ذرية المهجو أيضا، يقول: واللؤم أكرم من وبرٍ وما ولد، هذه الحجج كافية لإقناع المتلقي بذمامة خلق المهجو.

وفي بيت أعشى، استعمال الاستعارة كحجة في قوله: بنو تميم قرارة كل لؤم وكأن هؤلاء القوم قد ثبتوا في اللؤم، كما يثبت ما يبقى في القدر بعد الغرف منها، والقرارة هنا ما يبقى في القدر.

الحقيقة أن الاختيار، مبدأ أساسي في صناعة البلاغة عامة عند العسكري، يصرح بذلك في مواضع عدّة، إذ يقول «تنوق كرائم اللفظ»[3]ويقول: «إيّاك والتوعر»[4] ويفصّل في الاختيارات بالنسبة بالنسبة للفظ يقول: «أن يكون لفظا شريفا عذبا، وفخما سهلا»[5]، وللمعنى «ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا»[6] بل وأكثر من ذلك يركز على الاختيار حسب مقتضى الحال، وما يجب لكل مقام من مقال، وأحوال المتلقين، وهذا ما تنص عليه مصنفات الحجاج، أن يكيَّف الخطاب، ويختار له ما يناسب جمهور المستمعين الذي يروم هذا الخطاب إقناعه، بالتالي يتم تأسيس الحجاج

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:105.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:105.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص:133.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 134.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 134 .

[6]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 134.

على الطرف الآخر الموجه إليه هذا الحجاج، بالأساس[1]، وكلها اختيارات تتم لإكمال الصنعة، وجعل الخطاب ذا منفعة، خطابا حجاجيا «لأن نشاط الحجاج مزامنٌ لنشاط الكلام، فما أن يتكلم المرء حتى يُحاجَّ»[2]، ولكن درجة الإقناع الناتج عن هذا الخطاب الحجاجي تتوقف على الاختيار الموفَق، للوصول إلى النص الشعري الحجاجي.

ثانيا: الإقصاء: هي إستراتيجية تنتج بطبيعة الحال عن الإستراتيجية الأولى، وهي الاختيار، فبقدر ما يحشد الشاعر، ويجمع من الصفات والنعوت الحجاجية في تشكيل موضوع شعره، ممدوحًا كان، أو مهجوًا، أو مرثيًا، فإنه يقصي معانٍ أخرى، أو يغيِّبها، تكون تلك المعاني غير مناسبة للمقام[3]، وغير فاعلة في العملية الجمالية والحجاجية على حدٍ سواء، وقد تنبه العسكري إلى هذه الإستراتيجية، وكان يحدد ما يجب أن يُذْكَرَ، وما يجب الاستغناء عنه في حالات عدَّة، منها قوله: «ينبغي أن تتجنب إذا مدحت أو عاتبت المعاني التي يتطير منها ويستشنع سماعها»[4] هذه دعوة لإقصاء معان لا يصّحُ استعمالها كحجج في هذه الأغراض، كمثل قول أبي نواس[5]

فَسَلَامٌ عَلَى الدُنْيَا إذا مَا فُقِدْتُمْ بَني بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

استعمل الشاعر ما يتطير «وإذا أردت أن تأتي بهذا المعنى، فسبيلك أن تسلك سبيل أشجع السلمي في قوله[6]

لَقَدْ أَمْسَى صَلَاحُ أَبِي عليّ لِأَهْلِ الأرضِ كُلِّهِمُ صَلَاحَا

إذا ما الموتُ أخطَأَهُ فَلَسْنَا نُبَالِي الموتَ حيثُ غدَا وراحَا

[1]- ينظر: كريستيان، بلانتان، الحجاج، ص:141.

[2]-كريستيان، بلانتان، المرجع نفسه، ص: 126.

[3]-ينظر: سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص: 69.

[4]-العسكري، الصناعتين، ص: 146.

[5]-أبو نواس، الديوان: 112.

[6]- العسكري، المصدر السابق، ص: 146.

فذكر إخطاء الموت إياه، وتجاوزه إلى غيره»[1]؛ عندما أقصى ذكر فقد صلاح، وذكر نجاته وغبطته لذلك، بينما ذكر أبو نواس فقد ممدوحه وهلاكه، وركز على خراب الدنيا من بعده، وهذا مما يتطير منه، وكانت حجته لتكون أقوى وأنجح، لو أنه أقصى ذكر الفقد.

وقد أحسن القائل إذ قال[2]:

ولَا تحسبنَّ الحُزنَ يَبقَى فَإنَّه شهابُ حَريقٍ واقدٌ ثم خامِدُ

سَتَألَفُ فُقْدان الذي قَدْ فَقَدْتَهُ كَإلِفكَ وِجْدَانَ الذِي أنْتَ وَاجِدُ

فجعل ما يتطير من الفقدان لنفسه؛ أي أنه أقصاها عن الممدوح، وذكرها لنفسه، وذكر ما يستحب من الوجدان للممدوح[3] وهذا أحسن في التصرف القولي جعل النص أكثر إقناعا.

ومما يجب إقصاؤه في غرض التشبيب، دلائل الخشونة، والجلادة، وأمارات الإباء والعزة؛[4] فدعوى المحب لا تأتي أكلها في الإقناع، باستعمال هذه الحجج كقول كثير.[5]

ألاَ لَيْتَنَا يَا عَزَّ مِنْ غَير رَيْبَةٍ بَعِيرانِ نَرعَى فِي خَلاءٍ وَنَعزبُ

كِلانَا بِهِ عزٌّ فَمَنْ يَرَنا يَقُلْ عَلى حُسْنِهَا جَرْبَاءُ تُعَدَى وَأَجْرَبُ

نَكُونُ لذِي مَالٍ كَثِيرٍ مُغَفَلٍ فَلَا هُوَ يَرْعَـانَا وَلَا نَحْنُ نُطْلَبُ

إذا مَاوَرَدْنَا مَنْهَلًا هَاجَ أَهْلُهُ إلينا فَلَا نَنْفَــكُ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

لم تجمع القطعة الشعرية من قول كثير حججًا تجعل المتلقي ينتبه لشده ولهه أو حبه، بل أقصى كل معان التشبيب الناجحة منها، حتى أن عزّة قالت له: «لقد أردت بيَّ الشقاء الطويل»[6]وهذا من مذموم القول، والتمني الفاسد، ومثله قول آخر[7]

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 147.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص:147.

[3]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 147.

[4]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 129.

[5]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 76.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 76.

[7]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 76.

سَلَامٌ لَيْتَ لِسَانًا تَنْطِقِينَ بِه قَبْلَ الذِي نَالَنِي مِنْ خَبْله قُطِعَا

فدعا عليها بقطع لسانها[1].

وقول جنادة[2]

مِنْ حُبِهَا أَتَمَنَى أَنْ يُلاقِيني من نَحو بَلْتَدِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا

لِكَي يَكُونَ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ وَتُضْمِر النَفسُ يأسًا ثم تَسْلَاهَا

فإذا تمنى المحبُّ لحبيبته الموت، فما عسى أن يتمنى المبغض لبغيضته[3]، استبعد الشاعر هنا حجج الدلالة على التمني للقرب، والوصل، ومعاني الرجاء، وألم المنع، أو إظهار متعة التمني كقول الشاعر:[4]

فإن تَبْخَلُوا عَنِي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبالوَصلِ مِنْكُمْ لكَيْ أصبَّ وَأَحْزَنَا

فإني بِلَذّاتِ المنى وَنَعِيمهَا أَعِيشُ إلى أَن يَجْمَـعَ اللَّهُ بَيْنَنَا

وهذا اختيار جيد عمل عملاً إقناعيا، باختيار ما يناسب الغرض، وإقصاء ما لا يناسبه وهو من المختار عند العسكري.

كما ينبغي على الناس إقصاء معاني التبرم بالحب،[5] فهذا مما لا يحتج به على الصبابة والهوى، والهوى، كقول أبي صخر[6]

فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوًى كُلَ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعُدُكِ الحَشْرُ

وكأنه بهذا لا يأبه لهذا الحب، وكأنه سالم منه، وقول آخر[7]

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ، ص: 76.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 76.

[3]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 76.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص:77.

[5]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 131.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 131.

[7]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 131.

تَشَكَّى المحِبُونَ الصَبَابَةَ لَيْتَنى تَحَمَلْتُ مَا يَلْقُونَ مِن بَيْنِهِمْ وَحْدِي

فَكَانَتْ لِنَفْسِي لَذَةُ الحُبِّ كُلُّهَا وَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌ ولَا بَعْدِي

بل على الشاعر إقصاء هذه الحجج، والاستعاضة بحجج أخرى، تدل على شدة الوجد والتحسر مثل قول الشاعر[1]:

نَهَاري بأَشرافِ التِّلَاع مَوَّكَلٌ وَلَيْلَي اذَا مَا جَنَنِي اللَّيلُ آرقُ

فَوَاكَبِدِي مِمَا أُلَاقِي منَ الهَوَى إذا جَنَّ إلِفُ أَوْ تَأَلَقَ بَارِقُ

هذه الحجج المبثوثة في الخطاب الشعري في النسيب، هي المحققة لحجاجيته، بإقصاء ما يتعلق بالتبرم واللامبالاة.

ومن استراتجيات الإقصاء أيضا إقصاء الهاجي في هجائه للصفات الحسية لدى المهجو كقبح الوجه، وصغر الحجم وضؤولة الجسم،[2] لأن هذه الصفات لا يتدخل المهجو في تشكيلها، لذلك يجب أن يهجوه بصفاته الروحية والخُلُقِية التي كان هو السبب الأول في صنعها، ومن ذلك قول الشاعر[3]:

لَو اطَّلَعَ الغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ ومَا فيهَا مِنَ السَّوْءَاتِ شَابَا

أقصى الشاعر وصف أجسامهم، أو صفاتهم الظاهرية، واستعمل حجة، كثرة سوءاتهم، حتى أن الغراب ليشيب منها- على شدة سواد الغراب- لكثرتها، ولا يقتصر مفهوم الإقصاء على إقصاء الحجج المشتغلة سلبيا، والتي تمس حجاجية الخطاب الشعري، فتنقص درجات إقناعه، بل له مفهوم آخر عند العسكري، يتمثل من مفهوم مشتركات الألفاظ الذي ذكره؛ حيث قال «ومشتركات الألفاظ (...) فهو أن يريد الإبانة عن معنى، فيأتي بألفاظ لا تدل عليه خاصة، بل تشترك معه في معان أُخَر فلا يعرف السامع أيها أراد»[4] ومن ذلك قول جرير[5]:

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 130.

[2]- ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:104.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص:106.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص:32.

[5]-جرير، الديوان، ص:490.

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَ آخِرَ عَهْدِكُم يَوْمَ الرَحيل فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

قال: ما لم أفعل، والسامع هنا لا يدرك معناها، فقد أقصى الشاعر عدة معان عن الذكر، لكنها مستترة في المشترك اللفظي(لم أفعل)، وعلى السامع توهُمها كما عبر العسكري، بهذا يُعمِل ذهنه، وهذا حجة في الخطاب، إذ يجعل السامع يتمثل احتمالات كالآتي:

ما لم أفعل	-البكاء إذا رحلوا. -يهيمُ على وجهه من الغمّ. -يتبعهم إذا ساروا. -يمنعهم عن المضي والرحيل. -يأخذ منهم شيئًا يتذكرهم به. -يدفع إليهم شيئًا يتذكرونه به.

وقد فتح العسكري الأفق أوسع من هذا إذْ قال: «أو غير ذلك مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته،»[1] هذه الطريقة في الإقصاء تقيم تساؤلاً مستمرًا من طرف المتلقي، حول ماذا أراد الشاعر من خلال قوله؟ وهي طريقة ناجعة في جلب ذهن السامع واستمياله إلى التوهم، وفتح أفق تصوره إلى كل الإمكانيات التي كان سيقوم بها الشاعر.

تشتغل إستراتيجية الإقصاء إلى جانب إستراتيجية الاختيار على بناء خطاب شعري يصل درجة الحجاجية في تكوينه، سواءً من حيث الألفاظ أو المعاني، أو التراكيب التي تشكل الحجج المناسبة لكل خطاب، ليتبوأ مكانة بين الأساليب الحجاجية؛ «لأن الحجاج عامة يقوم على قانون الانتقاء، فيختار المحتج ما يخدم أطروحته، ويستبعد كل ما يضعفها، أو ينقصها»[2]، وذلك ما وضحه العسكري كما رأينا في أكثر تعليقاته السابقة على النماذج الشعرية التي أوردها في مؤلفه، وفي حدوده البلاغية أيضا.

[1]-العسكري، الصناعتين، ص: 33.

[2]-سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص:72.

ثالثا: ترتيب الحجج:

الحديث عن ترتيب الحجج يحلينا إلى نظرية السلالم الحجاجية والتي هي«علاقة ترتيبية للحجج يمكن أن نرمز لها كالتالي[1]:

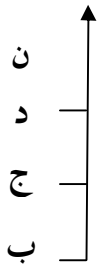

«ن»: النتيجة، و «ب»، و «ج» و «د»، حجج وأدلة تخدم النتيجة «ن»؛ فعندما تقوم بين حجج منتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترتيبية معينة، فإن هذه الحجج تنتمي إذاك إلى نفس السلم الحجاجي؛ لأن السلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجهة، ويتسم بالسمتين التاليتين:

أ-كل قول يرد في درجة ما من السلم، يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة لـ«ن»

ب- إذا كان القول «ب» يؤدي إلى النتيجة «ن»، فهذا يستلزم أن «ج» أو «د» الذي يعلوه درجة يؤدي إليها.»[2] هذا التعدد في الحجج من أجل نتيجة واحدة، هو ما دفع ديكرو إلى بلورة تصور ينظم هذه الحجج، ويوجهها باعتماد مبدأ التدرج، استنادا إلى قوة الحجة أو ضعفها[3]، لأن الأقوال المثبتة للمدلول الواحد لا تتعدد فحسب، بل إنها تتفاوت في قوتها التدليلية أو قُلْ حُجيتها[4].

وكان للعسكري مذهب في ترتيب الحجج، يقترب من معنى السلالم الحجاجية، فهو يعلق على الترتيب الوارد في النص الشعري، ويعتقد أنه يؤثر على حجاجية النص برمته، فإذا كان شرط توفر الأقوال الحجاجية في نفس الفئة الحجاجية، وتأديتها إلى النتيجة نفسها حاضرًا، فإن الترتيب في النص الشعري قد يخلُ بحجاجيته، ويعطينا نموذجا لذلك يقول: ومن عيوب المدح قول أيمن خُزَيْم[5]

---

[1]-أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص:21.

[2]-أبو بكر العزاوي، المرجع نفسه، ص21.

[3]- ينظر: أحمد قادم، التحليل الحجاجي للخطاب، الطبعة الأولى، كنوز المعرفة، الأردن، سنة: 2016، ص:434.

[4]- ينظر: طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، التكوثر العقلي، ص:276.

[5]-العسكري، الصناعتين، ص:100.

فَإِنْ أَعْطَاكَ بِشرٌ أَلْفَ أَلْفٍ رَأَى حَقًّا عَلَيه أَنْ يَزِيدَا

وأَعْقَبَ مَدحيّ سَرْجًا خَلَنْجًا وأبيضَ جوز جانيا عَنُودًا

وإنَّا قَدْ رَأَيْنَا أُمَّ بِشْرٍ كَأُمِّ الأُسْدِ مِذْكَارًا ولودًا

جميع هذا الكلام جار على الصواب، إلّا في ابتداء وصفه في التناهي في الجود ثم انحطّ إلى ما لا يقع من الأول موقعا، وهو السرج وغيره، وأتى في البيت الثالث بما هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح»[1] اعترض العسكري على ابتداء الشاعر بحجة هي أقوى الحجج في هذا الكلام، انحطّ إلى حجج أقل قوة، وإنما وقع ترتيب الحجج بشكل صائب، موصل إلى النتيجة نفسها، ومُقوي لحجاجية الشعر، ما قاله زهير[2]

هُنَالِكَ أنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخوِلُوا[3] وإنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

وفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القولُ والفِعلُ

يعبر العسكري عن استحسانه للترتيب القائم للحجج في هذين البيتين إذ لما «اسْتَتَمَ وصفهم بحسن المقال، وتصديق القول بالفعل، وصفهم بحسن الوجوه،»[4]وهي حجج كما نلاحظ منتمية إلى نفس الفئة الحجاجية، ثم قال[5]:

عَلَى مُكِثِريهِمْ حقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ المقِلِّينَ السمَاحَةُ وَالبَذلُ

وهذه حجة أخرى أضافها الشاعر، وهي برُّ وفضل هؤلاء القوم، ثم قال:[6]

فَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَولَ بُيُوتِهِم مَجَالِسَ قَد يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الجَهْلُ

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:100.

[2]-زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح: حمدو طماس ص: 50.

[3]- في الديوان: هنالك إن يُستخبلوا المال يُخبلوا.

[4]-العسكري، المصدر السابق، ص: 102.

[5]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 50.

[6]-زهير بن أبي سلمى، المرجع نفسه، ص:50.

وهذه أيضا حجة، بمعنى وصفهم بالحِلم، ثم قال[1]:

وَإنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائمٌ قال قاعدٌ[2] رَشِدْتَ فلا غُرمٌ عليكَ ولا خَذْلُ

وهي حجة التضافر، والتعاون بينهم، ثم ذكر فضل أبائهم فقال:[3]

ومَا يلكُ مِنْ خيرٍ أتوهُ فإنما توارثهُ أباءُ أبائِهــم قَبْلُ

وهَلْ يُنبِتُ الخَطِيَّ إلَّا وشيجُهُ وتُغْرَسُ إلَّا في مَنَابِتِها النّخْلُ

استحسن العسكري هذا الترتيب للحجج، بما أنه كان قد أشار إلى شروط الحجج التي يجب أن تكون في كل غرض، ثم إنه بلاغي وناقد يحتفي بأهمية الابتداء مثل غيره من البلاغيين والنقاد، لذلك فضَّل أن يبدأ الشاعر بالحجج المناسبة لكل غرض، لتكون أكثر فاعلية، لذلك عبر قائلا «فلما أتاهُمْ الصفات النفيسة، ذكر فضل أبائهم»[4]؛ كإشارة منه إلى تقدم الحجج الأولى على هذه الحجة، لتغطية المساحة الإقناعية لهذه المديحية، ولو أننا أخضعنا القطعة لسلالم ديكرو الحجاجية، وفهم العسكري سيكون ترتيب الحجج كالآتي:

ن	-النتيجة- مدح هؤلاء القوم ورفع شأنهم.
ج1	-تصديق القول بالفعل.
ج2	-حسن المقال.
ج3	-البرّ والفضل.
ج4	-الحِلْم.
ج5	-التضافر والتعاون.
ج6	-فضل الآبَاء.
ج7	-حسن الوجوه.

[1]-زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 50.

[2]- في الديوان: وإن قام فيهم حامل قال قاعد.

[3]-زهير بن أبي سلمى، المصدر السابق، ص: 51.

[4]-العسكري، الصناعتين، ص:102.

تشتغل الحجج (ج1....ج7) للوصول إلى النتيجة (ن) وهي نتيجة واحدة؛ لكل الحجج، مختلفة من حيث القوة.

3-صناعة الحجج:

1- حجج على أساس القيم والمعتاد: يتم استعمال مثل هذه الحجج للاحتجاج لمعنى معين يروم الشاعر إقناع متلقيه به، وعادة ما تكون هذه الحجج مبنية على أساس قيم ومصالح، تجمع تحت اسم قوالب جاهزة مجموعة من الخطابات الأجناسية التي يمكن أن تبنى عليها حجاجيات خاصة عن طريق الاستدلال،[1] تتمثل هذه الحجج في مذهب العسكري فيما اعتاد العرب استعماله، فالقيم تكون محل اتفاق بين الجميع، مما يسمح باشتراك الحالات الخاصة التي لا يحصل إقناعها بالمنطلقات الأخرى،[2] صناعة هذه الحجج تكون وفق معتقدات من يقدم لأجلهم الخطاب الشعري؛ على خلفية أن «الحجاج قائم على معتقدات الآخر، فلا يقع الاهتمام بصدق مقدمات الحجاج فقط، بل بناء نتيجة انطلاقا من معتقدات المخاطب»[3] وما اعتاد طبعاً، فقد سمع أعرابي قصيدة أبي تمام[4]

طَلَلَ الجميعُ لقد عفوت حميدًا

فقال إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها، وأشياء لا أفهمها، فإما يكون قائلها أشعر من جميع الناس وإما يكون جميع الناس أشعر منه، ونحن نفهم معاني القصيدة بأسرها لعادتنا بسماع مثلها، لا لأننا أعرف بالكلام من الأعراب»[5] إذًا تم الاستدلال بحجج من المعتاد سماعها، ولذلك اقتنع الأعرابي بها، فربما وصف الفرس بأوصاف معينة، أصبحت من المعتاد في شعر العرب، وتستعمل كحجج جاهزة، أيضا قد تصنع هذه الحجج حسب ما تعارف عليه الأعراب، وقد علق العسكري على قول النابغة:[6]

تُحيدُ عن أَسْنَّةٍ سُودٍ أَسَافِلُه مَشيَ الإمَاءِ الغَوادِي تَحْمِلُ الحُزَمَا

---

[1]- ينظر: كريستيان، بلانتان، الحجاج، ص142.

[2]- voir : chaim prelman, traite. De l'argumentaion.p99:.

[3]-كريستيان، بلانتان، المرجع السابق، ص145.

[4]- أبو تمام، الديوان، ص87، وبقية البيت: وكفى على رزئي بذاك شهيدًا.

[5]- العسكري، الصناعتين، ص: 12.

[6]- النابغة، الديوان، ص:110.

وإنما تحمل الإماء حُزَمَ الحطب عند رواحهنّ، فأما غدوهنّ إلى الصحراء فإنهن مخفَّات[1]؛ وهذا مما لا يصح أن يستعمل كحجة، لأنه غير منطقي، ولا يتقبله العقل، لذلك وجب توخي هذه المسائل في صناعة الحجج، وقد قال المتلمس:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِه بناجٍ عَلَيْهِ الصَّيعرية مُكْدِمِ

كَمَيْتٍ كِنَازِ اللَّحْمِ أَوْ حِمْيَرِيَةٍ مُوَاشِكَةٍ تَنْفِي الحَصَى بِمُثْلَمِ

والصيعرية سمة للنوق، فجعلها للجمل، [2] وهذا مما لا يحتج به، ومما يدخل في هذا الباب أيضا قول الشاعر[3]:

كُنْتُمْ كَمَنْ أَدْخَلَ فِي حجرٍ يدًا فَأَخْطَأَ الأَفْعَى وَلَاقَى الأَسُودَا

فجعل الأفعى دون الأسود في المضرّة، وهي فوقهم فيها[4]، استعمال مثل هذه الحجج يعمل عكس الحجاج، فهو استعمال لغير المعتاد، ومن المعتاد مثلا أن يوصف العيش مع الأحبة بالقصر وهذا معهود إلَّا أن الشماخ قال[5]:

بَانَتْ سُعَادُ وَفِي العَيْنَيْنِ مُلْمُولُ وَكَانَ فِي قِصَرِ عَهْدِهَا طُولُ

هذه ليست حجة دالة على حب ولوعة الشاعر، وإنما كان «ينبغي أن يقول: في طول من عهدها قصر، لأن العيش مع الأحبة يوصف بقصر المدة»[6]، لا تكون هذه الحجج ذات فعالية لأنها تتنافى والمعتاد، ومثلها ما يكون حاملاً لمعنى متناقض، وقد أشار العسكري إليه في قول المسيب بن علس:[7]

فتسلَّ حَاجَتَهَا إذا هيَ أعرَضَتْ بخميصةٍ سُرُح اليدين وَسَاعِ

---

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:84.

[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص:86.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 90.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 91.

[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص: 92.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص:94.

[7]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 94.

وكأنَّ قنطرةً بموضعِ كُوْرِهَا وتمدُّ ثَنَى جَدِيلهَا بشراعِ

واذَا أَطَفْتَ بها أطفْتَ بَكَلْكَلٍ نَبِضَ الفرائص مُجْفَر الأضلاعِ

قال العسكري «وهذا من المتناقض لأنه قال خميصة، ثم قال: كأن موضع كُورها قنطرة، وهي مجفرة الأضلاع، فكيف تكون خميصة وهذه صفتها»[1]

وهذا تناقض واضح، لا يتقبله متذوق الشعر، فصناعة الحجج في الشعر يجب أن تكون مما يعقل، وما هو متعارف عليه في الاستعمال، وذكر ما هو في العادة، أي مراعاة المنطق فقول عدي بن الرقاع:

لهم رَايَةٌ تهدي الجموعَ كأنها إذا خطرتْ في ثعلبِ الرُمحِ طائِرُ

فيه مخالفة الاستعمال، لأن الراية لا تخطر، وإنما الخطران للرمح[2] وهذا مما لا يستعمل في العادة، ومن مخالفة العرف وذكر ما ليس في العادة أيضا قول المرار[3]:

وخَالٍ عَلَى خَدَيْكَ يَبْدُو كأَنَّهُ سَنَا البدرِ في دَعْجَاءَ بادٍ دُجُونُها

والمعروف أن الخيلان سود، أو سمر، والخدود الحسان إنما هي البيض»[4] وهذا الشرط أساسي في صناعة الحجج عند العسكري، إذ يصرح أن المختار من الكلام ما لم يخالف فيه وجه الاستعمال[5] الاستعمال[5] وقد عاب على أبي نواس وصف عَيْنَي الأسد بالجحوظ في قوله[6]:

كَأَنَمَا عَيْنَيْهِ إذَا نَظَرْتَ بَارِزَةَ الجَفْنِ عَيْنَ مَخْنُوقِ

وانما المستعمل المعتاد وصف عين الأسد بالغؤور، والحجة الفاعلة التي تقنع في مثل هذا الوصف قول الراجز[7] : كَأَنَمَا يَنْظُرُ مِنْ خَرْقِ حَجَرْ.

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 95.

[2]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 96.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص:96.

[4]-العسكري، المصدر نفسه، ص:97.

[5]-ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص: 149.

[6]-أبو نواس، الديوان.ص:105.

[7]-العسكري، المصدر السابق، ص118.

يذكر العسكري الكثير من هذه النماذج، ويعلق عليها موضحا خطأها، وسبب عدم قبولها؛ أي أنه يوضح سبب عدم فاعليتها الإقناعية، فهل يقتنع المرء بحجة أن البكاء على المحبوب يزيد من جمرة اللوعة وذلك من قول الشاعر:[1]

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حولاً بَعْدَهُم ثُمَّ ارعَوَيْتُ وَذَاكَ حَكْمُ لَبيدِ

أَجْدَرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إطْفَاؤُها بالدَّمْعِ أنْ تزدَادَ طُولَ وَقودِ

و«هذا خلاف ما يعرفه الناس، لأنهم قد أجمعوا أن البكاء يطفئ الغليل، ويبرد حرارة المحزون، ويزيل شدة الوجد»[2]، وإن استعمال مثل هذه الحجج في بناء الشعر يؤثر على حجاجيته، فيعمل الشعر عكس المألوف، ولا يقصد هنا بالخروج عن المألوف المعنى الأسلوبي، وهو العدول عن الاستعمال المعتاد بمفهومه الإجمالي، ولكن بالمعنى المنطقي الذي تتقبله الفئة الاجتماعية الواحدة وتتفق عليه.

2- الأخذ: صناعة الحجج عن طريق التناص: كان البحث قد تناول مفهوم التناص في ما يعرف بآلية الأخذ في بلاغة العسكري، عندما حاول رصد بعض مراميه الحجاجية، غير أن ما سيتم تناوله في هذا الموضع هو كيف يكون الأخذ آلية لصناعة الحجج، فتناول الشعراء للمعاني ممن تقدمهم والصبّ على قوالبهم، هو إعادة استعمال حجج مستعملة، ولا شك أنها حجج قوية وإلَّا لما أعيد استدعاؤها، والأخذ هنا ليس مجرد أخذٍ من الشعر فحسب، بل من كل المعارف، فهو مسرح لانصهار الآفاق، حيث يمكن الانتقال من الأفضية المختلفة للدال، من المعنى المعجمي إلى المعاني الأكثر اتساعا[3]، «ولَوْلَا أنّ الكلام يُعَادُ لنفد»[4]؛ وإنما تم ربط صناعة الحجج، ومفهوم الأخذ، لأن هذا المفهوم ما هو إلاّ استحضارا لحجج سابقة الاستعمال، والعمل على تحسينها، حتى تخرج بشكل أقوى في الخطاب الشعري، ولذلك فهي ريعٌ وافر طبعا في حجيَّةِ الشعر، فللأخذ «مظهر حجاجي قوامه الركون إلى النصوص المتاخمة، كمخازن للحجج، إليها يركن الشاعر لإعطاء ملفوظه مشروعية، أو لِنَقُلْ هي من قبيل الأوتادْ في النص تشهد له بالحجيّة والنجاعة، والحقيقة أن ميزة التناص في النص

[1]- العسكري، الصناعتين، ص: 125.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص125.

[3]-ينظر: محمد عبد الباسط عيد، في حجاج النص الشعري، ص: 160.

[4]- ينظر العسكري، المصدر السابق، ص: 196. وهذا الكلام لسيدنا علي رضي الله عنه.

الشعري حجاجيا يختلف عن ميزته في غيره من النصوص لكونه مبنيا على تخوم المجاز، والضمني غالبًا»[1]؛ لذلك يكون هذا المنتوج الحَامِل من ملامح معنى حجاجي سابق إذا صُنِعَ بطريقة ملائمة يكون حجة بحدِ ذاته، بل قد يكون الخطاب المنتج عن طريق الأخذ أكثر حجاجية، مثلما فعل أبو نواس في معنى في الشعر، والمعنى من قول جرير:[2]

وقَدْ أطولُ نجاد السَيْفِ مُحْتَبِيًا[3]   مِثْلَ الرُّدينيّ هَزَّتْهُ الأنابيبُ

فقال أبو نواس:[4]

سَبْطُ البَنَانِ إذا احْتبَى بنجَادِهِ   غَمْرُ الجَمَاجِمِ والسِّمَاطُ قِيَامُ

فقوله: «غمر الجماجم» زيادة على المعنى الأصلي المأخوذ عنه، وهي حجة أقوى من حجة «مثل الرديني»، فحجة جرير في الفخر تشبيه لنفسه بالرديني وانتصابه، بينما علا أبو نواس الجمَاجِم لطوله، وشرفه، فأخذ الحجة عن جرير وحسّنها، فكانت أقوى من حجة جرير في الخطاب الشعري.

ومثل هذا أخذ أبو داوود:[5]

وما خُبزُه إلّا كليبُ بن وائـــــلٍ   لياليَ يحمي عزُّه مَنْبِتَ البقْـــلِ

وإذ هُرَ لا يُسْتَبُّ خَصْمَانِ عِندهُ   ولا الصوتُ مرفوعٌ بجدٍّ ولاَ هَزْلِ

أخذه من قول مهلهل[6]

أَوْدَى الخَيَارُ مِنَ المعَاشِرِ كلَّهم   واسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ- المجلِسُ

أخذ حجة مهلهل، في المهابة والرفعة التي نسبها إلى أخيه كليب، وهي حجة تحول المجلس بعد كليب إلى مجلس مسبّات، فأخده عنه الشاعر، وصنع حجة حديثة، بصيغة أحسن رصفا، وزاد

[1]- عز الدين الناجح، تداولية الضمني والحجاج، ص: 194.

[2]- ينظر: جرير، الديوان، ص49.

[3]- ورد البيت في ديوان جرير بهذه الرواية: فَقَدْ أَمُدُ نِجَادَ السَيْفِ مُعْتَدِلًا   مِثْلَ الرُدَينى هَزَتْهُ الأَنَابيبُ.

[4]-جاء في الديوان، فرع الجماجيم، ينظر: أبو نواس، الديوان، ص:311.

[5]-العسكري، الصناعتين، ص: 203.

[6]-العسكري، المصدر نفسه، ص:203.

في المعنى زيادة بينة[1] والزيادة في دعم الحجة، بمعنى أن الصوت في حضرة كليب لا يرفع بجدّ أو بهزل.

هذه الطريقة إذا من أهم الطرق في إنتاج الحجج ودعم الخطاب الشعري، وقد تنبه أبو هلال لأهمية الأخذ وبين حسنه وقبحه.

3- الاستشهاد والاحتجاج: وهو عند العسكري «أن تأتي بمعنى ثم تؤكده، بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته»[2]، لذلك يعتبر هذا الجنس من أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، مما يجعله جنسًا حجاجيا، فما الخطاب الحجاجي إلّا خطاب «يزعم حمل الغير على قبول ملفوظ باعتماد ملفوظات أخرى»[3]، ومن الاستشهاد قول الآخر:[4]

إنَمَا يَعْشَقُ المنايَا بَينَ الأَقْـ وَامِ مَنْ كَانَ عَاشقًا للمَعَالِي

وَكَذاك الرِّمَاح أو مَا يكَـــ سَرُ مِنْهُنَ فِي الحُرُوبِ العَوَالِي

فجاءت الملفوظات الأولى المتمثلة في معنى «المعالي»، واحتج لهذا المدعَّى بملفوظات تلته في الخطاب، أكدت المعنى واحتجت له باستعمال صورة التشبيه الفاعلة في الحجاج بشكل عميق فتشبيه حب المعالي، وعدم مهابة الموت بكسر الرماح، وشرف ذلك في الحروب، أكد المعنى، وهو دعم لملفوظات بواسطة ملفوظات أخرى، كقول بشار بن برد[5]:

فَلَا تَجْعَل الشُورى عَلَيْكَ غَضَاضةً فإِنَّ الخَوافِي قوةٌ لِلْقَوادم

احتج بشار في هذا البيت بصناعة حجة عن طريق أسلوب الاحتجاج، احتج للشورى، وهي أن مقدم الجناح تكمن قوته في الخوافي التي هي ما دون العشر ريشات من مقدم الجناح، أي أنه يحثّ مخاطبه على اعتماد الشورى؛ فهي قوة له، كما الخوافي قوة للجناح.

4- استعمال اسم العلم: ذكر العسكري هذا النوع من الحجج كنوع من أنواع التشبيه، ويظهر أنه نمط هام من الحجج التي تزخر بطاقة حجاجية اكتسبتها بفعل تداولها كأسماء ارتبطت بمواقف معينة

[1]- ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:203.

[2]-العسكري، المصدر نفسه، ص: 416.

[3]-كريستيان، بلانتان، الحجاج، ص:52.

[4]-العسكري، المصدر السابق، ص:416.

[5]-بشار بن برد، الديوان، ص: 321.

فيستعملها صاحب الخطاب، صاحب القصيدة أو حتى في النثر كحجج واقعية تقوي درجة الإقناع «كالسموءل في الوفاء، وحاتم في السخاء، والأحنف في الحلم، وسحبان في البلاغة، وقُسّ في الخطابة، ولقمان في الحكمة، وشُهِرَ آخرون بأضداد هذه الخصال فشبه بهم في حال الذم، كباقل في العيّ، وهنبقة في الحمق، والكسعيّ في الندامة، والمنزوف ضرطا في الجبن، ومادِر في البخل»[1]، هذه الأسماء تستعمل كحجج يستعان بها في الإقناع، لارتباطها وشهرتها بما تنسب إليه.

بعد هذا العرض لمظاهر الحجاج في صناعة الشعر عند العسكري، يمكن استبعاد الاعتقاد الذي يربط الشعر بالشعور والوجدان وكل ما له صلة بالجانب الروحي فقط، في المقابل ربط الحجاج بالجانب العقلي والبرهاني الاستدلالي؛ ما جعل عملية الجمع بين الأمرين –الحجاج والشعر– أمرًا عسيرًا، لكن هذا ليس معناه أن غاية الشعر استمالة المتقبل وضمان تسليمه وإخضاعه لطروحات الباث كما هو شائع في مصنفات الحجاج، وإنما غايته العرض لا الفرض؛ فالشعر نص يعرض أطروحته ويحاول بكل الوسائل إقناع متلقيه، لكنه لا يفرض ذلك فرضا، وهذا راجعٌ لطبيعته الوجدانية، من هذا المنطلق سيتيسَّر ربط الحجاج بالشعر، وقد رصد العسكري الوسائل التي تجعل من الخطاب الشعري حجاجيا، منطلقا من البناء التكويني للشاعر ذاته، وصولًا إلى بنية الشعر، مستعينًا بكل الوسائل التداولية، برصده لظروف إنتاج الشعر أيضا.

1 . 2- الحجاج في النثر:

خصّص العسكري فصلا كاملا فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه، وامتثاله في مكاتباته وافتتحه بوصف ما تحتاج إليه الكتابة الجيدة، كمعرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى(...) وأهمها المعرفة بصنعة الكلام، وهي أصعبها، وأشدها على حدّ تعبيره[2]، كما ذكر شروطا أخرى مشتركة بين كل الخطابات (شعر– نثر) وقد تم التعرف على أنواع النثر التي ذكرها العسكري في الصناعتين، وفي مقدمة ذلك الرسائل والخطب، وما أشار إليه من تشاكل بينهما من حيث البناءُ، وتباين من حيث الأغراضُ والمقاصدُ.

[1]–العسكري، الصناعتين، ص:243.

[2]–ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:154.

وقد لاحظنا أن العسكري لم يخصص فصلًا لإعجاز القرآن الذي جعله أهم مقاصد البلاغة في مقدمة الصناعتين، إلّا أنه لم يلبث يستشهد من آياته الكريمة أثناء عرضه لفصول كتابه، وكثيرا ما يقدمه في الشواهد ويتلوه بشواهد من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يتم شواهده من الشعر ومختلف النثر.

إن أول ما أشار إليه العسكري كمظهر حجاجي في النثر هو اختيار اللفظ «لأن التعبير عن معنى من المعاني يضع المتكلم أمام اختيارات لفظية متعددة، فيعمد إلى أحد هذه الاختيارات ليس اعتباطا وإنما لأنه الأنسب والأنجح لتحقيق مقاصد خطابه،»[1] ودائما ما دعا العسكري إلى تسهيل الألفاظ والابتعاد عن الغثاثة والوعورة، فيجيء الكلام بذلك عذبا جزلا سهلا رصينا، ويحقق ما أراده صاحبه به.

ومن حسن الاختيار لسهل الألفاظ، واستعمالها في أعلى مراتب البلاغة عند العسكري؛ وهي الإقناع في «أن يحتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم»[2]، فقد استعان عبد الملك بن صالح كما أشار أبو هلال ببراعته البلاغية للاحتجاج لذَم المشورة، وهي مسألة محمودة وهذا متفق عليه، فحشد من الحجج المركبة من ألفاظ سهلة وعذبة فقال: «ما استشرت أحدًا إلّا تكبر عليَّ وتصاغرْتُ له، ودخلته العزة ودخلتني الذِّلة، فعليك بالاستبداد، فإن صاحبه جليلٌ في العيون، مَهِيبٌ في الصدور؛ وإذا افتقرتَ إلى العقول حقرتك العيون، فتضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك الصغير، واستخفَّ بك الكبير، وما عزَّ سلطان لم يُغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نُصائحه»[3]، دعواه هنا ذمُ المشورة، وانتقاص شأنها باستعمال حجج رتبها كالتالي:

1- المشورة تجعل المسْتَشَار يتكبر على المسْتَشِير.

2- تدخل العزة على المستشار، والذلة على المستشير.

3- الأخذ بضد المشورة وهي الاستبداد لأن صاحبه جليل في العيون، مهيب في الصدور.

---

[1]- عبد العالي قادة، الحجاج في الخطاب السياسي، الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس أنموذجا(دراسة تحليلية)، الطبعة الأولى، دار -كنوز المعرفة، عمان، الأردن، سنة: 2015، ص: 250.

[2]-العسكري، الصناعتين، ص: 53.

[3]-العسكري، المصدر نفسه، ص:53.

4- الافتقار إلى العقول يحقّرُ المستشير في العيون، ويُضعضِع شأنه.

5- حجة استشهاد، ما عزّ سلطان لم يغنه عقله.

استخدم عبد الملك في نصه النثري أنواعًا من الحجج تتشاكل وما اقترح بريلمان وتيتكاه في مؤلفهما من تقنيات حجاجية.

حجج بالتناقض وعدم الاتفاق: وهي حجج تنتمي إلى زمرة الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية عند بريلمان[1]، وهي مرتبطة بقضايا إحداهما نفي للأخرى، أما عدم الاتفاق فمرتبها بوضع ملفوظين على محكي الواقع، والمقام، مما يحتم اختيار إحدى الأطروحتين وإطراح الأخرى،[2] نستطيع تمثلها هنا بذكر حجة الاستبداد، إذا استدعى الكاتب مصطلح مناقضا لمعنى المشورة، حتى يبعد حجة المشورة، بالانتصار لحجة الاستبداد، قد تكون هذه الحجة حجة بالمقارنة [3]، أيضا إذ قارن بين الاستبداد والمشورة، بعد التقويم السلبي للمشورة، شحن فكرة الاستبداد بتقويم إيجابي جعله يتقدم في الخطاب؛ بحجة تمثل التقويم السلبي الخاص بالمشورة، كونها تورث تكبر الناس على المستشير، وذلّهُ في المقابل رفع المستبد وإجلال أمره.

ثم استعمال حجج قائمة على علاقة سببية، وهي حجج مؤسسة على بنية الواقع، وهي ربط للأحداث المتتابعة بعلاقات سببية، تمثلت فيما ذهب إليه إلى أن حاجتك إلى عقول الناس ستكون سببا في حقر العيون لك، يتبعها حقر الصغير، واستخفاف الكبير، وكلها سلسلة متتابعة من الحجج الحاصلة لسبب واحد، وهو اعتماد المشورة، أخرج صاحب هذا النص المشورة من هالة الأفكار الايجابية المحيطة بها إلى سلسلة من الأفكار السلبية التي أفقدتها مكانتها الممدوحة في العادة، وهذا هو معنى الإخراج من معرض الممدوح إلى معرض المذموم عند العسكري.

ومما يطلب في الاحتجاج من سهولة، وهو كما عبر العسكري، قوة في السهولة والجزالة احتجاج الشعبي عند الحَجَّاجْ «وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث أَجْذَبَ بنا الجناب،

---

[1]-ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص:335.

[2]-chaime prelman, traite de l'argementation, p :292, الترجمة منقولة عن: عبد الجليل عشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية،الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، سنة:2012، ص:36.

[3]-Ipid : p :335.

وأحزن بنا المنزل، واستحللنا الحذر، واكتحلنا السَّهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، فعفا عنه»[1].

يتمظهر الحجاج في النص السابق في كل مفاصله، ألفاظًا، وعبارات، ورصًا للحجج، فبدأ خطابه باستعطاف: أجذب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، وكأنّهُ يوضح شدة ندمه على خروجه عن الحَجّاج، وإلى أيِّ وضع آل حاله من الحزن، والسهر، ثم يأتي بحجة تبرير، يبرر سبب خروجه، باستعمال لفظ فتنة: أي أنه فُتِنْ، ولم يكن بارًا بالحَجَّاجْ، مع ذلك يعترف بضعفه، فلم يكن فاخرًا قويا يؤثر على ملك الحجَاج.

السهولة، والجزالة، والاستعطاف، هي التقنيات التي استعملها الرجل في هذا النص، وقد حققت الغاية، وهو جعل الحجَّاج يذعن لما جاء في هذا الخطاب، «فأنجحُ الحِجَاجِ ما وُفِّقَ على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة،»[2]وقد أوشك الحَجَّاجُ بن يوسف أن يفتك بالشعبي، وبفعل خطابه تحقق الفعل اللغوي، –العفو– لأن نصه حجاجي، جعل الحَجَّاجَ يذعن لمضمونه، ويعفو عنه في الأخير.

إذا كان العسكري لا يفصل كثيرًا فيما يورده من شواهد سواءً نثرية أو شعرية، فإن تعليقاته البسيطة في تقديم الشاهد، أو بعد ذكره توجِّهُ الفهم نحو تصنيفه لهذه الشواهد، سواءً بالسلب، أو الإيجاب، ومما صنفه كقول حجاجي، يقوم بفعل الإقناع بقوة، وقد وصفه بالكلام الذي يعطف القلوب النافرة، قول آخر لأخ له: «زيَّن اللهُ أُلْفَتَنَا بمعاودة صلتك واجتماعنا بترادف زيارتك، وأيامنا الموحشة لغيبتك برؤيتك توعدتني بالانتقام على إخلالي بمطالعتك، وحسبي من عقوبتك ما ابتليتُ من عدم مشاهدتك»[3].

إنَّ الوصف الذي خصّه العسكري لهذا القول، يصنفه كقول حجاجي، يحوي عناصر حجاجية تعطف بالقلوب، وبالتالي تقنع العقول، وهذا هو مطلب الحجاج.

---

[1]– العسكري، الصناعتين، ص:66–67.

[2]– عبد الله صولة، الحجاج أطره، ومنطلقاته، ص:299.

[3]–العسكري، المصدر السابق، ص:51.

1- الحجاج في القرآن والحديث: للنص الديني خصوصية جوهرية في الاستمالة والتأثير والإقناع، ما جعل منه خطاباً حجاجيا بامتياز، فهو نص يقوم «على دعوى يروم إقناع المخاطبين بها»[1]، وقد حظيَّ القرآن الكريم بعدة دراسات، ولعل أهم ما يثير اهتمام البحث ويتماس مع مُبتغاه في الحجاج والقرآن عمل عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، قام فيه صاحبه برصد المكوّن الحجاجي للقرآن، والتركيز على الأسلوب كوسيلة حجاجية «فالأسلوب حجاجي، والحجاج يحمله الأسلوب»[2] وهذا ما سننطلق منه في الإشارة لتنبه العسكري لحجاجية القرآن الكريم والحديث الشريف، بتركيزه هو أيضا على الأسلوب البلاغي، فهو لا يلبث يستشهد من القرآن والحديث في جلِّ تفصيلاته عن مفهوم البلاغة وصنعة الكلام عنده، فالأساليب البلاغية «قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية، بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية»[3]؛ هذا التحول لا يمسُ جوهرها كأسلوب بلاغي، لكن يضيف لوظيفتها البلاغية وظيفة أخرى وظيفةً حجاجية وكلاهما متوفر في الخطاب القرآني.

يتناول البحث في جزء منه الأساليب البلاغية ووظائفها الحجاجية بصورة عامة عند العسكري، وفي هذا الموضع سيتم التركيز على رؤية العسكري لهذه الأساليب في القرآن والحديث.

1- **الاستعارة:** بيَّن العسكري فضل الاستعارة على الحقيقة في الخطاب، وأكثر من الشواهد القرآنية وما نلاحظه تركيز العسكري على توضيح فعل الاستعارة في الآيات التي ذكرها مستشهدًا، وما تحدثه من تأثير في النفس، والعقل مقارنا إيّاها مع الحقيقة، حتى يُوضح الفرق بينهما، فيقترح حججًا ناجمة عن الحقيقة ثم يقول والاستعارة أبلغ، ويعلن عن الحجة الناجمة عن الاستعارة، وأنها تمثل درجة أعلى في الإقناع «ففضل الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة، أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل

[1]- محمد مشبال، بلاغة الخطاب الديني، الطبعة الأولى، دار الأمان، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، المغرب، الجزائر، سنة2015، ص:185.

[2]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص:58.

[3]- صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، الطبعة الأولى، صفحات للطباعة والنشر، سورية، سنة: 2008، ص:50.

الحقيقة»[1] ومما أورد من شواهد القرآن، قوله عزّ وجلّ ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾[2]؛ حقيقتها كثرة الشيب في الرأس، والاستعارة أبلغ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه، ولأنه لا يتلافى انتشاره في الرأس كما لا يتلافى اشتعال النار»[3]؛ أخرج أبو هلال هذه الاستعارة إخراجًا حجاجيا وبين فاعليتها الطافحة في الإقناع، ولو أن الله عز وجل جعل هذا المعنى على الحقيقة لما أدى هذه الوظيفة الحجاجية بهذه الفعالية.

الاستعارة	الحقيقة
اشتعل الرأس شيبا	انتشر الشيب في شعر الرأس
أكثر مبالغة	أقل مبالغة (كلام عادي)
أكثر بيان وشرح للمعنى	معنى أقل بيانا
معنى أظهر	معنى ظاهر
ألفاظ أقلْ	ألفاظ أكثرْ

ومن الحديث النبوي ذكر أبو هلال قوله صلى الله عليه وسلم «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[4] ولم يشرح العسكري ما أورده من أمثلة في الحديث وجوه الاستعارة والحقيقة كما فعل مع آيات القرآن الكريم، لكن يتوضح لنا المعنى المقصود، إذ يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم الخير بخيط يعقد، ويتصوره معقودا بنواصي الخيل، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، فلو قال صلى الله عليه وسلم الخيل فيها الخير لما كان المعنى بهذا البيان، ولما انتبه المتلقي للجمع بين الخير الخيل.

2– **التشبيه:** هذه الآلية من أهم الآليات الحجاجية، وقد خصص العسكري أثناء تفصيله في حدّها وما يستحسن من منثور الكلام منها جزءا كبيرا للقرآن الكريم، ومجراه في الحجاج مجرى الاستعارة، إذ يقوي العملية الحجاجية ويرفدها، لأن آليات التمثيل من أوسع الطرق الاستدلالية أثرًا في الخطابات

[1]–العسكري، الصناعتين، ص: 269.

[2]– سورة مريم، الآية:04.

[3]–العسكري، المصدر السابق، ص:272.

[4]–العسكري، المصدر السابق، ص:277.

الإنسانية وأكثرها انتشارا،[1] فكيف لا تكون حاضرة في الخطاب الإلهي؟ وما لاحظناه أن العسكري وأثناء تفصيله في أوجه التشبيه وأجوده اكتفى بالشواهد القرآنية فقط، وشرحها، لما لها من جمالية بلاغية، وما لها من أثر في الاستمالة أيضًا، ومما ذكر من شواهد في أضرب التشبيه، قوله عزّ وجلّ ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**﴾[2] والمعنى هنا زاد قوة وأثرا بفضل التشبيه؛ فقد شبه الله عزّ وجلّ من يدعو ويرجو غيره، بالذي يبسط كفيه ليملأها ماء فلا تمتلئ، ولا تبلغ فمه فيشرب بل يبقى ظمآنا، هذه الصورة قوّت معنى الدعوة إلى الإيمان بالله، ودعائه وحده والاستغناء عن غيره.

إنما كان الغرض هنا توضيح تقديم العسكري للنص القرآني، ليثبت ما دعا إليه في مقدمته، وهو تدارس القرآن الكريم، واستعمال البلاغة للوصول إلى إعجازه، لذلك لاحظنا استحضاره للشواهد من القرآن الكريم في باب البديع، وإظهاره حتى الأشكال الصوتية ودورها في الإقناع النصي، بربطها مع الدلالة طبعًا، فقد ذكر شواهد من القرآن والحديث في باب السجع والازدواج، وباب التجنيس، وغيرها من فروع البلاغة عنده والتي تهدف إلى الاستمالة والإقناع.

2- **الخطبة:** من الخطب التي ذكرها العسكري، قول الحسن بن علي رضي الله عنهما «اعلمُوا أنَّ الحكمة زين، والوقارُ مروءة، والصلة نعمة، والإكثار صَلَف، والعجلة سَفَهٌ، والسّفَه ضعف، والغلق ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شيْن، ومخالطة أهل الفسوق ريبة»[3] تظهر هذه الخطبة من خلال ألفاظها، وأسلوبها أنها خطبة وعظ، حيث استرسل الخطيب في توسيع خطابه، وتنويع ملفوظاته، ليصل إلى مقصده عند المتلقي، إذا افتتح كلامه بقوله: اعلموا، وهو يشدّ انتباه متلقيه وهو في مقامه كواعظ هيأ الصورة، والصورة الناتجة عنها، حيث يقول الحكمة زين، الوقار مروءة، الصلة نعمة...الخ، وإنما استحضر العسكري هذه الخطبة في معرض كلامه عن الكلام ومجراه مجرى السيل عند البليغ وهذه بحدّ ذاتها حجة، وهذا ما ظهر مع الحسن بن علي رضي الله عنهما، فسيلان المعاني والألفاظ،

[1]- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، الطبعة الثانية، المركز الثقافي، بيروت، دت، ص:174.

[2] -سورة الرعد ، الآية 14.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص:43.

وتجانسهما زاد من مقبولية الخطاب و«هذه هي البلاغة التامة والبيان الكامل»[1] كما عبر العسكري؛ لأن نسقية البناء الخطابي، والمكونات البلاغية الإقناعية قد توفرت في الخطبة السابقة.

فقد تكونت من حجج كحجة التمثيل analoge، وهي من الحجج القائمة على الاتصال المؤسس لبنية الواقع، وهو عامل خلق وإبداع، يوضح تشابه علاقات الأشياء، والحجج الواردة في خطبة الحسن بن علي كلها قائمة على هذه الأسس، الحكمة زين: تمثيل؛ فالحكمة تزين صاحبها وتجعله موسوما بها؛ والوقار مروءة، أيضا تجمعهما علاقة تمثيل فما من شخص وقور له مكانة بين الناس إلَّا وكان رجلا صاحب مروءة، وهكذا مع باقي الحجج المستعملة، وهدف الحسن كما رأينا الوعظ لهذا جاء الأسلوب سهلًا سلسًا واضحًا.

3– **المناظرة:** لم يشر العسكري إلى المناظرة مباشرة كجنس من أجناس الكلام، ربما لاعتباره إياها خطبة من حيث الشكل، وما المناظرة إلاّ خطبة مُتَمَاسَة مع الجدل؛ إذ لها ما للخطبة في نسقها البنائي، والواقع أن الصناعتين حوى مناظرة واحدة، ذكرها العسكري في معرض تفصيله في موضوع حدّ البلاغة، وتوضيح وجوهها[2]، وكأنه يسِمُ هذا الخطاب بالحجاجية، وقد وضع العسكري حدا للبلاغة جعلها من خلاله وسيلة حجاجية تستعمل لإقناع المتلقين، وجاء بنص المناظرة مستشهدا على هذا، وهذا نصها «قال المأمون لمرتد عن الإسلام إلى النصرانية: أي شيء أوحشك في الإسلام فتركته؟ قال: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم، فقال المأمون: لنا اختلافان، أحدهما كاختلافنا في الآذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشَهد، وفي صلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفُتْيا، وما أشبه ذلك. وليس هذا باختلاف؛ وإنما ذلك توسعةً وتخفيفًا من المحنة. والاختلاف الآخر كنحوِ اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الخبر عن نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر.

فإن كان الذي أوحشك هو هذا حتى أنكرت هذا الكتاب، فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقا على تأويله، كما يكون متفقا على تنزيله، ولا يكون بين النصارى اختلاف في شيء من التأويلات، ولو شاء الله أن ينزِّل كتبه ويجعل كلام أنبيائه، وورثة رسله كلامًا لا يحتاج إلى

[1]– العسكري، الصناعتين، ص:43.

[2]– ينظر: العسكري، المصدر نفسه، ص:52.

تفسير لفعل؛ ولكننا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفِعَ إلينا على الكِفَاية. ولو كان الأمر كذلك لسقطت المحنة والبلوى، وذهبت المسابقةُ والمنافسة، ولم يكن تفاضلٌ؛ وليس على هذا بنى الله الدنيا.

فقال المرتدُّ: أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، ولا ولد، وأن المسيح عبد الله، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم صادق، وأنك أمير المؤمنين حقًّا»[1].

ما يلاحظ على الخطاب السابق، أنه ممارسة حوارية أساسها دعوى يقدمها المدعي ويبادر بها متوخيا الإقناع بمُدَّعَاه، ولوجود مدّعٍ وجود معترض بطبيعة الحال وظيفته فحص وتحري الأدلة التي قدمها المدعي، والرَّدْ بأدلة مضادة، وهذا هو المفهوم البسيط للمناظرة [2] وهذه الأمور جميعها متوفرة في النص المذكور، إضافة إلى آليات إقناعية أخرى وهي:

1- **الحوار**: أساسي في تشكيل بنية المناظرة، وهو ما يميزها بتبادل الحوار بين مُدَّعٍ ومُعتَرِض، وهما هنا المأمون، والمرتّد «وإن ما يثبت الطابع المباشر لحوار المناظرة، هو اعتمادها المكثّف على السؤال والجواب، وهما مؤشران على حالية النقاش، وحضور الذوات المتفاعلة،»[3]وقد ابتدأ المأمون بطرح سؤال: «أيُ شيء أوحشك في الإسلام فتركته»[4]، والبادئ في السؤال هو المدَّعي، وقد وضع المأمون إستراتيجية معينة حاول من خلالها الوصول إلى هدف ما، فبادر بالسؤال المبني على إجابة المرتد وينطلق حيث انتهى، بحشد حجج ودلائل تبطل مذهب هذا المرتد، وبدأ دائرة الحوار، لتدور الدائرة، وتصل إلى المرتد، حيث عليه أن يجيب عن السؤال فقال: «أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم»[5] في هذا الاتجاه تُبنى المناظرة عن طريق الحوار، وهي إستراتيجية حجاجية، تعطي لكل طرف إمكانية التصدي لنظيره، والاحتجاج لرأيه.

2- **أدوار الكلام**: طبيعة الحوار، وكما تمت الإشارة تفرض تناوب المتناظرين على أدوار الكلام، بأن يأخذ كل مناظر حيزًا يطرح فيه آرائه وحججه، ويجادل خصمه بطرح أسئلة ليمُدَّ أبعاد المناظرة، وفي أصل بناء المناظرة يجب انتظام التناوب بين المتناظرين، لكن هذا ليس شرطًا يفسد بناء المناظرة إن هو

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:52-53.

[2]- ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص:170.

[3]- عبد اللطيف عادل، المرجع نفسه، ص:183.

[4]- العسكري، المصدر السابق، ص: 52.

[5]- العسكري، المصدر السابق، ص: 52.

غاب، إذ يمكن أن يتدخل طرف أكثر من طرف آخر، بحكم صمت أحد الطرفين، أو قطع كلام أحد الطرفين أو الاستبداد بالكلام [1]، وهذا الأخير هو ما حدث في مناظرة المأمون. فهو أمير المؤمنين السلطان، وعلى من يقف في حضرته أن يبدي الطاعة، بحيث لا يستطيع مقاطعته، وكل هذه الحيثيات التداولية، تدخل في تخريج الخطاب المناظراتي في الأخير، إلَّا أن الصورة قد لا تكون بالوصف الدقيق للاستبداد بالكلام، بل لدواع أخرى، كفصاحة المأمون، وقوة حجته، وقد أفحم الرجل، فلم يكن هناك مجال لأخذ دور أكبر مساحة من دور المأمون، فكان دوره القادم في الكلام مباشرة بعد سماعه للمأمون هو الاقتناع، والاستسلام، والإذعان، والرجوع إلى الحق الذي زاغ عنه.

3- **حشد الحجج:**

1- حجج المرتد: وهي حجة وحيدة، متمثلة في جواب المرتد؛ فقد احتَجّ للارتداد عن الإسلام بحجة الاختلاف بين المسلمين.

2- حجج المأمون: أخذ المأمون وكما تمت الإشارة الحيز الأكبر من التدخل في المناظرة، فقام بجمع مجموعة من الحجج، انطلق فيها من حجة المرتد نفسها؛ حيث استخدم حجة شبه منطقية من النوع الذي يَعْتَمِدُ العلاقات الرياضية، وهي تقسيم الكل إلى أجزائه المكوّنة له، حيث قسم أولًا الاختلاف إلى اختلافين ثم فصل في كل اختلافٍ على حدة، فقال: «لنا اختلافان، أحدهما...»[2] شرح هذه التفصيلات، ثم استعمل حجة أخرى مختلفة من حيث انتماؤها حسب تقسيم بريلمان للحجج، حيث تنتمي إلى الطرق الانفصالية، وهي حجة تقوم على أزواج من المفاهيم ظاهرية وحقيقية، وتتجلى في نقل المأمون الحديث عن الاختلاف الأول، والتفصيل فيه حيث قال «كاختلافنا في الآذان، وتكبير الجنائز (...) وليس هذا باختلاف وإنما ذلك توسعة، وتخفيف من المحنة»[3]؛ فالظاهر هنا وجود اختلاف لكن الحقيقة ما هو باختلاف بل هو تيسير، وتوسيع على المسلمين، واستمد هذا التعبير مظهره الحجاجي من فصله داخل المفهوم الواحد بين ما هو ظاهري، وما هو حقيقي[4] وباستخدامه لهذه الحجة، لا يذهب بذهن نظيره أن الإسلام يخلو من الاختلاف، ولكنه وضح هذا

[1]- ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص:190-191.

[2]- العسكري، الصناعتين، ص:52.

[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص:52.

[4]-ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص:345.

الاختلاف، وأن هذا النوع من الاختلاف في ظاهره اختلاف لكن حقيقته غير معنى الاختلاف السلبي، الذي يولّدُ الفتن، ثم يذكر الجزء الآخر من الاختلاف «والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الخبر عن نبينا عليه الصلاة والسلام...»[1]. والمعنى أن الاتفاق موجود في الأصل، وهو أننا نؤمن جميعا بنزول القرآن من عند الله عزّ وجلّ على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه دلالة استعماله لصيغة المتكلم الجمع «نبينا كتابنا» ويمكن الاختلاف في جزئية التأويل، وهذا فيه اجتهاد ونظر لا يَرْكَحُ للمعنى الحقيقي للاختلاف.

يستمر المأمون في شرح حججه مرتبة، ليستعمل حجة المقارنة، وهي حجة يستندُ فيها إلى القياس ثم التقويم، بناء على المقابل، أو المماثل أو المنافس[2]، تمثلت هذه الحجة في مقارنته بين كتاب القرآن، والتوراة والإنجيل، فإذا كان الاختلاف في تأويل القرآن قائم، فإن الاختلاف في التنزيل منعدم لكن في المقابل الاختلاف في التوراة والإنجيل موجود في الحالتين. بل وأكثر من ذلك احتج لهذا الاختلاف الموجود في التأويل لكتاب القرآن «لو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلامه وورثة رسله كلامًا لا يحتاج إلى التغيير لفعل»[3]؛ أي أن الله عزّ وجلّ هو القادر على كل شيء، ولو شاء أن يجعل باب تأويل كلامه، أو كلام أنبيائه موصدًا تماما لفعل، وإنما هذا من حكمته عزّ وجلّ لإقامة المسابقة والمنافسة بين عباده، ولو أن أمر الدين والدنيا دفع إلينا كفاية، لم يكن هناك تفاضل بيننا، وليس على هذا بنى الله الدنيا.

تدرج المأمون بأفكاره، حتى توصل إلى الحقيقة التي جهلها المرتد، فاحتجّ بأقوى الحجج ليصل إلى النتيجة المبتغاة من خطابه، وهي إقناع هذا المرتد بحقيقة الإسلام وكانت النتيجة فعلا كلاميا واضحًا، حيث أن ثاني دور للمرتد في دائرة الحوار كان النطق بالشهادتين، فقد استعمل المأمون خطابا بلاغيا حجاجيا كما رامه العسكري «كشف ما غمض من الحق» وهذا هو سبب استحضاره لهذا الشاهد في هذا المقام.

---

[1]-العسكري، الصناعتين، ص:52.

[2]-chaim perlman, traite de l'argumentation, p : 355. الترجمة نقلا عن عبد الجليل الشعراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، ص:37.

[3]-العسكري، المصدر السابق، ص:52.

4- الحجاج في الرسائل: فصَّل العسكري فيما يحتاج الكاتب إلى ارتماسه، وامتثاله في مكاتباته فتكلم عن كفايات الكاتب، وكفايات الخطاب المكتوب؛ ودعا الكاتب إلى تجنب التعمية وأن يسير إلى تسهيل اللفظ والمعنى، كدعوته في باقي أجناس الكلام. وما يمكن أن تمثله كواسمٍ حجاجي لطريقة كتابة الرسائل عند العسكري هي مراعاة الحال، أو كما قال «مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم»[1] وهذا من صفات النص الحجاجي؛ إذ يبني الكاتب نصه على وعي دقيق بما تقتضيه العملية التقبلية للنص، حتى لكأنه ينجز نصه مراعيا ظروف المتقبل، وحيثيات الانجاز[2]، «والشاهد عليه أن النبي عليه الصلاة والسلام، لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس، كتب إليهم بما يمكن ترجمتهُ فكتب من محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيم الفرس: سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة، لينذر من كان حيًّا، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم فإن أبيت فإثم المجوس عليك.»[3]

فقد سهل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجاز وراعى المقام، وكلها شروط حجاجية أشار العسكري إلى ضرورة توخيها في كتابة الرسائل، السهولة لعدم معرفة المتلقي بالعربية، والإيجاز لأن «التطويل يفرض على المتلقي قدرة على التركيز والانتباه، وتتبع كل حلقات الحجاج، ورصد العلاقات بين مفاصل النص، وبين الأدلة والبراهين المؤدية إليها»[4]؛ وأهل فارس وملكهم لا يطيقون فهم واستيعاب رسالة بهذا الطول، لذلك أوجز النبي صلى الله عليه وسلم، على عكس ما فعل في رسالة لأكيدر صاحب دُومة الجندل من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله:

[1]- العسكري، الصناعتين، ص:154.

[2]- ينظر: عز الدين الناجح، تداولية الضمني والحجاج، بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب، ص: 169.

[3]- العسكري، المصدر السابق، ص:154-155.

[4]- سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ص:121.

إنَّ لنا الضاحية من الضَّحل[1]، والبور والمعامي[2]، وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح، ولكم الضَّامِنَة[3] من النخل، والمعين من المعمور، ولا تعدل سارحتُكم[4] ولا تعدُّ فارِدتُكم، ولا يُحْظَر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤدون الزكاة، عليكم بذلك عهد الله وميثاقُه»[5].

الملاحظ في هذا الكتاب استعمال النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظًا يعرفها العربي المتمكن من العربية فقط، إضافة إلى تطويل خطابه صلى الله عليه وسلم، فهو في مقام ما يقتضيه أثار المكتوب إليه في الإحسان، وكتب بهذا الأسلوب لترتاح قلوب هؤلاء القوم، وهم حديثوا عهد بالإسلام، وإنما استشهد العسكري بهذا الكتاب ليوضح طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الإقناع، وهو أبلغ من تكلم صلى الله عليه وسلم.

والعسكري قد فصّل في كل غرض من أغراض الكتب، وما تستوجبه من تقنيات ترفدُ حجاجيتها، فمثلا «الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية سَبيلها أن تكون مشبعَةً مستقصاة تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب،»[6] وأتى العسكري عقب هذا بكتاب للمهلب إلى الحَجّاج يبشره فيه بالنصر، يبيّن فيه مدى ملائمة الإطناب للغرض الحجاجي هنا، وهو التبشير بالنصر «وإنما حسن في موضعه ومع الغرض الذي كان لكاتبه»[7] إضافة إلى هذا ذكر العسكري طريقة كتابه الرسالة وما ينبغي ينبغي لبنائها، حتى تكمل وظيفتها البلاغية والحجاجية.

هذا ما تهيّأ إعداده في رصد التخريجات الحجاجية للصناعة الأدبية عند العسكري، وقد توضحت بعض الأبعاد الحجاجية من خلال تتبع تعليقات العسكري على شواهد كتابه المختارة، لتبيّن تصوره للبناء النصي القائم على توخي الفهم والإفهام، والإمتاع والإقناع.

---

[1]- الضاحية: الخارجة عن العمارة، وهي خلاف الضامنة، الضحل: الماء الثقيل.

[2]- المعامي: الأغفال وهي الأرضون المجهولة.

[3]- الضامنة: ماكان داخلا في العمارة، وتضمنه أمصارهم وقراهم.

[4]- لا تصرف عن معنى تريده.

[5]- العسكري، الصناعتين، ص: 156.

[6]- العسكري، المصدر نفسه، ص190.

[7]- العسكري، المصدر نفسه، ص:191.

خاتمة

خاتمة

تمثل البلاغة الآلة الأساسية التي تتضمّن المفاتيح القمينة بمخاتلة الخطاب، مما يفرض على الباحث التحلي بقدرة التمكن من أسرارها ومخادعاتها وحيلها، لذا لابد من الإلمام بأصول هذا العلم والعودة إلى التراث، ومن هنا جاءت هذه المقاربة لعمل أبي هلال العسكري، حيث أثبتنا من خلاله أن البلاغة العربية القديمة –كباقي البلاغات القديمة– عانت من الانحسار والاختزال، ولما شهدت البلاغة الأرسطية إحياءً وبعثًا جديدًا فلم يكن مثل هذا الإحياء بعيدا عن البلاغة العربية، لتشابه عناصرهما إذ إنهما تجتمعان في احتضان منطقهما للبرهان والحجاج، وهو ما تنبه إليه دارسو الحجاج مؤخرا، إضافة إلى إمكانية الاستدلال بالعواطف؛ هذا الأمر الذي كان خامدا خاملا في البلاغة وهي محنطة فلم يظهر إلاّ بعد بعثها من جديد، ولعله الهاجس الأقوى الذي شكل الغرض الجوهري من انجاز هذا العمل الذي وصل إلى مجموع من النتائج يمكن حصرها فيما يلي:

– الحجاج عبارة عن ممارسة حاضرة في كل أنشطة البشر اليومية، فهو يضرب بجذوره في عمق التاريخ، بدليل أن أقدم فترة درس فيها الحجاج وتطور فيها هي الحقبة اليونانية، حيث وظّف البرهان والحوار بغرض الإقناع والتأثير، ثم أخذ المفهوم يتشكل نظريا وعمليا بعد ذلك في دراسات مختلفة تجاوزت التصورات اليونانية.

– الحجاج عند أفلاطون حجاج أخلاقي مثالي يقدم الحقيقة ويجعلها المنهج والهدف في الأقاويل الحجاجية، وقد أسس لمذهبه من خلال محاوراته مع السفسطائيين، وبمحاربة أقوالهم القائمة على الظّن والمراوغة.

– محاولة أرسطو إزالة المعاني القدحية التي كانت تنسب للبلاغة، في عصر أستاذه أفلاطون، فرفض الأساليب السفسطائية، مثلما رفض المثالية المفرطة لأستاذه، فدعا إلى بلاغة شاملة لكل أطراف العملية التواصلية، وكشف عن الآليات الحجاجية، وأوقع مسألة الحجاج موقعا مهما في بلاغته.

– أصيبت البلاغة بعد الحقبة اليونانية بالركود، فأصبحت بلاغة صورة وأسلوب، ففقدت بريقها، وأصبحت مجرد بلاغة معيارية تعليمية معدومة الفاعلية، فهي مجرد تزويد للمبدع بآليات تجعل كلامه فصيحا بليغا لا غير، إلى أن انتفضت الدراسات ودارت عجلتها نحو إحياء البلاغة بالعودة إلى التركيز على بلاغة الإقناع لا بلاغة اللفظ والتعبير، وكان ذلك أواخر القرن العشرين مع شايم بريلمان الذي

ذهب بها من خانة المحسنات والمجازات اللغوية إلى مفهوم الحجاج المتصل بتقنيات الخطاب المؤدية بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها أو الزيادة في درجة ذلك التسليم.

– حلول دراسات أخرى تقارب الحجاج من زاوية اللغة مع ديكرو وأنسكومبر اللذين ركزا على اللغة بالأساس وذهبا إلى أن الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتابع وتترابط على نحو دقيق، فتكون بعضها حججا تدعم وتثبت بعضها الآخر، وذلك يُظهر مكانة اللغة في نظريتهما، حيث تصورا أنّ النتيجة في الحجاج قد تكون ظاهرة، وقد يتوصل إليها المتلقي باستنتاجاته عن طريق سبره للغة المخاطب بها، هذا الاهتمام باللغة حتما يؤدي إلى الاهتمام بالأشكال الدلالية؛ لذلك كان أساس نظريتهما رفض التصوّر القائم على الفصل بين الدلالة وموضوعها معنى الجملة.

– قامت التداولية على أساس استعمال الجملة في المقام من جهة، والسعي إلى سبر كل ما له صلة داخل بنية اللغة بالاستعمال البلاغي المحتمل من جهة أخرى، وبذلك يتحقق تقديم الدلالة التداولية عن الدلالة الخبرية، وعندئذ يحصر مجال البحث فيما يعرف بالجزء التداولي المدمج في الدلالة الذي يختص بالبحث في الدلالة التداولية وشروطها، وهكذا تكون هذه المقاربة قد تناولت الحجاج من ناحية تداولية قولية، فبحثت عن الوظيفة الحجاجية، والأعمال القولية للعبارة اللسانية.

– إعادة إحياء البلاغة الغربية أنعش البلاغة العربية أيضا، فهي جزء من بلاغة التراث البلاغي الإنساني؛ وإن كان للتراث البلاغي العربي في البدء منزع عقلي مع كتب الجاحظ ورسائله التي تبيّن الخصائص الفنية المميزة لكتابته من جهة الحجاج، وكذلك الاهتمام بالمنهج العلمي وتجليات الفكر الاعتزالي في مجالي اللغة والأدب؛ أما المنهج العلمي فيدور الاهتمام فيه على مظاهر الموضوعية والشك والتجربة ومقوماتها، وأما الفكر الاعتزالي فمجال النظر فيه متعلق بكيفية الاستدلال على المسائل الفكرية والكلامية بالحجج العقلية: النقد، الشك، الجدل.

– ركز الجاحظ في حجاجية بلاغته على الخطابة، فهو أحسن من اهتم بها وأسس لها في البلاغة العربية، وهي من أكثر تجليات حجاجية البلاغة العربية، إذ أن غرضها الإقناع بطبيعة الحال، وقد مهد الحاجظ نظريًا لكل حيثيات البناء الخطابي حتى يكون مقنعا.

– بروز فن المناظرة في التراث كخطبة قائمة على الجدل تحتاج إلى آليات حجاجية تجعلها خطابا مقنعا، لتمثل –عربيًا على الأقل– نمطًا حجاجيًا متميزًا باعتبارها فعالية تداولية جدلية، لتكون بذلك

الحجاج نفسه، على اعتبار أنّ منطلق الحجاج الاختلاف، وإن هذا الشكل من أشكال التعبير الأدبي العربي ينطلق من سؤال ينتج حوارًا بين طرفين لهما وجهات نظر مختلفة.

– وإذا كانت كل الأغراض النثرية –كما لاحظنا– تراعي القواعد الحجاجية، فإنّ للشعر أيضا آليات إقناعية إلى جانب الآليات التحسينية، وإنّ لهذه الآليات دورًا أساسيًا إضافة إلى التنميق والتخييل وقد تمثل في الإقناع، وبذلك يكون البحث قد توصل فيما توصل إليه من نتائج إلى:

توفر البلاغة العربية على المضامين الحجاجية، من خلال تطرقه لحجاجية ما تحمله المدونة المختارة.

تجاوز العسكري في رؤيته لهدف البلاغة كونه تزويد المبدع بأدوات تعينه على الإنتاج الفني والجمالي بغية اكتساب ملكة البلاغة والفصاحة فحسب، بل وإضافة إلى كل ذلك هدف التأثير والإقناع، وما يؤكد ذلك أن العسكري اهتم بكل عناصر العملية التواصلية. ورصد الكفايات التي يجب أن تتوفر في كل عنصر منها حتى يكون الخطاب مقنعا.

أولا: كفايات المتكلم، من معرفته للعربية، وتخيره للفظ والمعنى، إضافة إلى كفايات ثقافية وتداولية، وهي مكتسبات يمتلكها صاحب الخطاب كمعرفة أنساب العرب، وأمثالها، آثارها ومآثرها.

ثانيا: كفايات خاصة بالمتلقي: القدرة على الفهم، وتمييز الأفكار، والقدرة على الاستماع الحسن، هي كفيلة بإدراك المعنى والاقتناع به.

ثالثا: كفايات النص فهو عند العسكري يتنوع بتنوع الأحوال والمواضيع، وقد وضع خصائص معينة لكل نوع، وربما تجلى رصد حجاجية الرسالة الأدبية في الباب الثاني من الصناعتين والذي عنونه بـ "تمييز الكلام جيده من رديئه" غير أن البحث لم يكتف بهذا الفصل؛ بل ذهب إلى رصد تلك الحجاجية في كل فصول الكتاب.

رابعا: المقام: وفيه اهتم بضرورة التكييف بين الرسالة اللغوية، وما يستدعيه الحال؛ فللسياق دور هام في ضبط خصوصيات الرسالة الإبلاغية، موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال.

كما رصد البحث التجليات الحجاجية في النتاج الأدبي العربي شعره ونثره في الصناعتين، حيث ظهر للبحث أن الرؤى النقدية العسكرية رؤى تذهب بالخطاب نحو الحجاج، انطلاقا من تعليقات العسكري النقدية على الشواهد الشعرية يظهر استحالة تصور الوظيفة الشعرية بمعزل عن الوظيفة

الإقناعية، لذلك صنف الحجج الأكثر إقناعا في الشعر وتنبه إلى مبادئ صناعة هذه الحجج، وقد تم رصد المظاهر الحجاجية للشعر في تصور العسكري انطلاقا من التقنيات التي اتخذها نماذجا لبناء الشعر، باختيار الحجج وترتيبها، بل وقد ذكر سبلا لابتكار حجج جديدة، فيكون العسكري بذلك قد رصد الوسائل التي تجعل الخطاب الشعري خطابا حجاجيا، وقد اتبع نفس المسار في الخطاب النثري، إذ تتبع كل متعلقات إنتاجه من منتج ومتلقي وظروف إنتاج، وتخير أحسن ما يكون ليكون ذلك الخطاب حجاجيا؛ لتكون البلاغة في تصور العسكري حجاجية دون شرط ربطها بالصرامة التي يفرضها العقل، بل ببقائها في شكلها الجمالي وتأدية وظيفة الإقناع بذلك الجمال البلاغي بعينه.

في خاتمة الختام أجدد شكري لمن كان عونا لي في هذا البحث، فلم يبخل بجهده، ولم يضن بوقته، فكابد نصب القراءة، وركب مضطرب التوجيه، وجاهد عسر التقويم ليظهر البحث بهذه الحلة، فله مني جزيل الشكر، بل كل الشكر بعد الله عزّ وجلّ على إتمام العمل وبلوغ المرام، فشكرا أستاذي على ما أعطيت.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا: المصادر والمراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت سنة:1997م.

2. إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دط، دار المعارف، مصر، سنة 1993م.

3. أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية، مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، مطابع منشورات عكاظ،، الرباط، سنة: 1993.

4. أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، دار الكتاب العربي، بيروت 2005.

5. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، دط، المكتبة العلمية، بيروت، دت.

6. أحمد قادم، التحليل الحجاجي للخطاب، الطبعة الأولى، كنوز المعرفة، الأردن، سنة: 2016.

7. الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة: 1999.

8. ألفت الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1984.

9. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، الطبعة الأولى، العمدة في الطبع، سنة:2006.

10. أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، الطبعة الأولى، الأحمدية للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، سنة: 2010.

11. تقي الدين الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام سعيتو، الطبعة الأولى، دار مكتبة الهلال، بيروت، سنة:1987.

12. تمام حسان، الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب(النحو، فقه اللغة البلاغة)، دط، عالم الكتب، القاهرة، سنة: 2000.

13. الجاحظ ، الحيوان، تحقيق، عبد السلام هارون، دط، دار الجيل، بيروت، سنة 1998.

14. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، موفم للنشر، الجزائر، سنة 1993م.

15. جلال الدين السيوطي، الإقتراح في علم أصول النحو،تعليق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، سنة: 2006م.

16. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دط، دار غريب للطباعة، القاهرة، سنة 2000.

17. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

18. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، الطبعة الأولى، كنوز المعرفة، الأردن، سنة: 2014.

19. حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، سنة 1998.

20. حمادي صمود، في نظرية الأدب عند العرب، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، سنة 1990.

21. حمو النقاري، منطق الكلام، من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، سنة:2010.

22. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، شرح: صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، سنة 2002م.

23. أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، ابن وهب الكاتب البغدادي، البرهان في وجوه البيان، تحقيق:حفني محمد شرف، دط، مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة:1969.

24. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، وضح حواشيه: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة:1424هـ، 2003.

25. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، سنة:1398هـ،1978م.

26. خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، مثل من سورة البقرة الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، سنة: 2008.

27. خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سنة:2002.

28. رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة، من الحوار إلى العقل في الحوار، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، سنة:2010.

29. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، سنة:1981م.

30. زروقي عبد القادر، المحاكاة والتخييل، الحدود والتماهي، الطبعة الأولى، دار اليازوري العلمية للنشر، الأردن، سنة:2013.

31. سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم،الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، سنة 2008م.

32. سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته، وأساليبه، دط، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، سنة:2011.

33. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان سنة: 1402/1982.

34. ابن سينا، تلخيص كتاب أرسطا طاليس في الشعر ضمن فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، سنة: 1973.

35. السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد، مفتاح العلوم، ضبطه وشرح هوامشه وعلق عليه، نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة: 1987/1407م.

36. سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره، دط، شركة الشهاب، الجزائر.

37. شمس الدين محمد أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: أكرم البوشي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة:1996.

38. شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن محمد العكري، الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، سنة:1986،

39. شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، سنة: 1995.

40. صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، الطبعة الأولى، صفحات للطباعة والنشر، سورية، سنة: 2008.

41. صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، سنة: 1413هـ/2009م.

42. صادق الحسين الشيرازي، الموجز في المنطق، الطبعة الثالثة، مؤسسة الوفاء، بيروت، سنة: 1981.

43. صالح أبو أصبع خليل، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، د ط، دار مجد لاوي، عمان، سنة: 2000.

44. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب، وعلم النص، دط، مؤسسة المختار للنشر، مصر، سنة: 1996.

45. صلاح فضل، علم الأسلوب، الطبعة الثالثة، النادي الأدبي الثقافي بجدة، سنة 1998م.

46. ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف، مصر، دت.

47. طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، الطبعة الثانية، المركز الثقافي، بيروت، دت.

48. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، سنة: 2012.

49. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الطبعة الرابعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، سنة:2010.

50. ابن عاشور، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، جمادى الأولى، 1396 هـ /1976م.

51. عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، الطبعة الأولى عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد الأردن، سنة : 2014.

52. عبد الجليل عشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، سنة:2012.

53. عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 1993م.

54. أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة: 1998/1418.

55. أبو علي عمر السكوني، عيون المناظرات، تحقيق: سعد العزاب، دط، منشورات الجامعة التونسية، سنة: 1976.

56. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، دط، إفريقيا الشرق، المغرب،سنة:2006.

57. عبد العالي قادة، الحجاج في الخطاب السياسي، الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس أنموذجا(دراسة تحليلية)، الطبعة الأولى، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، سنة: 2015.

58. عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة: 1412 هـ-1992م.

59. عبد الفتاح كيليطو ،الأدب والغرابة، دراسات بنوية في الأدب العربي، الطبعة الثانية، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، سنة: 1983.

60. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة، دار المدني، القاهرة، مصر، سنة: 1413هـ/1992م.

61. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، سنة 2013م.

62. عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، شرح: إغناطيوس كراتشوفسكي، الطبعة الثانية، دار المسيرة لبنان ، سنة:1982.

63. عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القران، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

64. عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج –الخطابة الجديدة- لبريلمان وتيتيكاه، ضمن: مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، دط، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب منوبة، د.ت.

65. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس، 2001م.

66. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، سنة:2004.

67. عز الدين الناجح، تداولية الضمني، والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب، بحوث ومحاولات، مركز النشر الجامعي، تونس، سنة: 2015.

68. عز الدين بليق منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم النبيين والمرسلين، الطبعة الأولى، دار النهج، بيروت، سنة: 1398هـ، 1978م.

69. عزة شبل محمد ، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة:2007.

70. علي الشبعان، الحجاج و الحقيقة وآفاق التأويل، (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، تقديم حمادي صمود، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، سنة:2010.

71. علي بن محمد، مختارات من الشعر العربي، دط، منشورات السهل، سنة:2009،

72. عمار بن مزوز، نافذة على فن الخطابة، دط، دار الأمل للطباعة والنشر، المدينة الجديدة، تيزي وزو، دت.

73. عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، سنة:2009.

74. عمر أوكان، اللغة والخطاب، د ط، إفريقيا الشرق، المغرب، سنة 2001م.

75. الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق: محمد أمين، مكتبة الخانجي، مصر، سنة: 1931.

76. فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، الطبعة الأولى، دار النفائس، عمان، الأردن، سنة:1432 هـ،2011م .

77. القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، الطبعة الرابعة، سنة: 1966.

78. ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، د ط، عالم المعرفة، بيروت، دت.

79. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة.

80. محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية، والبلاغية عند العرب، د ط، دار الحداثة، بيروت، سنة: 1986.

81. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين والتخييل والتداول، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 2005.

82. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 1999.

83. محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، دط، إفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 2011.

84. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الطبعة الثانية، إفريقيا الشرق، المغرب، سنة:2002.

85. محمد آيت حمو، العقل الحجاجي بين الغزالي وابن رشد، دراسات نقدية لفلسفتي الغزالي وابن رشد، الطبعة الأولى، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، سنة: 2012.

86. محمد بن ابراهيم، التقريب لتفسير التحرير والتنوير ، دط، دار خزيمة، تونس.

87. محمد بن إسحاق بن النديم، الفهرست تحقيق: إبراهيم رمضان، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة 1997.

88. محمد خلف الله، ومحمد سلام زغلول، ثلاث رسائل في الإعجاز، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.

89. محمد سالم محمد الأمين الطلبة؛ الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد لمتحدة، لبنان، سنة 2008.

90. محمد طروس، النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،سنة: 2005.

91. محمد عبد الباسط، في حجاج النص الشعري، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، سنة: 2013.

92. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، دط، الهيئة العلمية لصناعة الكتاب، مصر.

93. محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن: مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، دط، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب منوبة، د.ت.

94. محمد مشبال، بلاغة الخطاب الديني، الطبعة الأولى، دار الأمان، منشورات الاختلاف منشورات ضفاف، المغرب، الجزائر، سنة:2015.

95. محمد مشبال، بلاغة النص التراثي ، مقاربات بلاغية حجاجية ، الطبعة الأولى، دار العين للنشر، القاهرة، سنة 2009.

96. محمود بن عمر، جار الله الزمخشسري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دت.

97. هشام، الريفي، الحجاج عند أرسطو؛ ضمن: مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، دط، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب منوبة، د.ت.

98. أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المخبيتركي، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، سنة: 1978.

99. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت سنة: 1406هـ. 1986م.

100. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المأمون، القاهرة، سنة: 1993.

ثانيا: الدواوين الشعرية :

101. ابن الرومي، الديوان، شرح وتحقيق:عبد الأمير علي مهنا، الطبعة الأولى، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، البليدة الجزائر، سنة: 2009

102. أبو تمام، الديوان، ضبط وشرح: شاهين عطية، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان سنة: 2003.

103. أبو نواس، الحسن بن هانئ، الديوان، تحقيق وشرح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة: 2005.

104. الأخطل، الديوان، شرح وتصنيف: مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، لبنان، سنة:1994م.

105. الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، الديوان، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 1987.

106. امرؤ القيس، الديوان، ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، دط، دار الكتب العلمية، لبنان سنة:1425هـ/2004م.

107. البحتري، الديوان، شرح: يوسف الشيخ محمد، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 2000.

108. جرير، الديوان، شرح: تاج الدين شلق، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة: 2004.

109. الحطيئة، الديوان، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: محمد مفيد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 1993.

110. الخنساء، شرح الديوان، تقديم وشرح: فايز محمد، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة: 2005.

111. زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح: حمدو طماس، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، بيروت، سنة: 1426هـ، 2005م.

112. طرفة بن العبد، الديوان، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، لطفي السقال، دط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، لبنان، دت.

113. الفرزدق، الديوان، شرح مجيد طراد، دط، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان.

114. المتنبي، الديوان، مراجعة: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة: 2005.

115. النابغة الذبياني، الديوان، شرح وضبط: عمر فاروق الطبّاع، دط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دت.

ثالثا: المراجع المترجمة

116. أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، سنة:2008.

117. أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، الطبعة الثانية، المطابع الجامعية الفرنسية، سنة: 1994.

118. باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة: أحمد الودرني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، سنة 2009م.

119. تودروف، باختين، المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، د ط، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، مصر، سنة: 1996.

120. جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، المغرب، سنة: 1991.

121. دي بوجراند، النص، الخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، دت.

122. فيليب بروتون، جيل جولنييه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة : محمد صالح ناجي الغامدي، الطبعة الأولى، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، سنة 2011/1432.

123. كريستيان، بلانتان، الحجاج، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، سنة 2010.

رابعاً : الرسائل الجامعية

124. فايز مد الله الذنيبات، قضايا الأسلوب والبلاغة عند العسكري في كتاب الصناعتين، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا، جامعة مؤتة، سنة: 2006.

خامسا: الدوريات والمجلات

125. مجلة المناظرة، العدد الرابع، السنة الثانية، المغرب، شوال 1411، مايو 1991.

126. مجلة المخبر، العدد الثامن، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، سنة 2012.

127. مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد الأربعين، أكتوبر– ديسمبر2011.

128. دورية دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، العدد الأول، الجزائر، ماي، سنة:2008.

129.

130. مجلة علامات، العدد الخامس، سنة 1996.

131. مجلة عالم الفكر، المجلد الأربعون، العدد الثاني، أكتوبر، ديسمبر، 2011.

132. مجلة البيان، العدد: 388، الكويت، مارس 2001م.

سادسا: المراجع باللغة الاجنبية :

133. Chaim prelmen,lucie olbrechts tyteca. traite de l'argumentation, la nouvelle rhetoique.presses univesitaires de france. Paris. 1958
134. Le grand Robert, Dictionnaire de la langue française, paris 1989.
135. Mechel, meyer, les fondements de l'argumention dans argumentation et questionnement, sous la direction de corinne hoogaert, paris presses universitaires en France, 1996.
136. oxford, Advanced learner's dictionary, new edition.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كلمة شكر

إهداء

مقدمة .....أ

الفصل الأول :

الحجاج: المفاهيم، الآليات، المجالات، الخصائص

مفهوم الحجاج..... 02

الحجاج لغة.....02

الحجاج اصطلاحا.....04

الخصائص العامة للحجاج.....06

الخصائص العامة للحجاج في الدرس المعاصر 12

الحجاج الأصول والمنطلقات: 14

التأسيس للدرس الحجاجي: 14

المنظور البلاغي التقليدي للحجاج: 14

الحجاج عند أفلاطون:.....14

النظرية الحجاجية الأرسطية:.....18

المنظور الحديث للحجاج:.....25

البلاغة الجديدة-شايم بيرلمان 25

مفهوم الحجاج:.....26

أقسام الحجاج 28

منطلق الحجاج، المقدمات، بداية العملية الحجاجية 29

التقنيات الحجاجية 31

الطرائق الاتصالية.....32

الطرق الانفصالية في الحجاج 38
استخدام الحجة (تولمين): 39
نظرية المساءلة- ميشال مايير 40
الجذور اليونانية لنظرية المساءلة: 41
مشروع مايير الفلسفي، الحجاج، والمساءلة 42
البلاغة والحجاج: 42
الاتجاهات الأساسية لدراسة الحجاج في البحوث التداولية-المنظور اللغوي-أوزفالد ديكرو 46
الحجاج في اللغة 47
السلالم الحجاجية 48
نظرية التداوليات المدمجة: 49
الفصل الثاني:الأصول العامة للحجاج في البلاغة العربية، الانتقال من الممارسة إلى التأصيل
الإقناع قبل الإسلام 53
المفهوم الحجاجي للبلاغة 55
مظاهر الممارسة الحجاجية في الموروث البلاغي العربي 55
الخطابة: 57
الخطابة لغة: 58
عن تاريخ الخطابة العربية 58
حجاجية الخطابة العربية 60
صور الحجج في الخطابة العربية 60
الأسلوب 64
الترتيب 67
حجاجية المناظرة 71
المناظرة لغة 71
المناظرة اصطلاحا: 71
الاشتغال الحجاجي في المناظرة: 72

الحجاج والشعر 84
توشيح الجمال بالحجاج في الشعر العربي 88
الحجاج بالأنموذج: 88
تقنيات البناء بالأنموذج 89
الحجاج بين البيان والبرهان 92
أولا الوظيفة الفهمية 92
ثانيا: البيان إقناع: 93

الفصل الثالث: مفهوم البلاغة عند العسكري من الأصول إلى التأصيل

التعريف بالمؤَلِف والكتاب 109
الغاية من تأليف الصناعيين 112
الصناعة الأدبية عند العسكري: 113
صناعة الشعر 115
مميزات الشعر عن العسكري: 116
أغراض الشعر عند العسكري: 125
الخطابة 130
الرسائل 134
قضايا البلاغة عند العسكري: 137
مستويات الكلام 137
بنية الصورة البلاغية عن العسكري 139
مصطلح الصورة 139
بنى الصور البلاغية: 142
بنية التشبيه 142
بنية الاستعارة: 143
بنية الكناية: 144

الفصل الرابع: العسكري والحصر الحجاجي للأساليب البلاغية

الحجاج في حدّ البلاغة عند العسكري 147
الحجاج في كفايات المتكلم أو المخاطِب 155
حجاجية النص في بلاغة العسكري 166
ثنائية اللفظ و المعنى ودورهما في الإقناع 167
صفات اللفظ – مدار الإقناع على مستوى الألفاظ 167
تخير اللفظ 167
ترتيب الألفاظ 169
اجتناب التكرير في الكلام القصير 171
صفات المعنى – مدار الإقناع على مستوى المعاني 171
صفات المعاني الإمتاع والإقناع 171
إصابة المعنى 171
السهولة و الوضوح 173
بين اللفظ والمعنى 175
خصائص الخطاب و أغراضه الحجاجية (حجاجية التقنيات الخطابية): 178
الإيجاز والإطناب : 178
الإيجاز 178
الإطناب: 182
حسن الأخذ 183
التشبيه 183
الاستعارة 189
البديع على مستوى المعاني : 191
المطابقة 191
المقابلة: 192
صحة التقسيم 193
صحة التفسير 193

الإشارة 193
الأرداف والتوابع: 194
الكناية والمماثلة: 194
الغلو والمبالغة 195
التذييل والإيغال: 195
التتميم والتكميل: 196
الالتفات: 197
تجاهل العارف ومزج الشكّ باليقين، والاستثناء، والاستشهاد: 197
الاستطراد 199
الاعتراض والرجوع والسلب والإيجاب 200
المضاعفة: 200
التلطف 201
المذهب الكلامي 201
فصل المؤتلف والمختلف: 201
البديع على مستوى الصوت و الإيقاع: 202
المخاطَب، فاعلية المتلقي في الإقناع: 207
أولا: حسن الاستماع 209
ثانيا : حال المتلقي : 210
الحالة الثقافية: 210
الحال القدرية (مكانة المتلقي): 211
المقام : 212

الفصل الخامس:الصناعة الأدبية وبعدها الحجاجي في تصور العسكري

– الحجاج في الشعر: 216
المظاهر الحجاجية في تصور البناء الشعري عند العسكري 221
تقنية النموذج 221

جمع الحجج 225
اختيار الحجج «اختيار الكلام 225
الإقصاء: 233
ترتيب الحجج: 238
صناعة الحجج: 241
حجج على أساس القيم والمعتاد: 241
الأخذ، صناعة الحجج عن طريق التناص: 244
الاستشهاد والاحتجاج: 246
استعمال اسم العلم 246
الحجاج في النثر: 247
الحجاج في القرآن والحديث 251
الاستعارة 251
التشبيه 252
الخطبة 253
المناظرة 254
الحوار 255
أدوار الكلام: 255
حشد الحجج 256
الحجاج في الرسائل: 258
الخاتمة 261
قائمة المصادر و المراجع 266
فهرس الموضوعات 279